

جوامع الآداب في أخلاق الأنجاب

تصنيف علامة الشام

محمد جمال الدين القاسمي رحمه الله

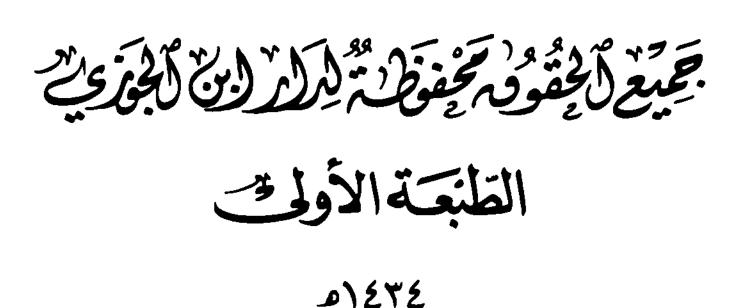
(١٢٨٣-١٣٣٤هـ/ ١٨٦٦-١٩١٤م)



قرأه وضبط نصه وخرج أحاديثه وعلق عليه

طارق بن عبد الواحد بن علي

دار ابن الجوزي





دار ابن الجوزي

لِلنشرِ والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام - طريق الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٨٢
الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨ - جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت: ٦٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٣٧٠٦ - ٠٥٦٣٤٧٦٣٨٨ - بيروت - هاتف:
٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج م ع - محمول: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٨٣ - تلفاكس:
٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠ - الإسكندرية - ٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣ - البريد الإلكتروني:
aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدِّمةُ المُعتني

ـ عفا اللَّهُ عنه ـ

الحمدُ للَّهِ العظيم الخـلَّاق، والصـلاةُ والسـلام على المبعـوثِ بمكارم الأخلاق، وعلى آلهِ وصَحبه والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم التَّلاق.

أما بعد:

فهٰذا كتابٌ نفيسٌ ممن سطَّرته يراعُ علامةِ الشام محمد جمال الدين القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ؛ أقدِّمُه اليوم إحياءً لتراث هٰذا الإمام الحبيب، وسعيًا في نشر العلم النافع؛ ليكون عملًا صالحًا ألقى به ربِّي عَزَّ وَجَلَّ.

وهٰذا الكتاب هو: «**جوامع الآداب في أخلاق الأنجاب**».

وإليكم نبذةً مختصرةً عنه:

يُعدُّ هٰذا الكتابُ مِن أروع وأمتع ما يُقرأ عن آداب المسلم في الحياة بأسرها، وقد تعرَّفتُ على هٰذا الكتاب القيِّم منذ عشر سنواتٍ تقريبًا؛ حينما اقتنيتُ طبعة «مؤسسة قرطبة» العامرة، وبعد أن قرأتُ قِسطًا من صفحاته رأيتُ فيه جمْعًا عظيمًا من الآداب التي لم أرَها بعد ذٰلك مجموعةً في كتاب آخر ـ بالرغم من قراءتي لعـددٍ مـن كتب الآداب القيِّمة[1] ـ ؛ وبعد سنواتٍ

---

(١) ومن أعظم الكتب التي قرأتُها ـ أيضًا ـ ، وقد شرَّفني اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بخدمتها: «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع»، للحافظ العلامة الخطيب البغدادي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ وقد قمتُ ـ بحمد ربِّي وتوفيقه وإحسانه ـ بحذف الأسانيد والمكرَّرات منه، مع الإبقاء على جميع فوائد الكتاب الأخرى، فضلًا عن بيان المعاني والتعليق على أهمِّ المواضع، وتخريج أحاديث =

عديدةٍ من اقتنائي لهٰـذا الكتـاب القيِّم، وإقبـالي على طلب العلم والتأليف وخدمةِ كتب العلماء؛ ارتأيتُ ـ وأرجُو أن يكون هٰذا منَ اللّٰه تبارك وتعالى ـ أن أُخرِجَ هٰذا الكتابَ لإخواني مخدومًا خدمةً تقرِّبُ مسائله، وتوضِّحُ فوائده؛ وإن كنتُ أعلم يقينًا ـ بكل صدقٍ وأمانة ـ أن غيري من جهابذةِ التحقيق[1] والإتقان لو خَدموه لأخرجوه بصورةٍ أكملَ مما فعلتُ؛ لٰكن ما دام قد عُدم الماءُ فلا أقلَّ من التيمُّمِ بالتراب؛ خاصةً وأني لم تقع عينايَ ـ حسبَ علمي القاصر الضعيف ـ على نسخةٍ مخدومةٍ لهٰذا الكتاب القيِّم، والطبعتانِ اللتان رأيتُهما[2] خاليتـان ـ تمامًا ـ من أيِّ خدمـةٍ أو تعليـق[3]؛ وليس مِـن منهجي ـ بحمد اللّٰه ومِنَّته عليَّ ـ أن أنتقصَ أعمالَ الآخرين، أو أُهدِرَ جهودهم ـ وإن كانت يسيرةً ـ ، وإن كنتُ أعتِبُ على أصحـاب المكتبـات ومُخرِجي الكتب ـ وخاصةً تلك الكتب النفيسة ـ عدمَ الاهتمام اللائقِ بها كما ينبغي، لٰكن لعلَّ هناك ظروفًا مَنعت إخواننا الكرام من خدمة هٰذا الكتاب القيِّم، واللّٰهُ تعالى أعلم بالحال، أسألُه تعالى لي ولهم السدادَ والتوفيق والقبول.

وبعد أن انتهيتُ تمامًا مـن رَصفِ الكتـاب وضبطِه والتعليقِ عليه؛ أيقنتُ ـ واللّٰهُ على ما أقولُ شهيد ـ أن هٰذا الكتابَ المبارَك لا يُدرك الكثيرُ من طلبة

= النبوية، وقد طُبع بدار ابن الجوزي العامرة بالدمَّام، وبالرغم من عظمةِ كتاب الخطيب رَحِمَهُ اللّٰهُ؛ إلا أنه خاصٌّ بآداب طالب العلم ومعلِّمه؛ أما كتاب العلَّامة القاسمي ـ وإن لم يكن قد اتسع كاتساعه، وليس فيه من الأدلةِ الشرعيةِ والآثار السلفية ما في كتاب الخطيب ـ ؛ إلا أنه أشملُ منه موضوعًا؛ حيثُ ذَكر فيه ـ كما سنرى إن شاء اللّٰه ـ آدابًا عديدةً لمختلفِ أصناف الناس، وفي كثيرٍ من جوانب الحياة؛ والخلاصةُ أن الكتابين لا غِنى عنهما لمن يريد التكامل في الآداب، ونيلَ أعلى المراتب في الهَدْي الصالح والسَّمْت الحسن، واللّٰهُ المستعان.

(١) ولا أدعي أن عملي في هٰذا الكتاب تحقيقًا؛ فحسبه أنه «اعتناء».

(٢) وهما: طبعة «مؤسسة قرطبة» ـ كما سلف ـ ، وطبعة «دار البصيرة»؛ الموجودة ضمن «رسائل في الأخلاق».

(٣) وإن كان إخراج الكتاب للنور ـ في حد ذاته ـ فضلًا كبيرًا لمن أخرجوه.

العلم ـ خاصةً ـ قيمتَه النفيسة ـ بل النفيسةَ جدًّا ـ، ولعلَّ السببَ في هٰذا هو عدمُ انتشار الكتاب في المكتبات الانتشارَ الكافي، أو عدمُ خروجه بصورة جذابةٍ ومشوِّقة للقارئ؛ خاصةً مع انعدام التعليقاتِ النافعةِ ـ المهمَّة ـ التي تيسِّرُ على قارئه الاستمرارَ في مطالعته، ولا شك أن مثلَ تلك الأسباب مما يُزهِّدُ القرَّاءَ في مطالعة الكتب؛ خاصةً في أزماننا هٰذه التي قلَّت فيها الجدِّيةُ في القراءة والمطالعة، ولسنا بحاجةٍ إلى مزيدٍ من المعوِّقاتِ عنها، وانقطاع السُّبل بيننا وبين تراثِ علمائنا الكبار[١].

✍ نظرةٌ على الكتاب:

إن الناظر في هٰذا الكتاب النفيس يلمحُ خطوطًا عامةً سار عليها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ أبرزُها ما يلي:

١ ـ محاولةُ استيعاب الآداب المتعلِّقةِ بمجالاتٍ عديدةٍ في حياة المسلم؛ فنراه ـ بعد تصدير الكتابِ بأهمية أدبِ النفس، وسَرْدِ قواعدَ جليلةٍ في الأخلاق ـ يتكلم عن أدب العالِم والمتعلِّم، ثم عن الأدب مع الوالدين والأبناء والإخوةِ والخدَم والفتياتِ والأطفال، وكذا تحدَّث عن الأدب مع الأصدقاء والجيران وعامةِ الناس ومُجالسِ الأمراء ونحوهم، وأيضًا تحدَّث عن أدب النصيحة والمناظرة، ثم عرَّج على آداب الصحَّةِ والنوم والسَّكن، وأشار إلى أسباب الأرَق، وأدب اللباس والطعام، وأيضًا تطرَّق لبعض مفاسدِ الدُّخَان، وآداب الرياضة، والمريضِ وعيادته، وزيارةِ القبور، وخصَّ الحديث عن قبرِه الشريف ﷺ، ثم تحدَّث عن آداب السفر وركوبِ القطار وغيره، والنفقات، والسفراء، وآداب المكتباتِ واستعارةِ الكتب والمطالعة... وغير ذٰلك كثير.

---

(١) قرأت سابقًا في بعض الكتب أن بعض الأفاضل اعترض على تسمية كتب علمائنا بكتب «التراث»، لٰكني رأيت العلَّامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم ير بِهٰذا الوصف بأسًا؛ كما في «المناهي اللفظية» (ص ١٨٦ ـ دار ابن الجوزي ـ مصر).

ثم أنهى كتابه بوصايا نافعةٍ قيمة، خاتمًا إياها ببعض الأشعارِ النفيسةِ التي يجدُرُ بالعاقل حِفظُها والاعتناء بها.

٢ ـ كما يلاحَظُ على الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ أنه وَضع في تلك الآداب خلاصةَ ما علمِه من نصوص الشرع المطهَّر؛ فلم يُرِد من ذِكر الآداب حَشدَ الأدلةِ الشرعية على كلِّ أدب، وإنما أراد ـ كما قلتُ ـ وَضعَ خلاصةٍ ميسَّرةٍ يسهُلُ على العوامِّ وغيرهم مطالعتُها؛ لذلك قلَّ في الكتاب ذِكرُ الأدلة الشرعية؛ لأنه لم يكن المقصودَ الأصليَّ عند المؤلفِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

٣ ـ كذلك يلاحَظ على الكتاب الاختصارُ في العبارة، مع سلاسةِ الصياغة والبُعد عن التعقيد.

هٰذه هي الخطوطُ العامة التي يلمحها القارئُ الحبيبُ حالَ مطالعةِ هٰذا الكتاب النفيس، ولعلَّ هناك ملاحظاتٍ أخرى قد تُلفِتُ نظرَ القارئ أثناء التمعُّن في الكتاب والتأمُّل في محتواه، واللَّهُ الموفِّق.

✍ عملي في الكتاب:

ويتلخَّصُ عملي الضئيل في هٰذا الكتابِ النفيس فيما يلي:

١ ـ قراءة النصِّ أكثر من مرةٍ قراءةً متأنية.

٢ ـ تخريجُ الأحاديث تخريجًا مختصرًا.

٣ ـ ضبطُ النص بالشَّكل ضبطًا معتدلًا؛ يُعينُ القارئ على الاسترسال في القراءة دون تعثُّر.

٤ ـ التعليقُ على أهمِّ المواضع التي تحتاج إلى تعليق.

٥ ـ بيان المعاني الغامضة؛ توفيرًا على القارئ عناءَ الرجوع لكتب اللغة.

ويُنتبه إلى أن المؤلِّفَ رَحِمَهُ اللَّهُ له مواضعُ علَّق عليها في الحواشي، وللتفريق بين تعليقاتي وتعليقاتِه رَحِمَهُ اللَّهُ وضعتُ بعد تعليقاتِه كلمةَ (القاسمي) ـ هٰكذا

بين قوسين ـ، وما كان سِوى ذٰلك ـ وهو أكثرُ التعليقات ـ فهو من عندي.

٦ ـ وأحيانًا أشعرُ أن كلام المؤلف بحاجةٍ إلى زيادةٍ في السياق، فأضعُها من عندي بين حاصرتين هٰكذا [ ]، وهٰذا قليل يُعدُّ على الأصابع.

٧ ـ رقَّمتُ فقراتِ وعباراتِ الكتاب بصورةٍ تُسهِّل وتقرِّبُ تناولَه.

وقد وضعتُ ـ كذٰلك ـ ترجمةً مختصرةً للعلَّامة القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ بين يدي الكتاب، لتعريفِ القارئ الكريم بِهٰذا العَلَم الذي خَدَم دينَه وأُمَّتَه خدماتٍ عظيمةً، راجيًا من اللَّهِ تعالى أن يتقبَّلَ منه جميعَ أعمالِه، وأن يتغمَّده بواسع رحمتِه ورضوانه.

فيا أيُّها القارئُ الكريم، أدعوك أن تنتفعَ بما في هٰذا الكتاب العظيم من خيراتٍ وبركات، وسامح أخاكَ المقصِّرَ على ما قد تراه من ضعفٍ في العلم ـ أو قِصَرٍ في النظر ـ حولَ بعض المسائلِ والتعليقات، وابعَثْ إليه بنصائحِك حولَ ما قد تقفُ عليه من تقصير؛ فالمؤمنُ للمؤمن كاليدينِ تغسِلُ إحداهُما الأخرى، وأجملُ شيءٍ في هٰذه الحياةِ الكَدِرةِ أخٌ ناصحٌ مشفقٌ يحبُّ الخير لإخوانه، ويكون نِعمَ معينٍ لهم على إصلاح ما يراه من عيوبِهم؛ خاصةً وأن الإنسان لا ينظرُ في عيوب نفسه كما ينظر فيها غيرُه؛ فلعلَّ أمرًا رأيته صوابًا وهو خطأ، أو راجحًا وهو مرجوح، ويكفيني أنني لم أُرد إلا الصواب، ولم أتعمَّدْ خطأً، واللَّهُ ﷻ عليَّ وعلى سائر الخلائق شهيدٌ رقيب.

وقبل أن أُنْهي مقدِّمتي، فقد تملَّكتني مشاعرُ لم أستطعِ النفوذَ من أقطارها، وأرى واجبًا عليَّ ـ طاعةً لأمر حبيبي ﷺ القائل: **«مَن لا يَشكُرِ الناسَ لا يَشكُرِ اللَّهَ»**[١] ـ أن أعترفَ بعظيمِ الامتنانِ للمشايخ الأجلَّاء: فضيلة الشيخ سعدِ بن فوَّاز الصُّميل ـ صاحب دار ابن الجوزي ـ، وفضيلةِ الشيخ أبي أسعد أحمد

---

(١) صحيح: رواه أحمد (١٢/ ٤٧٢ ـ الرسالة)، والترمذي (١٩٥٤)، وصحَّحه، وصحَّحه الشيخ شعيب الأرنؤوط، والشيخ الألباني.

ابن محيي الدين مكاوي ـ مدير عام الطِّباعة في الدار ـ ، وفضيلةِ الشيخ أبي أحمد محمدِ بن الطيِّب ـ المستشار القانوني بالدار ـ ؛ فلقد رأيتُ منهم مِن حُسن الاستقبال وكَرم السجايا والوُدِّ العزيز والأخلاقِ النبيلةِ ما يَعجِزُ معه لساني عن الشُّكر والاعترافِ بالجميل؛ لا سيَّما الشيخ أبي فوَّاز ـ حفظه اللَّهُ ـ الذي فَتح لي أذرِعتَه الكريمة، وشرَّفني بنشر هٰذا الكتاب وغيره من الكتب التي اعتنيتُ بها في داره العامرة؛ فجزاهم اللَّهُ تعالى خيرَ الجزاء، وجَمَعني بهم مع حبيبِنا ﷺ في الفردوس الأعلى.

وختامًا؛ فما كان من توفيق ـ في هٰذا العمل الضئيل ـ فهو من رحمةِ أرحم الراحِمين على مَن لا يستحق شربةَ ماء، وما كان من خطإٍ أو سهو أو نسيان ـ وكان هٰذا حتمًا مقضِيًّا ـ فهو ممَّا جَنَت يداي، والأملُ لا زال قائمًا في عفو مولاي ﷻ.

وأسألُه تعالى أن يكون هٰذا العمل ـ وسائر أعمالي ـ خالصًا لوجهه الكريم، وسببًا في بلوغِ جنات النعيم والبعدِ عن نيرانِ الجحيم؛ إنه أكرمُ الأكرمين وأرحمُ الراحمين.

وآخر دعوانا أن الحمد للَّهِ ربِّ العالمين، وصلَّى اللَّهُ على الحبيب محمَّد، وعلى آله وصحبِهِ والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

وكتبه

خادم الشرع الشريف

أبو شُعيب

طارق بن عبدالواحد بن علي

ـ عفا اللَّهُ عنه برحمته وإحسانه ـ

هاتف (٠١١١١٣٨٥٣٩٥)

ترجمةٌ موجزة للعلاَّمة القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]

اسمُه ونسَبه:

هو العلَّامة الشيخ أبو الفرج محمد جمال الدين بن محمد سعيدِ بن قاسم ابن صالح بن إسماعيل بن أبي بكر، المعروف بالقاسمي، نسبةً إلى جدِّه.

نشأته:

وُلد ضَحوةَ يوم الإثنين لثمانٍ خلت من شهر جُمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين ومِئتين وألف (١٢٨٣هـ ـ ١٧ أيلول[2] ١٨٦٦م) في دمشق.

نشأ في بيت علم وفضل، فوالده كان فقيهًا عالمًا أديبًا، أفاد منه الشيءَ الكثير، وأخذ العلوم عن كثير من المشايخ؛ فقد قرأ القرآن أولًا على الشيخ عبدالرَّحْمٰن المصري، ثم الكتابة وتجويد الخط على الشيخ محمود القوصي.

انتقل إلى مكتبٍ في «المدرسة الظاهرية»؛ حيث تعلَّم التوحيد وعلوم اللغة على شيخه الشيخ رشيد قزيها المعروف بـ«ابن سنان»، ثم جوَّد القرآن على شيخ قرَّاء الشام الشيخ أحمد الحلواني.

وقرأ على الشيـخ سليم العطـار شـرح «شذور الذهب»، و«ابن عقيل»، و«جمع الجوامع»، و«تفسير البيضاوي»، وسمع منه دروسًا من «صحيح البخاري»، و«الموطأ»، و«مصابيح السنة»، وأجازه شيخُه إجازةً عامةً بجميع

---

(١) وهٰذه الترجمة استفدتُها من مقدمات بعض الأفاضل لكتب العلَّامة القاسمي، وعلى رأسهم الشيخ يوسف بديوي في تحقيقه لكتاب «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين» ـ ط: دار ابن كثير، وكذا من مقدمة كتاب «قواعد التحديث»، ط: مؤسسة الرسالة، تحقيق الشيخ مصطفى شيخ مصطفى، وجُلُّ ما استفادوه مأخوذ من ترجمة ولد المؤلف الأستاذ ظافر القاسمي التي قدمها عن والده رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) وهو شهر «سبتمبر».

مروياته سنة (١٣٠١ هـ)، ولمَّا يبلغ القاسميُّ حينها الثامنةَ عشْرةَ من عُمره.

ومن شيوخه الشيخ بكري العطار؛ قرأ عليه كثيرًا من الكتب في علوم متنوعة، وأجازه هٰذا الشيخ ـ أيضًا ـ سنة (١٣٠٢ هـ).

ومن شيوخه الشيخ محمد الخان، والشيخ حسن جبينه الشهير بالدسوقي، وغيرهم من الشيوخ.

وكان جميعُ أساتذته من المعجبين بذكائه ونباهته، ويتوقَّعون له مستقبلًا مشرقًا.

عصره:

عاش القاسمي معظمَ حياتِـه في أشـدِّ أيام الظُّلم والظلام، ولد ونظامُ الحُكم المطلق قائمٌ في الدولة العثمانية ـ وكانت البلادُ الشامية جزءً منها ـ ، فالحرياتُ مفقودة، والأقلام مغلولة، والعقول مقيَّدة، والصحافةُ ـ على ضعفها وقلَّتها ـ مكبَّلة، والأحرار مطارَدون، والدستور معلَّق، والمجالسُ النيابية معطَّلة، والناس يُحاسَبون على الهمسة والنَّبْسة، والجاسوسيةُ تفتك بالأبرياء.

أما العدالة فمفقودةٌ لفساد النظام القضائي، وشراءِ مراكز القضاء، وانتشار الرِّشوة علنًا بين موظفي السلطة العامة والمواطنين.

وأما الحياة الثقافية، فكانت مفقودةً ـ أو بالمفقودة أشبه ـ ، فلا مدارسَ ولا معاهد، ولا جامعات، والطباعةُ والصحافة ضعيفتان، ليس فيهما أيُّ غَناء، واعتمادُ القِلة من الناس على الكتاتيب، وحلقاتِ الجوامع والدروس الخاصة في البيوت، والأميةُ منتشرة؛ لأن الدولة فَرضت الجهلَ المطبقَ على الناس؛ ليعيشوا في جوٍّ من الظلام والغباء، ليسهُلَ على الحكام والمستغلين اطرادُ الأمور في سَلكٍ من الظلم والبطش والخضوع.

وكان حال الحياة الدينية نتيجةً طبيعيةً للحياة الثقافية، جُمود على القديم،

وكتب صفراء يتداولها الطلاب، ومتونٌ كثيرًا ما يحفظونها دون فهم، وحواشٍ وشروح وتقريرات وتعليقات، تزيدُ في اضطرابِ عقول الطلاب وتشويشها، وتقليدٌ أعمى غُلَّت معه العقول، فكُتبُ الحديث لا تُقرأ إلا للتبرك، وكتب التفسير ممتنعةٌ عن الخاصة ـ بَلْهَ العامة ـ ، ولا يَقرأ الناس إلا كتبَ الفقه التي وضعها المتأخرون، أما كتب اللغة والنحو والصرف والأدب وما إليها فيقرؤُها بعض الطلَّاب على أنها أداةٌ لفهم الكتاب والسُّنة؛ لا لذاتِها.

والحياةُ الاجتماعية كانت مفقودة، فلا ندوات، ولا جمعيات إصلاحية، ولا حلقات اجتماعية، حتى ولا جمعيات خيرية.

في هٰذا الجوِّ الخانق العجيب المتخلِّف في جَميع مرافق الحياة: نشأ القاسمي، فكان كالطائر المغنِّي في غير سِرْبه، غريبًا عن أهل الزمان، ولعل هٰذا كلَّه كان أدعى لإقدامه، والاقتناع بقُدسية رسالته، وضرورةِ العمل لها، والسعيِ لنشرها، والمُضيِّ في تبليغها[١].

ثقافته العامة:

أَخذ القاسمي معارفه الأولى على الطريقةِ المألوفة في عصره، ثم أَخذت الآفاقُ تتسعُ أمامه، فعَكف على مكتبته الخاصة ـ التي أسَّسها جدُّه وأبوه ـ ؛ يَنهَلُ من مَعينها، ثم أخذ يتابعُ تطوُّرَ الحركةِ العلميـة في جميعِ نواحيها، راغبًا في الإحاطة بجميع أنواع المعرفة ـ لو أن الإحاطةَ ممكنة ـ .

وعنوانُ ثقافته العامة مكتبتُه الخاصة، والكتبُ التي ألفها:

أما مكتبتُه الخاصة ـ التي تنوفُ على ألفَي مجلد ـ : فلم يخْلُ كتابٌ فيها

(١) وحالُ الإمام القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ في عصره هٰـذا يُشبـه ما قاله أبو التيَّاح رَحِمَهُ اللَّهُ: «واللَّهِ إنه لينبغي للرجل المسلم أن يَزيدَه ما يرى في الناس منَ التهاون بأمر اللَّه ﷻ؛ أن يزيدَه ذلك جِدًّا واجتهادًا» ثم بكى. «حلية الأولياء» (١/ ٤٢٧). وهٰذا ما ينبغي أن يكون عليه طلَّاب العلم الصادقين في أزمنةِ الكسل وانهيار الهممِ التي نعيشها.

من تصحيحٍ أو تعليق، وترى فيها ـ إلى جانب كتب التفسير والحديث والفقه واللغة والتصوف والأدب والتاريخ والأصول وغيرها ـ : كتبَ الفلسفة القديمة والحديثة، والاجتماعَ، والرياضيات، والقانون المقارَن، وكتب الفِرق الإسلامية ـ كالمعتزلة والظاهرية والشيعة والزيدية وغيرها ـ ، كما أنها ضمَّت مجموعةً قاربت مئةَ كتابٍ من كتب الديانات الأخرى ـ كاليهودية والنصرانية[1] ـ .

وأما الكتبُ التي ألَّفها: فترى فيها ـ إلى جانبِ كتب التفسير والحديث والأصول ـ كتابًا في تاريخ دمشق، ورسالة في الجِن، وكُتيبًا في الشاي والقهوة والدخان، ومقالةً عن القلب، وسِفْرًا في دلائل التوحيد، وكتابًا في الآداب والأخلاق... إلى غير ذٰلك مما تراه واضحًا في أسماء كتبه.

محنته:

دعا الشيخ القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ إلى العلم، ونَبْذِ التعصُّب والتقليد، وتصفيةِ العقيدة مما عَلِق بها من أفكارٍ وفلسفاتٍ واعتقاداتٍ دخيلة، وإرجاعِ مجدِ الإسلام، ورفعِ شأنه، وجَعلِه الحكمَ على شؤون الحياة كلها، كما دعا إلى نبذِ التعصُّب والجمود، وفتح باب الاجتهاد لمَن مَلَكَ القُدرةَ على ذٰلك، وكثيرًا ما كان يستشهدُ بأقوال الأئمةِ الأربعةِ للتدليل على أفكاره؛ فكان يقول: «إن مَن يطَّلعُ على كتب هٰؤلاء الأربعة ـ رحِمهم اللّه ـ يرفضُ التقليد؛ لأنهم أمروا تلامذتَهم بالاجتهاد، وألّا يجعلوا كلامَهم حُجةً».

فكانت النتيجةُ أن اجتمعتْ عليه الجموع، ولفَّقوا له تُهمةً خطيرةً يستحقُّ عليها السجنَ والتعذيب! إنها تُهمة «الاجتهاد، وتأسيس مذهب جديد في الدين» ـ سمَّوه «المذهب الجمالي»! ـ ، وشكَّلوا لذٰلك محكمةً خاصةً مثُل أمامها مع لفيفٍ من إخوانِه العلماء، كان ذٰلك سنة (١٣١٣هـ) وله من العمر

(١) ولا يخفى أن الإمامَ إنما قرأ كلَّ ما يخالفُ الشرع لنقدِه وبيان فساده.

ثلاثون عامًا، ثم خلَّوا سبيله، ثم كانت هٰذه المحنة سببًا في رفع قدره ومكانته وشهرته.

○ وقد قال في كتابه «الاستئناس» (ص ٤٤): «وإن الحقَّ ليس منحصرًا في قولٍ ولا مذهب، وقد أنعمَ اللَّهُ على الأمة بكثرة مجتهديها».

○ وقال في كتاب «إرشاد الخلق» (ص ٤): «وإن مرادَ الإصلاح العلمي بالاجتهاد ليس القيامَ بمذهبٍ خاصٍّ والدعوةِ له على انفراد، وإنما المرادُ إنهاضُ رُوَّادِ العلم، لتُعرفَ المسائلُ بأدلتها».

ونظم من شعره ما يردُّ به على بعض الجاحدين الذين اتَّهموه ووشَوا به إلى الوالي:

زَعـم الـناسُ بـأن مذهبي يُدعى «الجمالي»

وإلـيه حيـنما أُفتـي الـورى أعـزُو مقالـي

لا وعَمْـرِ الحـقِّ إني سـلفـيُّ الانـتحالِ

مذهبـي مـا في كـتابِ اللَّـهِ ربِّـيَ المتعالـي

ثـم مـا صـحَّ مـن الأخـبـار لا قـيلٍ وقـالِ

أقتفـي الحـقَّ ولا أَرضـى بـآراءِ الـرجالِ

وأرى التقليد جهلًا وعمًى في كلِّ حالِ

○ وقال في هٰذا المعنى ـ أيضًا ـ:

أقـولُ كمـا قـال الأئمـةُ قبلَـنا: صحيحُ حديثِ المصطفى هو مذهبي

أألْـبَسُ ثـوبَ القـيلِ والقـالِ بالـيًا و لا أَتحلَّـى بالـرداءِ المُـذَهَّـبِ

من صفاته:

اتصف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بصفاتِ العلماء الحميدة، فكان سليمَ القلب، نزيهَ النفس واللسان، ناسكًا، حليمًا، وفيًّا لإخوانه، جَوادًا سخيًّا ـ على قِلَّةِ ذات يده ـ ، يأنس به جليسُه، ولا يَملُّ حديثه، حريصًا على الإفادة من أوقاته ـ ولو كانت قصيرة ـ ، فقد جَمع مفكـرةً جميلةً سمَّـاها «السوانح»؛ حوت من الفوائد واللطائف الشيءَ الكثير.

وكان يربِّي تلاميـذه على حب الاعتمـاد على النفـس، وعـدم الكسب بالدين[1]، والركونِ إلى الطغاة والظالمين ومُسايرتِهم على ضلالهم، رغبةً في عَرَضٍ من أعراض الدنيا، ويَستشهدُ على ذٰلك بابن تيمية؛ فإنه عَرَضَ عليه الحاكمُ منصبَ قاضي عسكر براتبٍ مُغْرٍ، فأعرض عنها مخافةَ أن يكون عبدًا وأسيرًا لها.

ومن صفاته المُشرقة: عفةُ اللسان والقلم، وسعةُ الصدر ورحابته، وبشاشةُ الوجه وطلاقته.

○ فقد كتب ولدُه الأستاذ ظافر القاسمي عن هذا الجانب قائلًا: «عُرِف عن القاسمي أنه كـان عفَّ اللسـان والقلـم، لم يتعرَّض بالأذى لأحدٍ من خصومه؛ سواءٌ أكان ذٰلك في دروسِـه الخاصَّـة أو العامة، أو في مَجالسِه وندواته، وكانت له طريقتُه في مناقشة خصومه لم يُعرف أهدأُ منها ولا أجملُ من صبره، وكثيرًا ما قصَده بعضُ المتقحِّمين في داره ـ لا مستفيدًا، ولا مستوضحًا، ولا مناقشًا ـ ؛ بل مُحرِجًا، فكان يستقبلُهم بصدره الواسع وعلمِه

---

(١) إنما قَصَد الإمامُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ألَّا يكونَ طلبُ المال والجاه هو مقصودَ الاشتغالِ بالدين ـ وليس نشرَ العلم نفسه ـ ؛ أما مَن أراد بثَّ علمِ الكتاب والسنة، ونال منصبًا حاز به راتبًا؛ فليس في هٰذا غضاضةٌ ولا حرج، ونحن في أيام أحوجُ الناس فيها للمال هم طلبةُ العلم والدعاة؛ ليتفرَّغوا لنشر رسالة ربِّهم ﷻ؛ وقد أفضتُ في هٰذا في كتابي: «ضباب على قلوب أهل الالتزام»، تحت ظاهرة: «إهمال كفالة الدعاة».

العميق؛ فلا يخرجُ المقتحمُ من داره إلا وقد أُفحم وامتلأ إعجابًا وتقديرًا».

و كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ إمامًا وخطيبًا في دمشق، وكان يُلقي عدةَ دروسٍ في اليوم الواحد للعامةِ والخاصة، ويشاركُ في الحياة الاجتماعية، ويأمرُ بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويقوم بواجبِه في الدعوة والإصلاح، والنصحِ والتذكير، والنقاشِ والحوار، ومواجهةِ البدع والخرافات، والانحرافاتِ والضلالات، وكان يلقِّبه محمد رشيد رضا بـ«علَّامة الشام».

مؤلفاته:

○ وعن آثاره العِلمية يقولُ ولده الأستاذ ظافر القاسمي: «أما كُتبه التي ألَّفها فقد قاربتِ المِئة، وأقدمُ ما عثرتُ عليه من مؤلفاته مجموعةً سماها «السفينة»؛ يرجعُ تاريخها إلى عام (١٢٩٩هـ) ضَمَّ فيها طرائفَ من مطالعاتِه في الأدب، والأخلاق، والتاريخ، والشِّعر، وغير ذٰلك، وله من العمر ستةَ عشرَ عامًا، ومضى يكتبُ ويكتب إلى أن عَجِب الناسُ مِن بعده كيف اتسع وقته ـ ولم يعِش إلا تسعةً وأربعين عامًا ـ لهٰذا الإنتاجِ الضخم؛ فضلًا عن تحمُّل مسؤوليةِ الرأي، وترجيح الأقوال ومناقشتِها، والرجوع إلى المصادر، وفضلًا عن أعبائه العائلية؛ فلقد كان له زوجٌ وسبعة أولاد، وفضلًا عن إمامتِه للناس في الأوقات الخمسة دون انقطاع، ودروسِه العامة والخاصة، وتفقُّدِه للرحم، ورحلاته، وزياراته لأصدقائه... وغير ذٰلك من المشاغل».

* من أشهر مؤلَّفاتِه:

ذَكر الدكتور «نزار أباظة» في كتابه عن القاسمي (١١٣) عنوانًا من مؤلَّفات القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ما بين مطبوع ومخطوط، وما بين كتابٍ كبيرٍ يشتمل على مجلداتٍ كثيرة، ورسائلَ صغيرةٍ قليلة الصفحات.

ومن أبرزها:

١ ـ محاسن التأويل، وهو تفسير للقرآن الكريم.

٢ ـ دلائل التوحيد.

٣ ـ إصلاح المساجد من البدع والعوائد.

٤ ـ قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث.

٥ ـ شذرة من السيرة النبوية.

٦ ـ رسالة الاستئناس لتصحيح أنكحة الناس.

٧ ـ كتاب المسح على الجوربين.

٨ ـ تعطير المشام في مآثر دمشق الشام.

٩ ـ حياة البخاري.

١٠ ـ شمس الجمال على منتخب كنز العمال.

١١ ـ ميزان الجرح والتعديل.

١٢ ـ موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين.

١٣ ـ جوامع الآداب في أخلاق الأنجاب.

١٤ ـ رسالة في القهوة والشاي والدخان.

من بليغ كلامه:

○ «الحقُّ يَصرع إذا عُمِدَ إلى إظهاره بالسِّباب والشتائم».

○ «أحكامُ الباطل مؤقتةٌ لا ثبات لها في ذاتِها، وإنما بقاؤها في نوم الحق عنها، وحكمُ الحق هو الثابت لذاته، فلا يُغلب أنصارُه ما داموا معتصِمين به».

○ «التبذيرُ في أشرف الأغراض قصدٌ واعتدال».

○ «التقليد جذامٌ[1] فشا بين الناس، وأخذ يفتكُ فيهم فتكًا ذريعًا؛ بل هو

(١) الجُذام: مرض تساقط الأطراف.

مرضٌ مَرِيع، وشللٌ عـام، وجنـونٌ ذهولي، يوقـعُ الإنسـانَ في الخمول والكسل».

○ «الذكاءُ كالشرارة الكامنة في الزِّناد، لا تَظهرُ إلا بالقَدْح[1]، فإذا لم تحتكَّ الأفكارُ بالعلوم مات ذٰلك النشاطُ والذكاء في مكامنه، وانزوى في زوايا الصدور».

○ «المِكسال[2] شيخٌ في شبابه؛ لأن دقيقة البطالة أطول من ساعة العمل».

○ «عدمُ تقدم الكثيرين هو من عدمِ محاولتهم التقدم».

○ «إنَّ كتابًا يُطبع خيرٌ من ألفِ داعيةٍ وخطيب؛ لأن الكتابَ يقرؤُه الموافق والمخالف».

وفاته رَحِمَهُ اللَّهُ:

كانت وفاتُه مساءَ السبت (٢٣ جُمادى الأولى سنة ١٣٣٢ هـ ـ الموافق ١٨/ ٠٤/ ١٩١٤م)؛ عن تسعةٍ وأربعينَ عامًا، ودُفن في مقبرة الباب الصغير بدمشق.

نسألُه تعالى أن يتغمَّده بواسع رحمته، وأن يحشرَه مع النبيِّين والصِّديقينَ والشهداءِ والصالحين؛ آمين.

❁ ❁ ❁

---

(١) القَدح: الإشعال.

(٢) المِكسال: الكسول ـ واللَّهُ أعلم ـ.



تصنيف علامة الشام

محمد جمال الدين القاسمي رحمه الله

(١٢٨٣-١٣٣٤هـ / ١٨٦٦-١٩١٤م)

قرأه وضبط نصه وخرج أحاديثه وعلق عليه

طارق بن عبد الواحد بن علي

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدِّمة المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ

الحمدُ للَّهِ الذي خَلق الإنسانَ في أحسن تقويم[١]، وألْهَمَه أن يزكِّيَ نفسه بالخُلُق الكريم، وأفضلُ الصلاة والتسليم على مَن أثنى عليه ربُّه بأنه على خُلقٍ عظيم، سيدِنا محمدٍ خاتم النبيين، وعلى آلِهِ وصحبِهِ الطيِّبين الطاهرين.

أما بعد:

فإن علمَ «مكارم الأخلاق والشمائل، وتقويمِ النفوس بمحاسِنِ الآداب والفضائل» من العلوم المهمَّة التي هي أساسُ نجاح الأمة؛ فإنَّ على الأخلاق الفاضلة مدارَ المَدَنيَّة والعُمران، وترقِّي الإنسان، وصلاحَ البلدان، ونموَّ مداركِ العلم والعرفان، كما أن بالأخلاق السيئةِ الهلاكَ والدمار، والخزيَ والعار؛ إذ هي السمومُ القاتلة، والمهلكاتُ العاجلة، والمخازي الفاضحة، والرذائلُ الواضحة، وقد أرشدَتْ إلى الأخلاق الفاضلةِ الشرائعُ الإلٰهيَّة والقوانينُ الحُكميَّة على الإطلاق، وبُعث نبيُّنا ﷺ ليُتمِّم مكارمَ الأخلاق[٢].

ولمَّا دُوِّن في ذٰلك جليلُ الأسفار وجميلُ الآثار، رأيتُ أن أجمع في كتابٍ أهمَّ ما أُثر منه عن السلف، وأكملَ ما نُقل عن الخلف؛ عنايةً بالنابتة ـ الذين

---

(١) التقويم: الخلق والصورة.

(٢) كما ثبت في الحديث الصحيح: «إنما بُعثت لأتمِّمَ صالحَ الأخلاق»، وفي لفظ: «مكارم الأخلاق». رواه أحمد (٣/ ٣٨١) والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٣) والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٦٧٠)، وصحَّحه، ووافقه الذهبي، وقوَّاه الشيخ شعيب الأرنؤوط، وصحَّحه الشيخ الألباني.

هم أطفالُ اليوم ورجالُ الغد ـ، واحتفاظًا بما يُكسِبُ لهم ولقومهم ووطنهم الفَخَارَ والمجد.

وسميتُه: «**جوامعُ الآداب في أخلاق الأنجاب**»، ورتبتُه على سبعةِ أبواب متوَّجةٍ بمقدمات، ومذيَّلةٍ بخواتم، ومِن اللَّهِ التوفيق، وعليه التُّكلان.

❊ ❊ ❊



مُقدِّمات

[قواعدُ في الأخلاق]



مقدِّمـات

١ ـ معنى الخُلُق

«الخَلْق» و«الخُلُق» عبارتانِ مستعملتان معًا، يقال: «فلان حسنُ الخَلْق والخُلُق»، أي: حسنُ الظاهر والباطن، فيراد بـ«الخَلْق»: الصورةُ الظاهرة، ويراد بـ«الخُلُق»: الصورةُ الباطنة؛ وذٰلك لأن الإنسان مركَّبٌ من جسدٍ مُدرَكٍ بالبصر، ومِن رُوحٍ ونفسٍ مُدرَكةٍ بالبصيرة، ولكل واحدةٍ منهما هيئةٌ وصورة، ـ إما قبيحة وإما جميلة ـ ؛ فالنفسُ المدرَكةُ بالبصيرة أعظمُ قدرًا من الجسد المدرَكِ بالبصر، ولذٰلك عظَّم اللّٰهُ أمره بإضافته إليه[1]؛ إذ قال: ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ

(١) ضمير المذكَّر عائد على الروح؛ إذ تُذكَّر وتؤنث.
فائدة: الإضافةُ إلى اللّٰهِ تعالى أقسام:
الأول: إضافةُ صفاتِه لذاته العليَّة ﷻ؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات]، وهٰذه إضافة غيرُ مخلوقٍ لغير مخلوق؛ فإن صفاتِه تعالى غيرُ مخلوقة ـ كما هو معلوم ـ.
الثاني: إضافةُ المخلوقات إليه ﷻ، وهي قسمان:
أحدهما: تكونُ لبيان عموم خَلقه وقدرتِه وانفراده بالإيجاد؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ [العنكبوت: ٥٦].
وثانيهما: تكونُ لبيان شرفِ المضاف؛ كقوله: ﴿طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقولِه: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣].
وعليه؛ فإن الآية التي ذكرها المصنف: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ تكون من باب التشريف والتعظيم، واللّٰهُ تعالى أعلم.
انظر: «الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح»، للإمام ابن تيمية (٢/ ١٥٥ ـ ط: العاصمة)، و«شرح العقيدة الطحاوية» (٢/ ٥٩٧ ـ ط: الرسالة)، و«القول المفيد على كتاب التوحيد»، للعلَّامة العثيمين (١/ ٧٤ ـ ط: دار ابن الجوزي ـ الدمام).

بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى [1] فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص].

فنبَّه على أن الجسدَ منسوبٌ إلى الطين، والروحَ [منسوبٌ] إلى ربِّ العالمين.

والمرادُ بالروح والنفْس في هٰذا المَقام واحد[2].

فالخُلُقُ عبارةٌ عن هيئة في النفس راسخة؛ عنها تصدرُ الأفعالُ بسهولة؛ من غير حاجةٍ إلى فِكر ورَوِيَّة، فإن كانت الهيئةُ [ثابتةً]؛ بحيث تصدرُ عنها الأفعالُ الجميلة المحمودةُ عقلًا وشرعًا سُميت تلك الهيئة: «خُلُقًا حسنًا»، وإن كان الصادرُ عنها الأفعالُ القبيحة سُميت الهيئة ـ التي هي المصدر ـ: «خُلُقًا سيئًا»[3].

೫೫ന്ദ

(١) أي: من رُوحي التي خلقتُها فيه.

(٢) انظر: مطالع كتاب: «منهج الإسلام في تزكية النفس»، للشيخ الفاضل: أنس كرزون، ط: دار ابن حزم.

(٣) الغزالي. (القاسمي).

٢ ـ قبولُ الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة

يزعمُ بعضُ مَن يستثقِلُ المجاهدة والرياضة: أن الأخلاقَ لا يُتصوَّرُ تغييرُها! ولو صحَّ ذٰلك لبَطَلت الوَصايا والمواعظُ والتأديبات، وكيف ينكَرُ هٰذا في حق الآدمي، وتغييـرُ خُلُقِ البهيمـة ممكن؛ إذ يُنقَلُ البازي[١] من الاستيحاش إلى الأُنس، والكلبُ من شَرَهِ الأكل إلى التأدُّبِ والإمساك والتَّخلية[٢]، والفَرَسُ من الجِماح إلى السلاسة والانقياد، وكلُّ ذٰلك تغييرٌ للأخلاق، فأجدِرْ بالإنسان أن يتغيَّـرَ بالرياضة خُلُقُه، وذٰلك بألَّا يقهر هواه العقلَ ولا يَغلِبَه؛ بل يكون العقلُ هو الضابطَ له والغالبَ عليه، وذٰلك ممكنٌ؛ فإنه ربما يستولي الغضبُ على المرء بحيث لا يَقوَى على دفعه، وبالرياضةِ يعودُ إلى حدِّ الاعتدال؛ وهو المرادُ بـ«تغيير الخُلُق»؛ فدلَّ أن ذٰلك ممكنٌ، والتجربةُ والمشاهدة تدلُّ على ذٰلك دلالةً لا شك فيها[٣].

---

(١) البازي: الصقر.

(٢) أي: إمساكُ الصيد لصاحبه، وتركُه له دونَ أن يأكلَ الكلبُ منه شيئًا.

(٣) الغزَّالي. (القاسمي).

٣ ـ مِفتاحُ السعادة تربيةُ الأفراد على العِلم والعمل

○ قال حكيمٌ: «لمَّا كان شرفُ الإنسان بالقوةِ المدرِكة، لزم تهذيبُها لتكفَّ صاحبَها عن المساوئ، وتدفعَه إلى المحاسن، فتتمهَّدَ أمامه مسالكُ الحياة، وتتوفرَ له أسبابُ السعادة، فيعيشَ في الرغَدِ والهناء، وإلَّا تسلَّطت عليه المساوئ، وانغمس في الشهـوات، وضـلَّ عن سبيل الأُلفة والتَّحَاب، وأَنِس بالجهل، واستطاب الخمول».

ومنَ الثابت أن المرء ـ إذا حسُنت تربيته وتمَّ تهذيبه ـ كانت أعمالُه قويمة، وأخلاقُه مستقيمة، وإذا فسدت تربيته انعكست أعمالُه، وساء خُلقه.

وسعادةُ مجموع الأمة متوقفةٌ على تربية الأفراد؛ فإذا تَهذَّبَ الأفرادُ، وتربَّوْا على الفضائل، وأخذوا بأصول الدين: تَهذَّب المجموع، وصاروا أعضاءَ جسمٍ واحد.

وخيرُ التربية ما كان في حال الصِّغر؛ إذ يكون الإنسانُ مستعدًّا بالفطرة لقبول الخير، وتقويمِ أَوَدِ النفس(١)، كالغُصن الليِّن في مبدأ نموِّه؛ إذا قوَّمته استقام، لهٰذا كان منَ الواجب القيامُ بتربية الأطفال وتلقينُهم دروسَ الآدابِ والحكمةِ منذ نعومة الأظفار.

***

(١) الأَوَد: الاعوجاج.

٤ ـ حاجةُ العلمِ إلى الأخلاق الفاضلة

الرجالُ بالأعمال[١]، والأعمالُ آثارُ الصفات والأخلاق، وبذٰلك يتفاضلُ الناس ـ لا بالعلوم وحدِها، أو إجازاتِ المدرِّسين، أو شهاداتِ المدارس فحسب ـ ؛ وذٰلك لأن العلمَ وحده لا يكفي لجعل الرجلِ عظيمًا في قومه، نافعًا لأمَّته ووطنه، فإن العلمَ آلةٌ تُديرُها الأخلاق؛ فإذا كانَت أخلاقُه فاسدةً كان علمُه كالسيف في يد المجنون يَضُرُّ به ولا ينفع، فالرجلُ لا يكون عظيمًا إلَّا بعلومه الكاملة، وأخلاقِه وأعماله الفاضلة[٢].

وبالجملة فيجبُ أن يُعلَمَ أن الإنسان ـ وإن كان هو بكونه إنسانًا أفضلَ موجود ـ ، فذٰلك بشرطِ أن يراعيَ ما به صار إنسانًا ـ وهو العلمُ الحقُّ، والعمل المحكم ـ ، فبقدْر وجود ذٰلك المعنى فيه يَفضُل.

○ ولهٰذا قيل: «الناسُ أبناء ما يُحسِنون». أي: ما يَعرفون ويعملون منَ العلوم والأعمال الحسَنة[٣].

❁ ❁ ❁

---

(١) أي: إنما يوزَنون بمقدار أعمالِهم.

(٢) لحكيم شريف بزيادة. (القاسمي).

(٣) «الذريعة» للأصفهاني. (القاسمي).



الباب الأول

أدبُ النفس



الباب الأول
أدبُ النفس

كلُّ مَن أعار الوجوَد نظرةَ البصير؛ عَلِم أن حاجةَ المرء إلى تأديب نفسه لا تفوقُها حاجة؛ لأن الإنسان إلى الشرِّ أميلُ منه إلى الخير، وإلى الشهوات النفسية منه إلى الكمالات الرُّوحية؛ فكان من المحتَّمِ العنايةُ بتهذيب خُلقه، وتحليتُه بالمحاسن والفضائل، وتطهيرُ نفسه من المساوئ والرذائل؛ فيصبحُ محمودَ الأقوال والأفعال؛ مثالًا للفضيلة والكمال، وهاك شَذَرةً[١] مما يلزمُك أن تتخلق به من آداب نفسك:

١ ـ عامِلِ الناسَ بما تحبُّ أن يعاملوك به.

٢ ـ لا تَستَخِفَّنَّ بفاضلٍ شريف.

٣ ـ لا تَميلنَّ إلى سخيف.

٤ ـ لا تقولنَّ هُجرًا[٢]؛ لئلَّا يسقُطَ قدْرُك.

٥ ـ لا تفعَلنَّ نُكرًا[٣]؛ لئلَّا يقبُحَ ذِكرُك.

٦ ـ إياك وفضولَ الكلام؛ فإنه يُظهر من عيوبك ما بَطَن، ويحرِّكُ من عدوِّك ما سكن[٤]، فكلامُ الإنسان بيانُ فضله، وتَرجُمانُ عقله، فاقصُرْه على الجميل، واقتصِرْ منه على القليل.

٧ ـ وإياك وما يُستقبَحُ من الكلام؛ فإنه ينفِّرُ عنك الكرام، ويُوثِبُ عليك

(١) هاك: إليك؛ وهي اسم فعل. شَذَرةً: قليلًا.
(٢) الهُجر: القبيح.
(٣) النُّكر: المنكر.
(٤) أي: يُثيرُ ما يُخفيهِ نحوك من حقدٍ وحسد.

اللئام.

٨ ـ إياك واللَّجَاج(١)؛ فإنه يوغـرُ القلـوب، ويُنتج الحُروب، فاقتصر من الكلام على ما يُثبِّتُ حُجَّتك، ويبلِّغُك حاجتك، ومَن قال بلا احترام أُجيب بلا احتشام.

٩ ـ لا تعوِّدْ نفسك إلَّا ما تَحظَى بأَجْره، وتُحمَدُ على ذِكْره، وإياك ومحاجَّةَ مَن يَملِكُك قهرُه، وينفُذُ فيك أمرُه(٢).

١٠ ـ يُستدل على رزانةِ الرجل بقلةِ نُطقه ومقاله، وعلى فضله بفضل عِلمه واحتماله؛ فأكرِمْ إخوانَـك، وأكثِـرْ خِلَّانَـك، واكْفِهم لسانك، فطعنُ اللسان أنفذُ من طعن السِّنان(٣).

١١ ـ تَعامَ(٤) عما تسوؤك رؤيتُه، وتغابَ(٥) عما تضرُّك معرفتُه.

١٢ ـ ولا تُشِرْ على من لا يقبلُ منك، ولا تُجب عما لا تُسأل عنه.

١٣ ـ وإذا عاتبتَ فاستبْقِ(٦)، وإذا صنعت معروفًا فاسْتُرْه، وإذا صُنع إليك فانشُرْه.

١٤ ـ وإذا أذنبتَ فاعتذر، وإذا أُذنب إليك فاغتفِر(٧)؛ فالمعذرةُ بيان العقل، والمغفرةُ بيان الفضل.

١٥ ـ لا تَزهدْ في رجل عُرف فضلُـه، وجُرِّب عقلُـه، ولا تُعِنْ قويًّا على

---

(١) اللَّجاج: المجادلة والخصومة.
(٢) أي: لا تُجادِلْ مَن يقدرُ على إيذائك والإضرار بك.
(٣) السِّنان: أطراف الرِّماح.
(٤) تَعام: تغافل.
(٥) تغابَ: تغافل ـ أيضًا ـ.
(٦) أي: لا تعاتب صديقك على كلِّ ما صدر منه؛ بل اترك الكثيرَ من العتاب، أو يكون المراد: إذا عاتبتَ فاجعل عتابَك على سبيل المحافظة على صديقك، وليس سببًا لفقده.
(٧) اغتفِر: اغفر وسامِح.

ضعيف، ولا تُؤثر دَنِيًّا على شريف.

١٦ ـ ولا تُشِرْ بما يُعقِبُ الوِزْرَ والإثم، ولا تفعلْ ما يُقبِّح الذِّكرَ والاسم.

١٧ ـ كَرِّمْ نفسك وعرضَك من مُضاحكةِ المَجّان والمُساخر[١]. ومَن لا يبالي بما يقابَلُ به من ضروب الاستخفافات التي تلحقُه؛ فهو من شرار الناس[٢].

١٨ ـ واحفظ لسانك من المُزاح والسخرية والاستهزاء بالناس؛ فإن ذٰلك يُريق ماءَ الوجه، ويُسقط المهابة، ويستجرُّ الوحشة، ويؤذِي القلوب، وهو مبدأُ اللَّجاج والغضبِ والتقاطع، ويُثيرُ الحقدَ في القلوب.

١٩ ـ القَ صديقك وعدوَّك بوجه الرضا؛ من غير مَذِلَّةٍ ولا هيبةٍ منهما، وتوقَّرْ[٣] مِن غير كِبر، وتواضع من غير مَذِلَّة.

٢٠ ـ ليكنْ ضالـةُ عقلِك التي يَنشُدُها ونُجعتُه التي يرتادُها[٤]: الحق؛ فاحكُمْ به ـ ولو على نفسك ـ، ولا تكن ممن تأخذُه العزَّةُ بالإثم فلا يُصغي إلى الحقِّ لكونه صدَر عمن هو أدنى ـ على ما يعتقد[٥] ـ؛ بل العاقلُ يأخذ الحكمة حيث وُجدت[٦]، وليس في الحقِّ صغيرٌ ولا كبير.

---

(١) **المَجّان والمُساخِر**: كثير الضحك والسخرية.

(٢) أي: الذي لا يُبالي بأن يسخرَ الناسُ منه بأنواع المساخر، فهو من الأراذل.

(٣) **توقَّر**: كن وقورًا.

(٤) **النُّجعة**: المَراعي والبساتين. يرتادها: يتردد عليها.

(٥) أي: من وجهة نظره؛ إذ قد يكون قائلُ الحق أعلى منه قدرًا عند اللّٰهِ تعالى في الحقيقة.

(٦) وقد قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «خُذوا الحكمةَ ممن سَمِعتموها، فإنه قد يقول الحكمةَ غيرُ الحكيم، وتكونُ الرَّمْيةُ من غيرِ رام». ذكره العسكري في «الأمثال» ـ كما في «كنز العمال» (٢٩٥٣٨) ـ، وعن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ بلفظ مقارب ـ: «خُذِ الحكمة، ولا يَضُرُّك من أيِّ وِعاءٍ خرجَتْ». وخَطَب الحَجّاجُ ـ ظالمُ الأُمَّة ـ خُطبةً بليغةً، فقال الحسن: «ضالَّةُ المؤمنِ عند فاسقٍ، فليأخذْها». وخَطب حازمُ بنُ خُزيمة خُطبةً حَسنة، فقال الثوريُّ: «حكمةٌ من جَوفٍ خَرِب». وقال عليٌّ: «انظر إلى ما قال، ولا تنظرْ إلى مَن قال». ومن =

٢١ ـ ولا تُحابِ صديقَك في الحق؛ فإن الحقَّ أجدرُ بالصداقة منه.

٢٢ ـ اجتهد في مَحْوِ الخرافات[١] والأوهام والتصوُّرات الباطلة؛ فإنها تُفسد المَلَكات، وتدلُّ على الجهل بحقائق الأمور.

٢٣ ـ واطرَحِ المبالاةَ بكلام الناس لِما تتوخَّاه من الحق[٢]؛ فإن السلامة مِن طعن الناس غايةٌ لا تدرك. ومَن راض[٣] نفسه على السكون إلى الحق، وتبيَّن أن ألَمَه في أول صدمةٍ؛ كان اغتباطُه بذم الناس إياه أشدَّ من اغتباطه بمدحهم له، ومَن لا عدوَّ له لا خيرَ فيه، ولا منزلةَ أسقطُ ممن لا عدوَّ له؛ لأنها منزلةُ مَن ليس للَّهِ تعالى عنده نعمةٌ يُحسد عليها ـ عافانا اللَّه[٤] ـ.

= الأمثال: «الْحَسِ العَسَل، ولا تَسَل». انظر: «إتحاف السادة المتقين»، للعلَّامة الزَّبيدي (١/ ٥٠٨). وقال بعضُهم: «خذ قولَ صِدِّيق من لسان زِنديق».

(١) جمع «خرافة»، ويراد بها كل ما نافَى الدين الصحيح أو الواقع، أو ما لا يقبله العقل السليم. (القاسمي).

(٢) أي: لا يُهمُّك كلامُ الناس وطَعنُهم فيك وأنت متَّبعٌ للحق.

(٣) رَاضَ: عوَّد ومرَّن.

(٤) انظروا إلى موازين العلماءِ العقلاء، وقارنوها بموازينِ العقول المختلَّة في أيامنا؛ ممن إذا رأَوا كثيرًا من الناس نفَروا من الدعاة ـ لا سيَّما الذين ينهَوْنهم عن المنكر ـ فاتَّهموا الدعاةَ بعدم الحكمة في الدعوة! تلك الحكمةُ التي تتمثَّل عندهم في «عدم الاحتكاك بالناس بنهيهم عن معاصيهم»، ونَسِيَ أولئك الناقدون الكُسالى أن النهيَ عن المنكر ركنٌ ركينٌ لإصلاح النفوس ـ رَضِيَ الناسُ أم سَخِطوا ـ ، وأنه لا يمكن للقلوب أن تتزكَّى وتطهُر بفعل الخير فقط؛ بل لابد مِن تركِ المنكر ـ وهو الخبثُ الذي يلوِّثُ القلبَ، بل ويمنعه كثيرًا من تقبُّل الحق ـ . وقد جَهِل أولئك الطاعنون ـ أو تجاهلوا ـ أن خيرَ الناس وأعلمهم وأعظمهم أدبًا وحكمةً ـ وهم الأنبياء عليهم السلام ـ اصطَدموا بمن يدعونَهم اصطدامًا قاسيًا لمَّا نَهَوْهم عن المنكر والفساد، فهل كان مسلكهم فاسدًا؟! لذلك فعلى الداعية ـ إذا طبَّق الحكمة في الدعوة أمرًا ونَهْيًا ـ ألَّا يعبأ بطعنِ الطاعنين، ولا تخذيلِ المخذِّلين، ولا عليه أن يكرهَه أهلُ الهوى والشر ـ ما دام أدَّى ما عليه ـ ، وهذا المبدأ لابد أن يكون قائدَ الداعية طيلةَ حياتِه، ولا يحيدَ عنه قِيدَ أُنملة، فيكفينا رضا اللَّهِ تعالى، نسأله سبحانه نَوالَه بمنِّه ورحمته.

٢٤ ـ لا تَقبل سُلطةَ فكرةٍ[١] إلا بعدَ فحصٍ دقيق؛ فإن كل ما أُبطل ببرهانٍ ضروريٍّ[٢] فليس بحق، وكلُّ ما ثبت ببرهانٍ فمعارضتُه شَغَبٌ[٣] فاجتنبها، ولْيكن مرجعُك إلى الحق، ومَنزِعُك[٤] إلى الصدق، فمَن أضعفَ الحقَّ وخَذَله أضعفَه الباطل.

٢٥ ـ عليك بالنشاطِ في العمل، وتركِ البطالة والكسل، ولا تكنْ كَلًّا[٥] على غيرك؛ فإن الرجل ـ كلَّ الرجل ـ مَن يأكل من كسْبه، ويشربُ مِن وِرْده[٦].

٢٦ ـ أقدِمْ على جلائل[٧] الأعمال مع الصبر والثبات، واحمِلْ نفسَك على معالي الأمور، والتشبُّث بأحسن الأعمال والأمورِ العظام، والتهاونِ ـ لنَيلها ـ بالآلام[٨]؛ فإن الكسل منَ النقائص التي تُوجبُ الخسائسَ والشرور، وتدلُّ على ضَعفٍ في إدراك صاحبها، وحِطَّةٍ[٩] في نفسه. ومَن رضي بالدون الْتَحفَ بالخُمول، وفاتته معالي الأمور، وآذَنَ[١٠] بصِغَر نفسه، وقِصَرِ هِمته، وضَعفِ غريزته.

○ وقد قيل: «إذا رقدَتِ النفسُ في فِراش الكسل؛ استغرقت في بحرِ الحرمان».

---

(١) أي: لا تقبل أن تسيطرَ عليك.
(٢) البُرهانُ الضروري: ما يُعرفُ بالفطرة؛ دون حاجةٍ إلى كبير تأمُّل.
(٣) الشغَب: إثارة الفتن.
(٤) المَنزِع: ما تميل إليه.
(٥) الكَل: الحِمل.
(٦) وِرْده: عملِه.
(٧) الجلائل: العظائم.
(٨) أي: ولْتَهُنْ عندك الآلامُ في سبيل نَيل العظائم.
(٩) الحِطة: الانحطاط والتسفُّل.
(١٠) آذَنَ: أخبر.

٢٧ ـ لا ترغب في سرعةِ العمل، وارغب في إتقانِه[١].

٢٨ ـ ولا تؤخِّرَنَّ عملًا عن وقته؛ فإن الوقت الذي تؤخِّرُه له عمل، ولستَ تُطيقُ ازدحام الأعمال؛ فإنها إذا ازدحَمت دخلها الخلل.

٢٩ ـ ولْتكن أوقاتُك عندك كلُّها ربيعًا؛ فالوقت من أسمى مواهبِ الخالق التي لا يمكن استعادتُها متى فاتت، فلا تتصرف فيه بما يؤسِفُك على فواته.

٣٠ ـ مَن هم أقلُّ منك معرفةً وأدنى درجةً ينبغي ألَّا تُكثر معهم اللَّجاجة، ولا تخالطَهم إلا بقدْرِ الحاجة.

٣١ ـ احذر مِن صُحبة الفارغ؛ فإنه يَفتِكُ بوقتِك ـ ولا فتكَ الوباء ـ ؛ فالمخالطةُ تؤثِّر، والطبعُ سَرَّاق؛ فاصحَبِ الأخيار.

٣٢ ـ وما وراء كثيرٍ من اللغو إلا إضاعةُ الوقت سُدى، وقطعُ مراحل الحياة على غير هُدى.

٣٣ ـ الوقتُ الذي تُمضِّيه في أداء الواجبات الاجتماعية ليس بوقتٍ ضائع؛ لأن حبَّ الغير، ومعاونتَه، والعملَ على نشر العلم، وتقليلَ وطأة الفاقة[٢]؛ كلُّها من دلائل السعادة.

٣٤ ـ التزِمْ وظيفةً من الجزء النظري، والعمليُّ لا تُخِلَّ به البتة، ولتُجرِ النفْسَ مجرى الرياضة التي تَلزَمُ في حفظ صحةِ البدن، وأطباءُ النفوس أشدُّ تعظيمًا لها في حفظ صحة النفس؛ وذلك لأن النفسَ متى تعطَّلت من النظر وعَدِمت الفِكرَ والغوصَ في المعاني تبلَّدت وتبلَّهت[٣] وانقطعت عنها مادةُ

(١) وقد ورد حديث عن النبي ﷺ أنه قال: «إن اللَّهَ يُحِبُّ إذا عَمِل أحدُكم عملًا أن يُتقِنَه»، رواه أبو يعلى (٤٣٨٦)، والبيهقي في «الشُّعَب» (٧/ ٢٣٣)، وحسَّنه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١١١٣)، و«صحيح الجامع» (١٨٨٠)، وصحَّحه محقِّق «الشُّعب».

(٢) أي: فكُّ الكربات عن الناس.

(٣) تبلَّهت: صارت بلهاء.

كل خير، وإذا أَلِفت الكسل وتبرَّمت بالرَّوِية، واختارت العُطلة: قرُب هلاكها؛ لأن في عُطلتها انسلاخًا من صورتِها الخاصةِ بها، ورجوعًا منها إلى رتبة البهائم، وهٰذا هو الانتكاسُ في الخَلق، نعوذ باللّٰهِ منه.

وإذا تعوَّد الحدَثُ الناشئُ من حداثته الارتياضَ بالأمور الفكرية، واحتمل ثُقْلَ الرويَّةِ والنظر، وأَنِسَ بالحق، ونبا طبعُه[1] عن الباطل وسَمعُه عن الكذب؛ حتى إذا بلغ أشُدَّه وانتقل إلى مطالعةِ الحكمة: استمر طبعُه فيها، وتشرَّب ما يَستودع منها، فوَصَل إلى سعادتِها.

٣٥ ـ احرِصْ على سعادة غيرك؛ فإنَّ اجتهادَك في إسعاد غيرك إسعادٌ لنفسك، وقَصرُ جُهدِك على إسعادك لنفسك إشقاءٌ لها؛ وذٰلك لأنه إذا سعى كلٌّ في نفعِ غيره توفَّر النفعُ للجميع، وإذا سعى كلٌّ لمجرد نفع نفسه أضرَّ بغيره، فتوفَّر الضررُ للجميع.

٣٦ ـ عليك بترتيب أعمالك وأوقاتك؛ لأن الترتيب فضيلةٌ تَحملُ صاحبها على الاهتمام والعملِ بما رتَّبه لنفسه، وهي تنشِّطُ النفوس، وتُريح البال، ويكون صاحبُها مستجمِعًا لفكرته، محافظًا على وقته.

٣٧ ـ عليك أن تنامَ باكرًا، وتستيقظ منَ السَّحَر، فتؤديَ العبادة المفترَضة، وتأخذَ في التهيُّؤ للدرس بالمطالعة والحِفظ، ولا تشتغلْ بالمباحثِ التي لا شيءَ فيها إلَّا الحيرة[2].

٣٨ ـ اقرأ منَ المجلَّات والصحُف السيارة ما تبلغُه قدرتك، ولا تغادِرْ

(١) نبا: ابتعد.

(٢) وعلى رأس هٰذا كلِّه كتبُ أهل الكلام والضلال ـ أشاعرةً ومعتزلةً وعلمانيين وغيرهم ـ ممن ضلُّوا عن سواء السبيل؛ فكلامُهم يسوِّدُ القلوب ويقسِّيها، ويُبعدُها عن ربِّها ﷻ ويُخرجُ منها بردَ اليقين، ويوقعها في متاهاتِ الشك والحيرةِ والتلاعب بدين رب العالمين؛ نسأله تعالى الثباتَ على منهج أهل السُّنة والجماعة؛ إنه أرحم الراحِمين.

منها حرفًا؛ فالبصيرُ: البصيـرُ بزمانـه. واعتنِ بفَحص كلِّ الأمور ـ صغيرها وكبيرها[(١)] ـ.

٣٩ ـ لا تفرح إلَّا بما تأتيـهِ من جليـل الأعمـال؛ فإن النفسَ إذا كبُرت استشعرت الخلود[(٢)]، فعمِلت منَ الجميل ما يبقى على الأزمنةِ المتطاوِلة، وإذا نقصت لم تَحفَل بمستقبَل من الأزمنة، ولا بجميلٍ من الفعل، فآثَرَتْ عاجلَ الانتفاع على آجِلِ الذِّكر[(٣)].

٤٠ ـ ضِنَّ[(٤)] بالحكمة على بثِّها لمن لا يَدْريها، وصُنْ دُررَ المعاني عن ابتذالِها[(٥)]؛ فإن ما تألفُه أَلْسُنُ الغوغاء يَذهب منه رونقُه.

٤١ ـ الْقَ عدوَّك وصديقَك بوجهٍ طلْقٍ[(٦)].

٤٢ ـ وأعطِ كلَّ ذي منصبٍ حقَّـه مـنَ التعظيم، ولا تُعظِّمْ جاهلًا؛ فإن تعظيمَ الجاهل تقويةٌ له على الجهل[(٧)].

٤٣ ـ ولا تَحضُرْ مجلسًا يُبخَسُ فيه حقُّ الكريم، ويُكرَمُ اللئيم.

٤٤ ـ ولا تَرْضَ بأن تَنزِلَ منزلةً لست لها بأهل؛ فإنه ليس شيءٌ أضرُّ على الدين والدنيا مِن تصدُّرِ غيرِ الأهل في مكانِ الأهل.

٤٥ ـ لِيكنْ مجلسُك هادئًا، وحديثُك موزونًا مرتَّبًا.

---

(١) وقراءةَ تلك المجلَّات والمقالات إنما تكون فيما له تعلقٌ بالدين عامةً؛ سواءٌ كان كلامًا عنه، أو طعنًا فيه، أو تلاعبًا بشريعته؛ وكل هٰذا للذود عنه ورد الأباطيل، وكذٰلك لا بأس بقراءة ما هو مباحٌ من أحوال الدنيا؛ وليُحذَرْ من قراءةِ المحرماتِ والتفاهات التي تضيِّع الأعمارَ النفيسةَ فيما لا طائل تحته.

(٢) أي: تطلَّعت فيما يخلِّد ذكرها بعد رحيلها عن الدنيا.

(٣) أي: النفوس الدنيئة تهرعُ وراء مُتع الدنيا، ولا تصبرُ على المعالي لتنال نعيم الآخرة.

(٤) الضَّنُّ: البخل والاستئثار.

(٥) الابتذال: الامتهان.

(٦) طلْق: بسَّام.

(٧) نعم؛ فالمعاملةُ مع الجهلاء بالبشاشة لهم، والشفقةِ عليهم؛ وليس بالتعظيم والإكبار.

٤٦ ـ وإذا جلستَ فلا تَسْتَوْفِزْ[(١)]، وتحفَّظْ من تشبيك أصابعك وفرقعتِها، والعبثِ بشاربك ولحيتِك وخاتمِك، وتخليلِ أسنانك، وإدخالِ أُصبعك في أنفك، وكثرةِ بُصاقك، وتَنَحْنُحِك، والتمطِّي، والتثاؤب في وجوهِ الناس في الصلاةِ وغيرها.

٤٧ ـ أَصْغِ إلى الكلامِ الحقِّ ممن حدَّثك؛ من غير إظهار تعجُّبٍ مُفرِط، ولا تسأله إعادته، واسكتْ عن المَضاحِكِ والحكايات.

٤٨ ـ لا تُحدِّثْ عن إعجابك بوَلَدِك وشِعْرِك وكلامك وتصنيفِك وسائرِ ما يخصُّك.

٤٩ ـ إذا خاصمتَ فتوقَّر وتحفَّظْ من جهلِك، وتفكَّرْ في جهتك[(٢)].

٥٠ ـ لِتكُنْ سهلَ اللقاءِ والبشاشة ـ ولو في حال المرض ـ، وبادِرْ بالتحيةِ والبِشْرِ مَن تلقاه.

٥١ ـ واكتُمْ بؤسك، واجعل شكواك لمن يقدِرُ على غِناك.

٥٢ ـ ولا تحضُرْ منازعةً؛ فإنك لا تخلو مِن قِسطٍ من أذاها ـ ولو بالمطالبة بأداءِ الشهادة[(٣)] ـ.

٥٣ ـ وإياكَ والانبساطَ[(٤)]؛ فإنه عورةٌ من عوْراتك؛ فلا تبذُلْه إلَّا لمأمون عليه حقيقٌ به[(٥)].

---

(١) أي: لا تجلس متوترًا كالذي يريد الانصراف.

(٢) أي: انظر ما يخرجُ منك من كلام.

(٣) بل ـ واللّهِ ـ كثيرًا ما يَسعى الساعي لفضِّ المنازعات بين الناس، ويُنفِقُ وقته وأعصابه لتقريب وجهاتِ النظر؛ فإذا تصالح القوم طعنُوا ـ أول ما طعنوا ـ في هٰذا المسكين، واتَّهموه بأقبحِ التُّهم، واللّهُ المستعان.

(٤) الانبساط: كثرة الضحك والممازحات.

(٥) حقيق: جدير به.

٥٤ ـ لا تتصنَّعْ تصنُّعَ المرأة في التزيُّن، ولا تتبذَّلْ تبذُّلَ العبد.

٥٥ ـ ولا تُلِحَّ في الحاجات، ولا تُشجِّعْ أحدًا على ظُلم.

٥٦ ـ لا تُعلِمْ أحدًا من أهلك وولدك ـ فضلًا عن غيرهم ـ مقدارَ مالك؛ فإنهم إن رأَوْه قليلًا هُنتَ عليهم، وإن رأوه كثيرًا لم تبلُغْ رضاهم قطُّ[١]، واجفُهم من غير عُنف[٢]، ولِنْ لهم من غير ضَعف.

٥٧ ـ لِيكُنْ لك فضلُ عُزلة؛ فإن كثرة الخِلطة مَجلبةُ الابتذال[٣].

٥٨ ـ أصْغِ لمن ينتقدُ عليك، واهجُرْ من يُطريك بما ليس فيك؛ فإنَّ مَن أظهر عيبَك أراد تهذيبك، ومَن عرَّفك نقصَك أرشدك للفضيلة، ولا تغترَّ بمن يطريك ولمَّا تبلغِ الكمال.

٥٩ ـ إذا يئِستَ منَ التغلُّب على مُناوِئك[٤]؛ فاسلُكْ معه سبيلَ المُحاسنةِ دفعًا للشرِّ بالمخاشنة[٥]؛ فليس من الحزم أن تصارعَ القويَّ وأنت ضعيف، وتكافحَ الكَمِيَّ[٦] وأنت أعزل، وتعاكسَ مجرى الظروف وطبيعتُها ما ترى.

٦٠ ـ ومما يُروى عن عليٍّ عليه السلام[٧]: «إياك وفعلَ القبيح؛ فإنه يُقبِّحُ ذِكرَك، ويُكثِّرُ وِزْرَك[٨]».

٦١ ـ إياكَ والغضب[٩]، فأوَّلُه جنون، وآخِرُه ندم.

---

(١) وهٰذا إذا لم يكن أهلُ الرجل ذَوِي دينٍ وقناعةٍ ومروءة.

(٢) أي: إذا أدَّبتهم وربَّيتهم فليكن بغيرِ عنفٍ خارجٍ عن حدِّ الشرع.

(٣) وقد قيل: «أزهدُ الناس في العالِم، وأشدهم جراءةً عليه: أهلُه».

(٤) المناوئ: العدو.

(٥) أي: دفعًا للشرِّ الذي قد يأتي بالخشونة والفظاظة.

(٦) الكَمِيُّ: الشجاعُ المتستِّرُ بالأسلحة، فأصل الكلمة من التخفي.

(٧) تخصيص عليٍّ رضي الله عنه بهٰذا الدعاء دون غيره من الصحابة بدعةٌ على الصحيح، وإنما الثابتُ في حقِّ جميع الصحابةِ هو الترضِّي عنهم جميعًا رضي الله عنهم.

(٨) وإنما يَكثُرُ الوزر إذا اقتدى أهلُ الضلال بصاحب الضلالة من بعده.

(٩) أي: لغير اللّٰهِ تعالى.

٦٢ ـ إياك أن ترضَى عن نفسك؛ فيكثرَ الساخطُ عليك.

٦٣ ـ إياك ومصادقةَ الأحمق؛ فإنه يريد أن ينفعَك فيضرَّك.

٦٤ ـ إياك ومصادقةَ البخيل؛ فإنه يقعدُ بك(١) أحوجَ ما تكون إليه.

٦٥ ـ إياك والسَّفَه؛ فإنه يوحشُ الرِّفاق.

٦٦ ـ إياك والعَجَل؛ فإنه مقرونٌ بالعِثار(٢).

٦٧ ـ إياك والبِطنة، فمَن لزمها كثُرت أسقامه، وفسدت أحلامُه(٣).

٦٨ ـ إياك والإعجابَ وحبَّ الإطراء(٤)؛ فإن ذٰلك مِن أوثق فُرصِ الشيطان.

٦٩ ـ إياك ومُستهجَنَ الكلام؛ فإنه يوغرُ القلوب(٥).

٧٠ ـ إياك ومذمومَ اللَّجاج؛ فإنه يُثيرُ الحروب.

٧١ ـ إياك أن تستسهلَ ركوب المعاصي؛ فإنها تكسُوك في الدنيا ذِلَّةً، وتُكسِبُك في الآخرة سخطَ اللّه.

٧٢ ـ عليك بالحكمة؛ فإنها الحِلْية.

٧٣ ـ عليك بالحياء؛ فإنه عنوانُ النُّبل.

٧٤ ـ عليك بالسخاء؛ فإنه ثمرةُ العقل.

٧٥ ـ عليك بالأناة؛ فإن المتأنِّي حريٌّ بالإصابة.

٧٦ ـ عليك بحُسن الخلق؛ فإنه يُكسِبُك الكرامة، ويكفيكَ الملامة.

٧٧ ـ عليك بلزوم الحلال، وحُسن البِرِّ بالعيال(٦).

---

(١) أي: يخذلُك.

(٢) العِثار: الزَّلل.

(٣) الأحلام: العقول.

(٤) الإطراء: المبالغة في المدح.

(٥) الوَغْر: الحقد والعداوة والضغينة.

(٦) العيال: الزوجة والأولاد، وكلٌّ من تلزمك نفقته.

٧٨ ـ عليك بالصدقة تَنجُ من دناءة الشح.

٧٩ ـ عوِّد نفسَك الجميل؛ فإنه يُجمِّلُ عنك الأحدوثة، ويُجزِلُ لك المثوبة.

٨٠ ـ عوِّد نفسك حُسْنَ الكلام تأمنِ الملام.

٨١ ـ كن بالوحدة آنسَ منك بقُرَناء السوء.

٨٢ ـ كن للمظلوم عونًا، وللظالِم خَصمًا.

٨٣ ـ كن للوُدِّ حافظًا، وإن لم تجد محافظًا.

٨٤ ـ كن بطيءَ الغضب، سريع الفيء[١]، محبًّا لقبول العُذر.

٨٥ ـ كن مؤاخذًا نفسَك[٢]، مغالبًا سوءَ طبعك، وإياك أن تُحمِّلَ ذنوبك على ربك[٣].

٨٦ ـ كن بأسرارك بخيلًا، ولا تُذِعْ سِرًّا أُودِعْتَه؛ فإن الإذاعة خيانة.

٨٧ ـ كن حَسَنَ المقال، جميلَ الفِعال؛ فإن مقالَ الرجل برهانُ فضله، وفِعالَه عنوانُ عقله.

٨٨ ـ كن صمُوتًا من غير عِيٍّ[٤]؛ فإن الصمتَ زينةُ العالِم، وسِترُ الجاهل.

٨٩ ـ كنْ بعدوِّك العاقل أوثَقَ منك بصديقك الجاهل[٥].

٩٠ ـ كنْ متصفًا بالفضائل، مُبرَّأً من الرذائل.

٩١ ـ لا تأسَ[٦] على ما فات.

---

(١) الفَيْء: الرجوع.

(٢) أي: مُتعاهدَها بالتربية.

(٣) كالذين يتهمون اللَّهَ تعالى بأنه هو الذي كَتب عليهم المعصية؛ فلماذا يعذِّبُنا! ومعنى الكلام: أنهم مظلومون! وكذَبوا؛ وهٰذا من ظن الجاهلية باللَّهِ رب العالمين.

(٤) العِيُّ: الجهل.

(٥) لأن العدوَّ العاقل لن يعاديَك إلا بالعقل؛ أما الصديقُ الجاهل فقف يضرُّك ظانًّا منفعتك.

(٦) لا تأس: لا تحزن.

٩٢ ـ لا تقولنَّ ما يسوؤكَ جوابُه[١].

٩٣ ـ لا ترغَبنَّ في مودَّةِ مَن لم تكشِفْه[٢].

٩٤ ـ لا تزهَدنَّ في شيءٍ حتى تعرفَه[٣].

٩٥ ـ لا تضمَنْ ما لم تقدِرْ على الوفاء به.

٩٦ ـ لا تُخبِرْ بما لم تُحِطْ علمًا به.

٩٧ ـ لا تأمَنِ البلاءَ في أمنِك ورخائِك[٤].

٩٨ ـ لا تَعُدَّنَّ شرًّا ما أدركتَ به خيرًا[٥].

٩٩ ـ لا تَعُدَّنَّ خيرًا ما أدركت به شرًّا[٦].

١٠٠ ـ لا تتكلمْ بكلِّ ما تعلم؛ فكفى بذٰلك جهلًا[٧].

١٠١ ـ لا تُمسِكْ عن إظهار الحقِّ إذا وجدتَ له أهلًا.

١٠٢ ـ لا تنظرْ إلى مَن قال، وانظر إلى ما قال[٨].

١٠٣ ـ لا تَستكثِرنَّ العطاء[٩] ـ وإن كثُر ـ، فإن حُسنَ الثناء أكثرُ منه[١٠].

---

(١) أي: لا تقولن كلامًا يُردُّ عليه بما يسوؤك ويؤذيك.

(٢) وكم كشفت لنا الأيامُ عن أناسٍ ظنناهم أصدقاء؛ وإذا هم من أشرِّ الأعداء.

(٣) لأنك ربما زهدتَ فيه وتركته، وفيه منافعُ كثيرةٌ لا تعلمها.

(٤) فإن من توقع السوءَ هان عليه إذا وَقع به.

(٥) أي: ما نِلتَ بسببه خيرًا؛ فليس شرًّا محضًا؛ وإلا لَمَا جاءك الخيرُ من طريقه.

(٦) أي: ما نِلتَ به الشرَّ ـ ولا سيما غضب اللّٰهِ تعالى ـ فليس بخير؛ وإن ظننت فيه بعض المنافع.

(٧) لأن ما يعلمُه الإنسان فيه الحق والباطل؛ فإذا تكلم به كلِّه ـ بلا تمييز ـ كان جاهلًا في خلطِه هٰذا بذاك؛ وقد ثبت في الحديث: «كفى بالمَرءِ كذبًا أن يُحدِّث بكل ما سمع». رواه مسلم (٥)، وأبو داود (٤٩٩٢)، وابن حِبَّان (٣٠)، والحاكم (١/ ١١٢).

(٨) فالمؤمنُ دومًا غايته الحق؛ ولو صَدَر من أي أحد. وراجع هامش ص (٣٥، ٣٦).

(٩) أي: ما تعطيه أنت لغيرك.

(١٠) ومعلومٌ أن المخلِصَ لا يطلبُ ثناءً أصلًا.

١٠٤ ـ لا تمازِحِ الشريفَ فيحقدَ عليك، ولا تُلاحِ[١] الدنيءَ فيجترئَ عليك.

١٠٥ ـ لا تظنَّ بكلمةٍ بدرت من أحدٍ سوءً وأنت تجد لها في الخير مَحمَلًا.

١٠٦ ـ لا تَعُدَّنَّ صديقًا مَن لا يواسي بمالِه.

١٠٧ ـ لا تَعُدَّنَّ غنيًّا مَن لم يُرزق مِن ماله[٢].

١٠٨ ـ لا تَزدرِيَنَّ العالِمَ ـ وإن كان حقيرًا[٣] ـ.

١٠٩ ـ لا تُعظِّمَنَّ الأحمقَ ـ وإن كان كبيرًا ـ.

١١٠ ـ لا تُسرِعنَّ إلى أرفعِ موضعٍ في المجلس؛ فإن الموضع الذي تُرفع إليه خيرٌ من الموضع الذي تُحطُّ عنه.

١١١ ـ لا تَفرَحنَّ بسقطةِ غيرك؛ فإنك لا تدري ما يُحدِثُ بك الزمان.

١١٢ ـ لا تغترَّنَّ بالأمن؛ فإنك مأخوذٌ من مأمَنِك.

١١٣ ـ لا تَبهَجَنَّ بخطإ غيرك؛ فإنك لم تَملِكِ الإصابة أبدًا.

١١٤ ـ لا تتَّبِعنَّ عيوب الناس؛ فإن لك من عيوبك ـ إن عقلتَ ـ ما يشغلك أن تَعيب أحدًا.

١١٥ ـ لا تُعوِّدْ نفسك اليمين؛ فإن الحلَّافَ لا يسلمُ منَ الإثم.

١١٦ ـ لا تعوِّدْ نفسك الغِيبة؛ فإن معتادها عظيمُ الجُرْم.

١١٧ ـ لا تيأسْ من الزمان إذا مَنع، ولا تَثِقْ به إذا أعطى.

١١٨ ـ كنْ على أعظمِ الحَذَر.

١١٩ ـ لا يؤنِّسنَّك إلا الحق، ولا يُوحشنَّك إلا الباطل.

---

(١) المُلاحاة: المخاصمة.

(٢) يعني الذي يأتيه المال دون تعبٍ ومشقة؛ خاصةً إذا كان كَلًّا على الناس.

(٣) أي: وإن كان قليلَ متاع الدنيا من مال ومنصب وجاه.

١٢٠ ـ لا تُخْلِ نفسك من فكرةٍ تزيدكُ حكمة، وعبرةٍ تُفيدُك عصمة.

١٢١ ـ لا تُسيءِ الخطاب فيسُؤْك الجواب.

١٢٢ ـ لا تحارِبْ من يعتصمُ بالدين؛ فإن مغالِبَ الدين محروب(١).

١٢٣ ـ لا تغالِبْ مَن يَستظهِرُ بالحق(٢)؛ فإن مُغالِبَ الحق مغلوب.

١٢٤ ـ لا تَجْهَلْ نفسَك(٣)؛ فإن الجاهل بنفسه جاهلٌ بكل شيء.

١٢٥ ـ لا تستعمِلِ الرأيَ فيما لا يدركُه البصر، ولا يتغلغلُ إليه الفِكر(٤).

١٢٦ ـ لا تُنابِذْ عدوَّك(٥)، ولا تُقرِّعْ صديقك(٦).

١٢٧ ـ واقبلِ العذرَ ـ وإن كان كذِبًا ـ، ودعِ الجوابَ عن قُدرةٍ ـ وإن كان لك(٧) ـ.

١٢٨ ـ لا تتركْ الاجتهادَ في إصلاح نفسِك؛ فإنه لا يُعينُك عليها إلا الجِدُّ.

١٢٩ ـ لا تُضيِّعنَّ حقَّ أخيك اعتمادًا على ما بينك وبينه(٨)؛ فليس لك بأخٍ

---

(١) في «القاموس»: «حَرَبَه حَرَبًا: كطَلَبه طلَبًا: سلبه ماله فهو محروب» (القاسمي).

(٢) في المطبوع: «من لم يستظهر بالحق»، والراجح حذف «لم»، واللَّهُ أعلم، ومعنى هٰذه النصيحة والتي قبلها: إياك أن تحاربَ مَن يعتصمُ بالدِّين؛ فإنك إن حاربتَه خسرتَ، وكذا مَن يحتمي بالحق لا تحاولْ أن تغالبَه، فإنك إن فعلتَ غلبك حتمًا.
وعلى إثبات «لم»، فيكون المعنى: لا تجادِل من لا يجادِلُ بالحق ـ وإنما بهوى العقول ـ؛ فهو مغلوبٌ مهزوم بغير مجادلتك. واللَّهُ تعالى أعلم.

(٣) وذٰلك بعدم معرفة عيوبِها.

(٤) وعلى رأس هٰذا ما يتعلق باللَّهِ تعالى وأسمائِه وصفاته؛ كما ضلَّ فيه أهل الكلام.

(٥) أي: لا تُعلِنْ عليه العداوة؛ فإن الشرَّ مدعاةٌ للشر.

(٦) التقريع: التوبيخ الشديد.

(٧) أي: وإن كان الجواب في صالحك! قلتُ: وهٰذا ليس على إطلاقه؛ فإن تبرئةَ العرضِ أمرٌ مرغوب فيه؛ لا سيَّما مع مَن لابد أن يكون عرضُه نقيًّا أمام الخلق ـ كالدعاة ـ؛ فإنَّ مَن طُعن منهم فيه أمامَ الناس، فلابد أن يبرِّئَ ساحته، وينفيَ عن نفسه التهم.

(٨) أي: لا تحمِلْك المحبةُ التي بينك وبين أخيك على التقصير في حقِّه.

من أضعتَ حقه.

١٣٠ ـ لا تكونَنَّ عبدَ غيرك[١]، وقد جعلك اللَّهُ حُرًّا.

١٣١ ـ لا تُكثِرِ الضحك فتَذهبَ هَيبتُك، ولا المُزاحَ فيُستخَفَّ بك.

١٣٢ ـ لا تُكثِرنَّ العتاب؛ فإنه يورِّثُ الضغينة، ويدعو إلى البغضاء.

١٣٣ ـ لا تُكثِرنَّ الخَلوةَ بالنساء[٢] فيَمَلَّنَّكَ وتَمَلَّهُنَّ، واستبقِ منْ نفسِك وعقلِك بالإبطاء عنهن.

١٣٤ ـ لا تكن فيما تُورِدُ كحاطبِ ليل وغُثاءِ سَيل[٣].

١٣٥ ـ اقبَلِ النصيحةَ ممن نَصَحك، وتلقَّها بالطاعة ممن حَمَلها إليك؛ واعلمْ أن اللَّهَ سبحانه لم يَمدح من القلوب إلَّا أوعاها للحكمة، ومِن الناس إلَّا أسرعَهم إلى الحق إجابةً.

❁ ❁ ❁

(١) وذلك بأن تُذلَّ نفسك للغير، أو تقلِّدهم تقليدًا أعمى.

(٢) ممن يَحلُّ لك الخَلوةُ بِهنَّ ـ لا سيما الزوجات ـ.

(٣) أي: إذا تحدثتَ في أمرٍ ـ خاصةً الأمور العلمية ـ، وأردت جَمْعَ الأدلة، فلتكن أدلتُك صحيحةً معتبرة، ولا تجلبْ أيَّ أمرٍ تظنُّه دليلًا ـ وإن كان ضعيفًا مردودًا ـ؛ فتكونَ كالذي يجمعُ الحطبَ في الليل ـ وهو لا يرى جيدًا ـ، فلعله يأتي بحطبٍ فاسد لا ينفع، ولا كالسَّيل الذي يحملُ ما يسقطُ عليه أيًّا كان، وإن كان لا فائدةَ من ورائه.



الباب الثاني

آدابُ الدَّرْس



الباب الثاني
آدابُ الدَّرْس

وفيه مطالب:

١ ـ الْمَدَارِسُ وأساتذتُها

لا يخفى أن الغايةَ من تشييد المدارس هي نشرُ العلوم والمعارف، وإخراجُ الناس من ظُلمة الجهالات إلى نور الهداية والعرفان، وإيجادُ المَلَكات الصالحةِ في الصغار، وتنميةُ العواطف الدينية وتقويتُها فيهم، وتأهيلُهم ـ علمًا وعملًا ـ للجهاد في هٰذه الحياة، وإخراجُهم منها وقد رُبِّي فيهم الكمالُ الرُّوحاني، والتعبُّدُ الديني، والذوقُ السليم، وحبُّ المعرفة، وتمكنتْ فيهم مَلَكةُ البحث والاستدلال، وقَوِيَ فيهم الميلُ إلى مطالعةِ سِيَرِ العظماء وما أَتوا من عظيم الأفعال؛ فمِن أخصِّ واجباتِ معلِّميهم ـ والحالةُ هٰذه ـ أن يكونوا قدوةً حسنةً لهم، وأن يُقوُّوا فيهم ـ وهم في بَدءِ نشأتِهم ـ حبَّ العملِ، وامتلاكَ النفس، والصبرَ والثبات والشجاعة، وأن يربُّوهم على احترام كلِّ عظيم، وحبِّ الحقِّ والعدل والعفة والصدق وكرمِ الخُلق؛ حتى يكونوا أعضاءَ حيةً نافعةً في جسم المجتمع(١) الذي يعيشون فيه.

ﮧﮧﮧﮧ

(١) المجتمع: خطأ لغوي، وصوابه: «الاجتماع».

٢ ـ أدبُ المُعلّم والمُرَبِّي

المعلِّمُ ـ وهو الأستاذُ والمؤدِّبُ والمربِّي ـ: إنسانٌ أكملته التربية؛ يحاول أن ينقُل صورتَه ونظامَ أحواله إلى غيره ليكون خَلَفًا منه، فلم يُمنح حقَّ سياسةِ التهذيب لإظهار جلالِه ورغبةً في تعظيمه، ولٰكن لِيدير شؤون تلامذته، ويبحثَ عن الطرق المهمة لإفادتِهم، فمن أهم آدابه:

١ ـ التواضع، ومجانبةُ العُجب؛ فإن التواضع عَطوف[١]، والعُجب منفِّر، وأن يَدَعَ التكلُّفَ لِمَا لا يُحسِن.

٢ ـ وألَّا يستنكفَ[٢] من تعلُّمِ ما ليس عنده.

٣ ـ وأن يستقِلَّ ما أُوتيَه ليستزيد[٣].

٤ ـ وألَّا يتصنَّع بما أدرك[٤].

٥ ـ وألَّا يجهلَ مِن نفسه مبلغَ علمها، ولا يتجاوَزَ بها قدْرَ حقِّها.

٦ ـ وأن يكون من شِيمته: العملُ بعلمه، وحثُّ النفس على أن تأتمرَ بما يأمر به.

٧ ـ وأن يكونَ في مَشيه وسكونه وإشارتِه بالتحية، وفي منظره إذا تبسَّم، وفي منطقه إذا تكلم: ما يُشير إلى وقاره وكمالِ عقله وحُسن خُلقه؛ سيَّما[٥]

(١) أي: يعطف قلوبَ الآخرين نحو صاحبه.

(٢) يستنكف: يستكبر.

(٣) أي: يرى ما عنده من العلم قليلًا ليكون في زيادةٍ دومًا.

(٤) أي: لا يفخرْ ويتباهى بما نال من علم.

(٥) هٰذه لغة صحيحة لهٰذه الكلمة، ولها استعمالات ثلاثة:
أوَّلها: «ولا سيما» ـ بالواو ـ، وهي أفصح اللغات.
ثانيها: «لا سيما» ـ بدون واو ـ.
ثالثها: «سيما» ـ كما ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ.

في المجامِع والمحافل، وألَّا ينقطع عن العلم إلى العمل؛ فإن نوم العالِم خيرٌ من عبادة الجاهل[١].

٨ ـ وألَّا يبخلَ بتعليم ما يُحسن، ولا يمتنعَ من إفادة ما يعلم؛ فإن البُخلَ به لؤمٌ وظلم، والمنعَ منه حسدٌ وإثم، وفي التعليم زيادةُ العلم وإتقانُ الحفظ.

٩ ـ وأن يقرأ مِن متون كلِّ فنٍّ أبلغَها عبارة، وأجْمَعَها قواعد، وأوضحَها مقاصد.

١٠ ـ وأن يقصدَ التآليفَ القديمة[٢]؛ لأنها أسهلُ موردًا، وأغزر مادةً، مع خُلوِّها من التعقيد، وبُعدِها عن المشاغباتِ اللفظية، ولْيتركِ الكتبَ الحديثة للمنقطعين لفهمها بدون مللٍ ولا حسابٍ للوقت، وأن يتجنب منها ما هو كالألغاز والأحاجي، وما يُحوِجُ إلى عناءٍ في حلِّ تراكيبه وعِلله، وأن ينظر في الشروح المطوَّلةِ والحواشي نظرةَ المطالع تقويةً للفهم لا قَصْدَ الدراسة، ضنًّا على الزمن أن يُصرف في موضوعٍ واحد يفوتُه من جرَّائه فنونٌ شتى.

١١ ـ وأن يُنقِّبَ طولَ حياتِه عن أهمِّ المؤلَّفات وأقربِها فائدةً وأبعدِها أسلوبًا؛ فإذا ظَفِر فلْيَسْعَ بطبعها رجاءَ تعميم نفعها.

١٢ ـ وأن ينظرَ في شؤون تلامذته، ويمهِّد لهم سبيلَ المجد والارتقاء، وأن يكون لهم مثالَ العقل، ونموذجَ الوقار والصلاح، وأن ينصحَ لهم، ويرفُقَ بهم، ويبذلَ المجهود في رِفْدِهم[٣] ومعونتهم.

١٣ ـ وألَّا يَحقِرَ ناشئًا، ولا يستصغرَ مبتدئًا، ولا يعنِّفَ متعلِّمًا.

١٤ ـ وأن يوجِّه ذهنَ الطالب إلى تعقُّلِ المسائل وفهم المعاني مِن أقرب الوجوه؛ متجنِّبًا الاحتمالاتِ البعيدة وتكلُّفَ التعاسيف[٣].

---

(١) لأن العالِم يقدِّمُ النوايا الصالحة قبل نومه، مع الأذكار الموظفة، فينال ثوابًا عظيمًا، فحتى في نومه يعمل بعلمه، أما الجاهل، فهو متبعٌ لهواه غالبًا.

(٢) ولابد أن تكون لأهل السنة والجماعة، وإياه ألف مرة من كتب المبتدعة وأهل الكلام.

(٣) الرِّفد: العطاء.

(٤) التعاسيف: الأمور الغامضة المستبعدة.

١٥ ـ وأن يُحضِّرَ درسَه قبل إلقائه؛ فيراجعَ ما يحتاج لمراجعته منَ الكتب لتصحيح ألفاظٍ وتحقيقِ بحث.

١٦ ـ وألَّا يأتي للطلبة في أثناء الدرس بما يشوِّش الفهم، فلا يُغرِبُ بالإكثار منَ الاعتراضات اللفظية والجوابِ عنها بالاحتمالات؛ فإنَّ ذٰلك مَضيعةٌ للأوقات.

١٧ ـ وألَّا يَخلِطَ مسائلَ علمٍ بمسائلِ علمٍ آخر، إلَّا ما جاء عرَضًا وتوقف عليه فهمُ المقام.

١٨ ـ وألَّا يمنعَ طالبًا، ولا يؤيِّسَه؛ لما في ذٰلك من قطعِ الرغبات، وأن يمرِّنهم على المناقشة؛ فبها يصلُ المتعلمُ إلى المطلوب. قال بعضهم: وهي طريقةُ سقراط، وتسمى: «طريقة التحاور»، وهي: ألَّا يلقِّنَ المعلِّمُ الطلبةَ ما يريد منَ الأحكام والمسائل ليحفظوها عن ظَهرِ قلبٍ، أو يقلِّدوه مجردَ تقليد في فهمها، ولٰكن لا يزالُ معهم في أخذٍ وردٍّ وبحثٍ وتمثيل؛ حتى يصلَ بهم إلى ما يريد. وأن يمرِّنَهم ـ أيضًا ـ على القُدرة على التعبير عما يدركونه بعدَ إيضاح الموضوع لهم إيضاحًا تامًّا.

١٩ ـ وأن يمرِّنَهم على إثباتِ المدَّعَى بالبرهان الصحيح الثابت الذي لا يقبلُ النقض؛ لتجريَ نفوسُهم في حركة المعقولات، ويُحيي فيها قوةَ التأمل والتعقُّل؛ حتى تصير ملَكةً راسخة.

٢٠ ـ وأن يقتلع جذورَ التعصُّب من قلوب المتعلِّمين، ويحبِّبَهم إلى الإنصاف؛ فإن التعصُّبَ سببُ تفريق الناس بعضِهم عن بعض، وجذوةُ حُجُبِ العقول عن الحق، والإنصافُ راحةٌ؛ لأنه يرفعُ الخلاف ويوجب الائتلاف.

ﮋﮊﮋﮊ

٣ ـ أدبُ المُتعلّم [في نفسه]

١ ـ أن يسترشدَ بمعلِّمٍ خبيرٍ ناصحٍ حكيم، سمْحٍ بعلمه، متأنٍّ في تعليمه.

٢ ـ وأن يرغبَ في العلم رغبةَ متحقِّقٍ بفضائله واثقٍ بمنافعه.

٣ ـ وأن يكونَ الباعثُ له طلبَ مرضاة مولاه والعملَ بوصاياه.

٤ ـ وألَّا يطلبَه لِمِراءٍ أو رياء؛ فإن المماريَ به منبوذٌ(١) لا ينتفع، والمرائي مرذولٌ لا يرتفع.

٥ ـ وأن يبتدئَ بأوائلِ العلوم ليتدرجَ إلى آخرها، ومَن لم يُحسِنِ البدايةَ وساوى ذَوِي النهاية يُرى في لغطٍ مُضِل أو غلطٍ مُذِل، وكان ممن رضي بخداعِ نفسه، وقَنِع بمداهنةِ حِسِّه.

٦ ـ وألَّا يَنيَ(٢) في طلبه، وأن ينتهزَ الفرصةَ به، فربما شحَّ الزمانُ بما سَمح، وضنَّ بما منَح.

٧ ـ وألَّا يدعوَه ما استصعب عليه إلى تركه؛ فإن ذٰلك مطيةُ المقصِّرين.

٨ ـ وأن يكثرَ منَ المذاكرة ليستفيدَ ما لم يعلم، ويحفظَ ما علم.

٩ ـ وألَّا يؤيِّسَه تبلُّدُ ذهنه ونبوُّ فِطنتِه؛ فإن الدأبَ يُذلِّلُ الصعاب، ويدُكُّ الهِضاب.

١٠ ـ وألَّا يُلهيَه عن طلبه كثرةُ مالٍ وَجَدَه، ولا نفوذُ أمرٍ وعلوُّ منزلة؛ فإن مَن نَفِذ أمره فهو إلى العلم أحوج.

١١ ـ وألَّا يمنعه كِبرُ سنِّه وتقصيرُه في صغره عن الجدِّ في إعلاءِ منزلته بالتعلُّم في كِبره.

---

(١) المنبوذ: المطرود المرفوض.

(٢) يَني: يتكاسل.

١٢ ـ وألَّا تصدَّه شؤونُ كَسْبه عن أخذِ حظٍّ منه[١].

١٣ ـ وأن تكون سيرتُه الشخصية ملائمةً لشرفِ العلم والدِّين.

١٤ ـ وأن يحرصَ على كتابةِ كلِّ ما يسمعُه من تحقيقٍ في بحث، وحكمةٍ في تشريع، ونكتةٍ غريبةٍ[٢] في بابها، وقصةٍ بديعة ـ كما كان عليه السلف[٣] ـ، وخلَّدوا لهم بذلك ذِكرًا لا يُنسى.

١٥ ـ وأن يَعتنيَ بإجادةِ خطِّه، وبمَلَكةِ سُرعة القلم وحفظِ الكتابة من التحريف.

١٦ ـ وأن يصحبَ معه ـ على المَدى[٤] ـ مذكِّرةً «دِفترًا» في جَيبه؛ ليكتبَ خواطرَه ونفيسَ ما يسمعُه من أي شخصٍ كان؛ فإن إهمالَ الفوائد خسارةٌ كبرى، و«العلمُ صيدٌ، والكتابةُ قَيدُه».

***

(١) أي: من العلم.

(٢) أي: فائدة نفيسة.

(٣) نقل العلَّامة الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١]، عن أبي حاتم السِّجستاني أنه كان يَكتب عن الأصمعي كلَّ شيء يلفظ به من فوائد العلم، حتى قال فيه: «أنت شبيهُ الحفَظة تكتب لَغَطَ اللفظة، فقال أبو حاتم: وهٰذا ـ أيضًا ـ مما يُكتب» اهـ (القاسمي).

(٤) أي: دومًا.

٤ ـ أدبُ المُتعلِّم في دَرْسه

١ ـ عليه أن يُكِدَّ[١] في النظر نفسَه، وأن يُكثِرَ من المقروء درسَه[٢].

٢ ـ وألَّا يضجرَ من معاناة الحفظِ ومراعاته.

٣ ـ وألَّا يَغفُلَ عن تقييدِ نفائسه بالكتابة ثقةً بما استقر في ذهنه؛ فإن الشكَّ معترضٌ[٣]، والنسيانَ طارئ.

٤ ـ وأن يبحثَ عن الحقائق، ويربِّيَ قوةَ حركةِ فكره في المعقولات لينموَ عنده الشغَفُ في العلم.

٥ ـ ومِن أهم ما يوصَى به: الثباتُ والصبر، وعدمُ التقلُّبُ والتضجر.

وكلُّ عملٍ في الوجود فهو محتاجٌ للثبات بنسبةِ ما فيه من المشاق، وما يحُولُ دونه من العوائق التي لا يزيلُها إلَّا المثابرةُ عليه والثباتُ له؛ فإن الدنيا ميدانٌ تتسابق فيه الهِمم، وتتبارى عليه الأمم؛ فمن سَبق فاز بالحسنى، وكانت يدُه في الوجود هي العليا، ومن قصَّر كانت يدُه هي السُّفلَى، وعاش عِيشةَ الأذلِّ الأدنى، وإنما يُنالُ السبقُ بالثبات، وليس من سبيل للنجاح إلَّا بالاجتهاد.

○ وقد حُكي أن كسرى[٤] سُئل: «أيُّ أولادك أحبُّ إليك؟ قال: أرغبُهم في الأدب، وأجزعُهم من العار، وأنظرُهم في الطبقة التي فوقه».

○ وما ألطفَ قولَ بديع الزمان: «أنت ولدي ما دمتَ والعملُ شأنُك، والمدرسةُ مكانك، والمَحبرةُ حليفُك، والدفترُ أليفَك؛ فإن قصَّرت ـ ولا إخالك[٥] ـ فغيري خالُك، والسلام».

---

(١) يُكِد: يُتعِب.

(٢) أي: يُكثر من قراءة دروسه.

(٣) معترض: وارد.

(٤) كِسرى: لقب عامٌّ لملوك الفُرْس.

(٥) إخالُك: أظنك.

٥ ـ أدب الْمُتعلِّمِ مع أساتذته

١ ـ عليه أن يبدأه بالتحية.

٢ ـ ويُقلَّ بين يديه الكلام.

٣ ـ وأن يتملَّقَ[١] له ليستخرجَ مكنونَ علمه، ويتذلَّلَ له لينالَ دوامَ صبره عليه.

٤ ـ ويرعى مقامَه رعايةَ الوالد.

٥ ـ ويبالغَ في خدمته وعرفانِ حقِّه وإكرامه.

٦ ـ ويجلسَ بين يديه في غايةِ الأدب والانتباه والإصغاء والسكوت، لا يلعبُ بيديه، ولا يَخبِطُ برجليه، ولا يلتفتُ إلى ورائه، ولا يشتغلُ بمجادلة غيره.

٧ ـ ولا يبادِرُ إلى تحيةِ أحدٍ قبلَه.

٨ ـ ولا يتكلمُ ما لم يسأل أستاذُه.

٩ ـ ولا يقولُ في معارضة قوله: «قال فلانٌ بخلاف ما قلت».

١٠ ـ ولا يشيرُ عليه بخلافِ رأيه، فيُريَ أنه أعلم بالصواب من أستاذه.

١١ ـ ولا يشاورُ جليسَه، ولا يناجيه في مجلسِه.

١٢ ـ ولا يلتفت إلى الجواب.

١٣ ـ ولا يُكثِرُ عليه عند مَلَلِه.

١٤ ـ وإذا قام قام له، ولا يَتبعُه بكلامِه وسؤاله، ولا يسألُه في طريقه إلى أن يبلغَ منزله.

١٥ ـ ولْيَحذرْ الانبساطَ معه[٢] ـ وإن آنسَه ـ ، والإدلالَ عليه ـ وإن تقدَّمت له صحبةٌ ـ .

---

(١) التملُّق: التودد والاستعطاف.

(٢) الانبساط: كثرة الممازحة.

١٦ ـ وألَّا تدعوَه جَودةُ ذكائه إلى إعناتِ معلمه، والإزراء به[١].

١٧ ـ وألَّا يغلوَ في تعظيمه غلوًّا يبعثُ على قبول الشُّبهةِ منه[٢] والتقليدِ فيما أَخذ عنه حتى يرى قولَه دليلًا ـ وإن لم يستدل ـ ، أو اعتقادَه حُجةً ـ وإن لم يحتج ـ ، ويُفضي به إلى التسليمِ الأعمى؛ بل لابد من النقدِ بمَحَكِّ النظر، وقبولِ ما رَجَحت صحتُه بميزان الحق.

١٨ ـ وألَّا يستحيَ من السؤال في موضعه؛ إزالةً لشكِّه، ونفيًا لشُبهته.

١٩ ـ وأن يستمرَّ في تلقي الكتاب الذي ابتدأه على الأستاذ الذي شَرع في تلقِّيه عنه حتى يُتمَّه، وألَّا ينتقلَ إلى أرقى منه قبل إكماله.

٢٠ ـ وأن يأخذَ حظَّه ممن وجد طِلْبتَه عنده من نبيهٍ وخامل، ولا يطلب الصِّيتَ باتباع الوجهاءَ من العلماء ـ إذا كان النفعُ بغيرهم أعم ـ .

٢١ ـ وألَّا يطلبَ البعيد منهم ـ إذا سَهُل القريب ـ ، ورُبَّ امرئٍ يَتْبعُ مَن بعُد استهانةً بمَن قرُب؛ فلا يدركُ محبوبًا، ولا يَظفَرُ بطائل.

○ وفي المَثل: «العالِمُ كالكعبة، يأتيها البُعَداء، ويزهدُ فيها القُرَباء».

ﮋﮊﮉﮈ

---

(١) أي: لا تدعوه جودةُ ذهنِه للإثقال على معلِّمه بكثرة الاعتراضات من ناحية، ولا يُزري بمعلِّمه ظانًّا أنه أجودُ منه ذكاءً من ناحيةٍ أخرى.

(٢) الشُّبْهة: ما يظنُّه المرء دليلًا، وليس كذلك، وسُميت «شبهةً» لأن حالها اشتبهَ على صاحبها فظنَّها دليلًا على المطلوب.

٦ ـ أدبُ المُتعلِّمِ في محفل الدَّرْس بين يدي المُعَلِّم

١ ـ يلزمُ الطالبَ أن يجلس في مَحفَلِ الدرسِ بوقار.

٢ ـ وأن يُصغيَ إلى تقرير الأستاذ بأُذنٍ واعية.

٣ ـ وأن ينظرَ في الكتاب إذا قرأ منه الأستاذ.

٤ ـ وأن يجتنبَ الالتفاتَ ـ ساعةَ الإلقاء ـ يَمْنةً أو يَسْرة.

٥ ـ وكذا محادثةَ أحدٍ، أو الإشارةَ إليه، أو أمرَه بالتقدُّم أو التأخر.

٦ ـ ولْيهتمَّ بشرح أستاذه وتفهُّمِه؛ حرصًا ألَّا يتفلتَ بغفلته شيءٌ منه.

٧ ـ وأن يجتنبَ إجابةَ سائلٍ للأستاذ قبله؛ فإن المبادرةَ لذلك زلةٌ كبرى يتحتمُ تجنُّبُها.

٨ ـ وأن يصغيَ لمن سأل [الأستاذَ] إصغاءً تامًّا.

٩ ـ وأن يتجنب الهُزْءَ بمن زلَّ في سؤالٍ، أو كان مِثلُه واضحًا لا يُهتمُّ فيه؛ فإن الأفهام تتباين[١].

١٠ ـ وأن يحذرَ مسابقةَ الأستاذ في إلقائه إذا وقف لتنفُّسٍ أو تأمُّل.

١١ ـ وألَّا يضحك بلا داعٍ، ولا يبديَ مُضحِكًا، ولا يتغامزَ مع أحد، ولا يمزحَ معه، ولا يسوقَ حكايةً أو نادرةً أو أمرًا مما جرى له.

١٢ ـ وأن يسكنَ لمن استعادَ شرح الأستاذ، ولم يتفطَّنْ للبحث، ولا يتضجَّرَ منه.

١٣ ـ وأن يدافعَ النوم مدافعةَ العدوِّ الألد.

١٤ ـ وأن يُفسِحَ للقادم، ويَبشَّ له، وألَّا يَجمُدَ في وجهه[٢].

---

(١) تتباين: تختلف.

(٢) الجُمود: العبوس. وهٰذا من سوءِ الخُلق الذي اتصف به الكثيرون.

١٥ ـ وأن يقدِّمَ ذا الفضل عليه.

١٦ ـ وألَّا يقومَ لداخلٍ إلَّا إذا قام الأستاذ.

١٧ ـ وألَّا يعتبَ على مَن زجره الأستاذُ أو أنَّبه، ولا يشمتَ به، ولا يحقدَ عليه[١].

١٨ ـ وأن يُقفِلَ باب الخصام والشحناءِ مع أخيه.

١٩ ـ وألَّا يكلِّم غير أستاذه؛ فلا يسمحَ له بمخاطبةِ غيره، ولا يجيبَه إلا لضرورةٍ يفوتُ الأمرُ بتأخيرها.

٢٠ ـ وألَّا يجيبَ من استوضحه البحث؛ بل يستمهلُه إلى فراغ الدرس[٢].

٢١ ـ وللطالب أن يكتبَ ما ألقاه الأستاذُ بإذْنِه، ويشترطَ عَرْضَه عليه بعدُ.

٢٢ ـ ولا يَسُوغُ للطالب أن يحكيَ مباحثَ الدرس لمن لا يدري قيمتَها.

٢٣ ـ ومَن اعتاد مكانًا في المَحفل فسُبق إليه؛ سقط حقُّه؛ فلا يزاحمْ لأجله؛ لأن المتخلِّفَ يجلسُ حيث انتهى به المجلس.

٢٤ ـ ولْيَحملْ كتابَه في يده اليمنى.

٢٥ ـ ولْيَحذر وضعَ الكرَّاسِ في الجيب أو الطَّوْق؛ بل يوضعُ في محفظةٍ دومًا، ويزجرُ القادمَ للدرس بلا كتاب ويؤنبه.

٢٦ ـ ولا يضعْ فوق الكتاب دواةً ولا خِرقةً، ولا يمتهنُ شيئًا.

٢٧ ـ وللطالب أن يسألَ في الموضوع ـ بأدبٍ ـ استفهامًا لا جدلًا.

٢٨ ـ والطالبُ حرٌّ في إبداءِ رأيٍ في مسألةٍ يعرضُه[٣] على الأستاذ ليفحصَه، ولا يجادلُ الأستاذ في رأيه، وعليه أن يقفَ عند إشارته، ويعملَ

---

(١) وكم رأينا من فاسدي الأخلاق مَن يفرحون بتوبيخ الشيخ لتلميذه، ويتَّخذون من هٰذا سُلَّمًا للطعن في أخيهم ومحوِ فضائله!.

(٢) أي: إذا طلب أحدُ زملائه منه إيضاحَ أمرٍ ما، فلينتظر حتى ينتهي الدرس.

(٣) أي: الرأي.

بنصيحتِه، ويذعن له إذعان المريض للطبيب لأنه مؤتَمَن.

٢٩ ـ وللطالب أن يستعيدَ المسألة مرارًا بأدبٍ وعقل.

٣٠ ـ وينبغي أن يَعلم الطلبةُ أنهم إخوانُ حبٍّ واستفادةٍ وخروجٍ من ظُلمةِ الجهل إلى نور العلم؛ فلْيتراحَمُوا، ولْيتآلفوا ولا يتخالفوا، والمودَّةُ نسَبٌ ورحِم. والأخوَّةُ في اللّٰهِ آكدُ من وشيجِ الرحم(١)؛ فليُناضلوا عن صاحبهم بالمدافعةِ عنه وحفظِ غيبته، وعليهم أن يعرِفوا للذكيِّ وللمحصِّلِ قَدْرَه.

٣١ ـ ولا يعاتِب مَن تَرَكَ الحضور، ولا يُحرص على صحبته.

٣٢ ـ ولْيجتنبِ الطالبُ الاعتيادَ على كثرة الجدال والحوار، فيُمقتَ ويضيعَ الصوابُ عليه.

٣٣ ـ ومَن قَدِم إلى الدرس فلينزِعْ طَيلسانَه(٢) وما يغطِّي جبهتَه وأُذُنَه(٣)، ولا يجلسْ منحنيًا؛ فإن منَ اعتاد انحناءَ رأسه ومَنكِبِه ضاق صدرُه، وتغوَّرَ بطنه(٤)، وضعُفت عضلاتُ ظهره، وكلما تقدَّم في العمر يزدادُ هٰذا العيبُ فيه ونَصْبُ القامة هو اللازم، وفيه تقليلُ تعب العضلات، ولذا كان المنتصبُ يقدرُ أن يقف زمانًا طويلًا، ويمشي مسافةً بعيدة، ويشتغل أكثرَ من المنحني.

٣٤ ـ وعلى الغنيِّ أن يتفقدَ البائسَ من إخوانه، وعليهم أن يَسألوا عن الغائب، فيُعادَ لمرض، ويُهنَّأَ لفرح، ويعزَّى لمصيبة، ويشاطَرَ في الأسى، ومَن قعد عن ذٰلك فلا ثقةَ به، ويُمحى اسمُه من دفتر الصادقين في الأخوة.

٣٥ ـ ومَن تبيَّن أنه فاسدُ الأخلاق والآداب فيَتحتمُ طردُه.

---

(١) وَشيجُ الرحم: الأرحام المترابطة.

(٢) الطيلسان: كساء غليظ مخطط.

(٣) وهٰذا معناه نزعُ «الغُترة» ـ مثلًا ـ ! وهٰذا فيه نظر، ولا أدري وجهَ دلالته على الأدب! ولعلَّ المصنف أراد أن وجوده على الأذُن قد يمنع من سماع بعض العلم؛ لٰكن هٰذا بعيد.

(٤) تغوَّر: غاص للداخل وتعب.

ومِن مخائل النجابة: ألَّا تكاد تبدُرُ من الطالب بادرةٌ إلا وهو يَعَضُّ أناملَه ندمًا على تفريطه في جانب الأدب والعلم؛ لما يشعُرُ به من تأنيب ضميرِه قبل تأذِّي أستاذه؛ فتراه يحرصُ بعدها على أن يكون قدوةً في الطاعة والامتثال وحُسنِ السِّيرة؛ شعورًا منه بأن وازعَ الأدب يزجُرُه ويناقشُه الحسابَ على كل ما يَفرُطُ منه.

وجديرٌ بمن دَرس هٰذه الآدابَ وتحلَّى بها ألَّا يمضيَ عليه ردحٌ من الدهر حتى يصبحَ رجلًا في العزْم والقولِ والعمل؛ واقفًا من أسرار الحياة على ما لم يكن ليعرفَه، ناشئًا على أمتن الدعائم التي أُسس عليها بناءُ الشريعة السمحاء، عاملًا بما عَلِمه من ثمار آدابِها.

○ «ولكل عصرٍ حاجيات، ولكلِ طَورٍ من أطوارِ الأمم النامية كمالياتٌ لابدَّ من استيفائها كلَّما تدرَّجتِ الأُمةُ في معارج الارتقاء، وجرت في ميدان الفلاحِ والتقدم على السُّنةِ الفطرية التي تدور حولَ محورِ هٰذا الكون البديع النظام».

ﮩﮨﮧﮦ

٧ ـ أدبُ الفتى مع رُفقائه في مَدْرستِهِ أو مَحِلَّتِه

رُفقاءُ الفتى في المَحِلَّة[١] وفي المكتب والمدرسة: هم أقربُ الناس إليه بعد والديهِ وإخوانِه وأقاربه، ويراهم أكثرَ مِن غيرهم، فيَلزمُ:

١ ـ أن يعاشِرَهم بالمعروف؛ ليَدخَلَ عليهم السرورُ برؤيته، وتنشرحَ صدورُهم من ملاقاتِه.

٢ ـ ويُكلِّمَهم بالمعروف.

٣ ـ ويقابلَهم بالبشاشةِ واللُّطف.

٤ ـ ويُساعدَهم على دفع المضرَّةِ وجَلبِ المنفعة بالطرق الحسنة.

٥ ـ ولا يقابلَهم بمكروه.

٦ ـ ولا يتكلَّمَ في حقِّهم بما يُكدِّرُ الخاطر.

٧ ـ ولا يُسلِّطَ عليهم مؤذيًا.

٨ ـ ولا يعاشِرَ منهم سيئَ الخُلق، قليلَ الأدب، معتادًا على أمور ذميمة.

٩ ـ ومن سابَّه فلا يُجِبْه إلا بالنصيحةِ والنهيِ عن السِّباب، وإن لم ينتهِ احترَزَ من ملاقاته بالمرَّة، واستعان بإخوانِه الكامِلينَ على تهذيبِ أخلاق ذلك المسكين.

١٠ ـ ولا يُطيلَ النِّزاع؛ فإنه يجُرُّ إلى أقبحَ منه.

١١ ـ ولا يتعاظمَ على رُفقائه ـ ولا غيرهم ـ.

١٢ ـ ولا يُخبرَهم بما يكرهون، أو بأمورٍ خُرافيةٍ غيرِ معقولةٍ ولا مقبولة؛ لئلَّا ينفروا منه.

١٣ ـ ولا يصحُّ أن يخبرَ أحدًا بما يقعُ في بيته من أبيهِ وأمِّه أو أحدِ إخوانه؛

(١) المَحِلَّة: مكان السكنى.

لأنه يكون خائنًا لا يكتم السرَّ؛ فيُستخفُّ بعقله ويُهزأُ به.

١٤ ـ ولا يَصرِفُ أوقاتَه مع رفقائه إلّا بما يعودُ على نفسه ـ وعليهم ـ بالمنفعة.

١٥ ـ ولا يتركُ دَرسَه، أو صنعتَه، أو قضاءَ مصلحتِه لأجل أن يبسطَ رفقاءه[١]؛ فإنه يكون كالبَخُّور يُعطِّرُ الناس ويُحرق نفسه ـ أي: ينفع الناسَ ويُضرُّ بنفسه ـ، وهو عملٌ لا يليق بالعقلاء.

١٦ ـ وينبغي له أن يسابقَ إخوانَه في المدرسة والمكتب إلى فَهم الدروس ومعرفتها، ويجتهدَ في أن يتقدَّمَهم، ويساعدَهم على التعلم، وتكونُ له غَيرةٌ ونشاطٌ في الحفظ والفهم، وتكونُ له مذاكرةٌ مع أقارنه ومُباحثةٌ علمية، ومَن ناقشَه أقنعه بالدليل بعد التأمُّل الكافي، واستعمالِ غاية الأدب.

١٧ ـ ومَن ظهر خطؤه وأن الحقَّ مع غيره فلا يعانِدُ ولا يكابر؛ بل يمتثلُ للحق، ويشكر صاحبه الذي علَّمه.

وبالجملة: فما أحسنَ حالَ التلميذ الذي يهتمُّ بدروسه بكل دقةٍ واحتراس، ويسابقَ إخوانه حتى يكونَ من أحاسن طبقتِه! وما أسوأَ الذي يكون بليدًا متكاسلًا فاقدَ الغَيرة من إخوانه المتقدِّمين عليه الفائقين في المعرفة، لأنه لا يزالُ محرومًا متأخرًا.

١٨ ـ ولا يجوزُ تضييعُ الزمن في الهَزْل والهُزء والسخرية والكلام السمِج ـ الذي يسمُّونه «التنكيت»[٢] ـ الخارجِ عن حدود الأدب؛ فإن هٰؤلاء المُنكِّتين ينالهم الذلُّ والصَّغارُ واحتقارُ العقلاء لهم، فيُكبَّرون وهم الأصغرون.

١٩ ـ كما أنه لا ينبغي أن يكونَ الطالبُ عَبوسَ الوجه باديَ الكَمَد[٣] والنكد؛ فإنَّ هٰذا يضرُّه ويُنفِّرُ الناسَ عن معاشرتِه ومصافاته، ويجعلُه ثقيلًا

---

(١) أي: لأجل أن يجالسهم.

(٢) وهو ما يسمى في العصر الحاضر: «النُّكت»؛ تلك الأكاذيب الساخرة.

(٣) الكمَد: الحُزن.

على القلوب، مكروهًا في النفوس، والخروجُ عن الاعتدال مذمومٌ في كل شيء؛ بل يلزمُ أن يكون بشوشَ الوجه، ظاهرَ النشاطِ والانبساط، يَضحكُ عند ما يوجِبُ الضحك ـ لا عند كلِّ شيء ـ ، ويكون ضَحِكُه التبسُّم ـ بلا رفع صوت ـ .

٢٠ ـ وعليه أن يكون نظيفَ الوجه والعينين واليدين وسائرِ البدن والثياب؛ فإن الوسِخَ بغيضٌ للناس، تُسرِعُ إليه الأمراضُ وضِيقُ النفْس.

٢١ ـ ولْيَحذَرْ مِن مسح الحِبر بثوبه لئلَّا يُقذِّرَه، ولا بفمِه لئلَّا يحصُلَ له ضررٌ مما عساه يوجدُ فيه.

٢٢ ـ ولا يعتادُ دَلْكَ عينيه بيده ـ ولو كانت يدُه نظيفةً ـ ؛ فإن العينَ لطيفةٌ لا تتحملُ كثرةَ الملامسةِ والدَّلْك.

٢٣ ـ ولْيطردِ الذبابَ عنه؛ فإنه كثيرًا ما يكونُ في الأشياء القذرة، فيَحمِلُها برِجله فيُقذِّرُ ما يُصيبه أو يضرُّه.

٢٤ ـ ولا ينبغي أن يطأطئَ رأسه ويَثني رقبته ـ في مشيه أو قعوده ـ كالذليل الجبان؛ بل يستعملُ النشاطَ والهمةَ في جميعِ الأفعال؛ فيرفعَ رأسَه على الاستقامة، ويُعدِّلَ قامته، ويُقوِّمَ ظهرَه، ولا يُقوِّسه.

٢٥ ـ ولا يُسرِعْ في المشي جدًّا، ولا يبطئ؛ بل يتوسطُ، ويكون إلى السرعة أقرب.

٢٦ ـ ولا يتكسَّرُ في الكلام، ولا يُكثِرُ في القول حتى يَثْقُلَ على النفْس، ولا يتركه بالمرَّة ـ كالأخرس ـ ؛ بل يتكلم إذا اقتضاه، ويسكتُ إذا اقتضاه.

٢٧ ـ ولا يتكبرْ ويخاطبْ بغلظة.

٢٨ ـ ولا يَمتهنْ نفسَه بالدناءة والمَسكنة وزيادةِ تعظيم الناس فوقَ الحد المقبول؛ فإن الخروجَ عن الحد جهلٌ وغلط، وخيرُ الأمور الوسَط[1].

---

(١) والحديث الوارد في هٰذا المعنى: «خيرُ الأمور أوساطها» حديث ضعيف، فانتبه.

٨ ـ مكافأةُ المُجْتَهدين

تَهتمُّ المدارسُ العُليا لوضع أنواع المكافأة للمجتهدين مِن طَلَبتها في مقابلة إحسانِهم؛ رغبةً في حَمْلِهم على النشاط والمثابرةِ على العمل، وفي إحداثِ الغَيرة في نفـوس التلامـذة؛ لأن المتعلِّمَ المجتهـدَ حريصٌ على الارتقاء، ومن طبعه مقارنةُ نفسه بغيره.

فمن المكافئات:

١ ـ ترفيعُ الأماكن[١].

٢ ـ وتوجيهُ الامتيازاتِ المدرسيَّة.

٣ ـ وإهداءُ تُحَفٍ وقِطعٍ أدبيَّة.

٤ ـ والمدحُ والثناء.

إلَّا أنه لا يسوغُ الإطراء فيه[٢]، ولا الإكثارُ منه؛ حتى يكونَ له وقعٌ في النفوس، وهٰذا مرجعُه حِكمةُ المعلِّم وعقلُه.

ೠೠ

(١) أي: إجلاسهم في مكان متميِّز.

(٢) الإطراء: المبالغة في المدح.

٩ ـ مجازاة المُسيئين

كما دَعتِ الضرورةُ إلى وضعِ أنواعٍ للمكافأة الحسنة ـ كما قدَّمنا ذٰلك ـ؛ هناك ضرورةٌ إلى وضع أنواعٍ للمجازاة على الإساءة؛ حَذَرَ الوقوع في مخالفةِ القوانين المدرسيَّة[١]؛ فمنها:

ـ اللوم.

ـ والتَّعزير[٢].

ـ والمَنعُ من الفُسَح والرياضة.

ـ والتكليفُ بحفظ شيءٍ أو كتابتُه جُملةً مراتٍ.

وهٰذا الأخير مفيدٌ إذا كان سببُ العقاب إهمالَ التلميذ دروسَه.

ـ وآخِرُ العقوبات: الطردُ؛ ولا يصارُ إليه إلا إذا لم يُفِدْ غيرُه.

ويجب على المعلِّم أن يكون حكيمًا في مجازاته، أديبًا في عباراته، مجانبًا فُحشَ الكلام وبذاءته في الزجر؛ فإن لذٰلك أضرارًا:

منهـا: اعتيادُ التلميذ على حِفظها، فيشيبُ على ما شبَّ عليه.

ومنها: إيراثُ الغِلِّ والحقد في نفسه إذا توالَى على سمعه الحطُّ من كرامته أو كرامةِ أهله، والمبالغةُ في احتقاره وازدرائه.

ومنها: انقباضُ نفسه عند رؤية المعلِّمِ والاجتماع به؛ مما يدعو إلى الخيبةِ وعدمِ النجاح بسبب عدم استفادتِهم منه؛ إذ هو الذي صَرَف ميولهم عنه، وكرَّه إليهم طَلْعتَه وسماعَ صوته.

○ يقول بعضهم ـ مذيِّلًا هٰذا الموضوع ـ : «لقد مضى زمنٌ طويلٌ لم

---

(١) نعم؛ فليس الغرضُ من العقاب الانتقام من الطلبة؛ كما نراه من بعض مَرضى المدرِّسين.

(٢) التعزير: عقوبةٌ تقديريةٌ ليس لها حدٌّ معلوم في الشريعة. وهي ترجع إلى حكمة المعلِّم وفطنته في إصلاح الطالب.

يُعرف من أنواع التربية إلا العقوباتُ البدنية؛ حتى أتت هٰذه السِّنونَ الأخيرة، فتصدَّى كثيرون من علماء التربيةِ للطعن فيها؛ حتى إن كثيرًا منهم سمَّاها: «التربية الوحشية»؛ غير أننا نريد البحث في أنه هل من حاجةٍ إليها في بعض الأوقات؟ وإذا كان الأمر كذٰلك فما هي تلك الأوقاتُ التي تُوقَعُ فيها؟».

ثم أجاب قائلًا: «أجمع علماءُ التربية على أن استعمال العقوباتِ البدنيةِ ضروريٌّ في بعض الأحوال، أي: فيما إذا ارتكب التلميذُ ما يُنافي الآداب والسلوك الحسن، أما في مثل انتهاكِه حرمةَ قانونٍ من قوانينِ النظام المدرسي؛ فإنه يُكتفى بغير ذٰلك من أنواع العقوبات، ويَكفي في تقدير العقوبة حزمُ المؤدِّب وتبصُّرُه، ومن المعلوم أن تكرارَ العقوباتِ البدنيةِ يدعو إلى التنافر بين المعلِّم والمتعلِّم؛ مما لا يُرجى معه نجاحٌ ولا فلاح؛ لأن المتعلمَ متى انقَبضت نفسه عن معلِّمه انقبضت نفسُه عن كل شيءٍ يُلقيه إليه ذٰلك المعلِّم أو يسمعُه منه»(١).

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر فوائد قيمةً عن «الضرب» في كتاب: «ولاية التأديب الخاصة في الفقه الإسلامي»، لفضيلة الشيخ إبراهيم بن صالح التَّنَم (ص٤٦٧ : ٤٧٢ ـ ط: دار ابن الجوزي بالدمام)، وانظر ـ كذٰلك ـ كتاب: «مبدأ الرفق في التعامل مع المتعلِّمين»، للشيخ صالح البقعاوي ـ ط: دار ابن الجوزي ـ أيضًا ـ.



الباب الثالث

الآدابُ المَنْزليَّة



الباب الثالث
الآدابُ الْمَنْزِلِيَّة

وفيه مطالب:

١ ـ الأدبُ مع الوالدين

هو أن يَسمع كلامَهما، ويقومَ لقيامهما، ويمتثلَ أمرَهما، ولا يمشي أمامهما، ولا يرفعَ صوتَه فوق أصواتِهما، ويلبِّي دعوتَهما، ويحرصَ على مرضاتِهما، ويخفضَ لهما الجَناح، ويُحسِنَ إليهما جَهدَه، ويبرَّهُما ويكرمَهما في حالتي عُسرِه ويُسره.

ويتوخَّى مسرتَهما وترويحَ قلوبِهما، ولا يمُنَّ عليهما بالبِرِّ لهما، ولا بالقيام بأمرهما، ولا ينظرُ إليهما شَزْرًا[1]، ولا يُقطِّبُ وجهَه في وجوههما، ولا يسافرُ إلا بإذنِهما.

(١) الشَّزْر: نظر الغضبان بمؤخَّر العين.

٢ ـ الأدبُ مع الإخوَةِ منَ النسَب

١ ـ يَلزَمُ الفتى أن يتأدَّبَ معهم ويحترمَهم، ويعرفَ أنهم أقربُ الناس إليه بعد الأبوين، ويُحبَّ لهم النفعَ والشرفَ أكثر من جميعِ الناس.

٢ ـ فأما أخوهُ الأكبر، فإنه يجعلُه في منزلةِ أبيه، فلا يرفعُ صوتَه عليه، ولا ينازعُه، ولا يخالفُه في وصاياه الجميلة ليكسبَ حُبَّه، ويسعى في منافعه.

٣ ـ وأما الذين هم أصغرُ منه؛ فيواسيهم، ويُشفِقُ عليهم، ولا يضربُهم، ولا يَشتِمُهم، ويلاطفهم، ويستجلبُ صحبتَهم بحسن الأخلاق ولطفِ المعاملة، وإذا رأى منهم ما لا يليقُ فعليه أن ينهاهم باللطفِ والمعروف، ويُعرِّفَهم ضرره، ولا يسعى بهم عند أبيه بالفِتنة، فتكثُرَ الكراهةُ بينهم، ويألفون الشرَّ ويعتادونه بسببه، فيعودَ الوبالُ عليهم، وجَليٌّ أن إخوةَ المرء هم أعوانُه على سعادته وحُسنِ حاله.

ﮋﮊﮉﮈ

٣ ـ أدبُ الخَدَمَةِ[١] ومعاملتُهم

* يجبُ في الخادم:

١ ـ أن يكون صالحًا، عفيفًا، أمينًا، نشيطًا، ذكيًّا؛ فهو يقومُ بحقِّ اللَّه بأداءِ ما أوجبه، وحقِّ مَن يخدُمُه، فيَعِفُّ عن حَرَمِه، ويغضُّ مِن طَرْفه[٢]، ويحفظُ ما ائتُمن عليه من مالٍ وغيره.

٢ ـ ويَخِفُّ[٣] للقيام بما يُطلب منه بنشاطٍ واعتناء.

٣ ـ ويفطنُ لما ينبغي أن يُراد منه، فيَدري حُسنَه من قُبحه، وغِشَّه من نصحه، فيكون رجلَ حياةٍ وإنسانَ معيشة.

* وعلى سيدِ الخادم:

١ ـ أن يرشدَه لمواقع الصوابِ وأصولِ واجباته، وما ينبغي أن يتَّصف به.

٢ ـ ولا يكلِّفَه ما لا يطيق، ولا يشقَّ عليه.

---

(١) الخَدَمة ـ بفتح الخاء والدال ـ: جمع «خادم».

(٢) إنما يتحدثُ الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن البيوت التي يكـونُ الخـادمُ فيهـا غيرَ مختلِطٍ على الدوام ـ أو في غالب الأوقات ـ بنساءِ سيده، أما ما نراه من قبائحَ وفضائحَ في عصورنا النكِدة هٰذه؛ من استقدامِ خدمٍ أو سائقي سياراتٍ في أعنف سنواتِ الشباب، مع الاختلاط الدائم بنساءِ البيتِ ـ سواءٌ متبرجاتٍ أو متحجبات ـ ، فهٰذا مرفوضٌ شرعًا وعقلًا، ولا يقرُّه إلا ديُوثٌ لا يخافُ عذاب الآخرة، وكم تمخَّضت لنا الأيام عن حوادثِ زنًا وطوامَّ بين الخدَم والسائقين ونساءِ صاحب البيت من جرَّاء الاختلاط الشيطاني الذي تساهل فيه من لا يرجون للَّهِ وقارًا، فنعوذ باللَّهِ من فساد العقول. وأوصي كل مؤمن بالكتاب النفيس «الاختلاط بين الجنسين ـ أحكامه وآثاره»، للشيخين الفاضلين رياض ابن محمد المسيميري، ومحمد بن عبداللَّه الهبدان ـ طبع: دار ابن الجوزي بالدمَّام. وكذا كتاب «الاختلاط بين الرجال والنساء»، للشيخ سعيد بن وهف القحطاني، وأيضًا كتاب «الاختلاط»، للشيخ خالد بن عبداللَّه السبت.

(٣) يَخِفُّ: يُسارع.

٣ ـ وأن يربِّيَه باللطف والعقل، ولا يُهينُه ببذيء الكلام وجافي اللفظِ مما يجرحُ قلبه ويُذلُّ نفسه؛ إذ ليس للسيد أن يتسلَّطَ على خادمه بذٰلك ـ لا شرعًا ولا عُرفًا ـ.

٤ ـ ويجبُ على السيد أن يسمحَ للخادم بساعةٍ في النهار يتروَّحُ فيها، ويتمتعُ بشؤونه[1].

٥ ـ وأن يُجري عليه مرتبًا يكفيه؛ ليكُفَّه عن التشوُّف لِما قد يسرقُه ويختلسُه؛ فإن ما يُنقصُه السيدُ من مرتبه ربما اختُلس من ماله.

٦ ـ وأن يزيدَ في راتبه كلما رآه يزيدُ في صِدق الخدمة وحُسنِ المعاملة.

٧ ـ ولا ينبغي للسيد أن يُسرعَ في تبديل الخادم بمجرد هفوةٍ أو حصولِ صغيرة، ولْيتذكر ألَّا معصومَ إلا المعصومُ [ﷺ]؛ فإن في تبديلِه مضارَّ عظيمةً، وأتعابًا جسيمة، نعم؛ إذا عَلم أن فيه خَلَّةً فاسدةً أو مَلَكةً رديئةً[2] أو إصرارًا على فحشاء؛ فإنه يطردُه عن بابه، ويُباعدُه من رحابه.

٨ ـ وعلى الأبناءِ أن يحتفظوا بخادم أبيهم ـ أو جدِّهم ـ ، وأن يحترموه لتقادُم خدمته لهم وتربيتِه لهم صغارًا، وأن يراعوا حقَّه وحقَّ آلِهِ وأولاده اعترافًا بالجميل.

٩ ـ ومِن الحُمق وقلةِ العقل طردُ الخادم الذي تقادَم عهده واطَّلع على دخائلِ سيده[3] وأسرارِ حَرمه بلا باعثٍ كبير[4]، أو إبعادُ خادمِ أبيه وقد عُرف شدةُ اتصاله به؛ فإن هٰذا من لُؤم الطبع وكفرانِ العِشرة وقِلةِ المروءة.

وبالجملة: فكلُّ مَن أراد أن يهنأ بالُه مع خادمِه؛ فلْيُحسن معاملته، ولْيُنزِله

---

(١) وإنما يسمح له سيدُه بالترويح الحلال، ويمنعه من الترويح المحرَّم.

(٢) الخَلَّة: الصفة. المَلكة: الطبيعة.

(٣) الدخائل: الخفايا.

(٤) أي: من الحُمق طرد مثل هٰذا الخادم بلا ذنبٍ كبير يستحق به الطرد.

منزلةَ أحد عائلته، ولْيَبَرَّهُ فوقَ ما يأمل، ولا ينلْ منه بما يجرحُ قلبه، ولْيرفُقْ به في سِرِّه وعَلَنه، ولْيغضَّ عما يجوزُ الغضُّ عنه(١)، ولْيَرحمْ تَعبَه، ولا يؤرِّقْه لحاجته إذا أخذ مَضجَعه؛ بل يُشفق على راحته.

ويُحكى عن بعض خيار الأمراء أنه كان يَحملُ فَرْشَ ضيوفه على رأسه ليلًا إلى حال نومهم، ولا يوقظُ خادمَه لحملِه شفقةً منه ورحمةً.

و«**الراحِمون يرحَمُهمُ الرَّحْمٰنُ تبارك وتعالى**»(٢).

ജ ജ ♥ ♥

(١) أي: مما تعودُ ثمرته على الخادم نفسه ـ لا على أهل البيتِ بالإفساد ـ ؛ كعدم الاهتمام بثيابه أو تكاسلِه عن بعض الأمور ـ ونحو ذٰلك ـ ، ولا ينافي هٰذا أهميةَ نُصحه وتوجيهه والمحاولةَ الدائبةَ لإصلاحه؛ فإنه قد يقسُو على خادمٍ أمين إذا طرده، وقد لا يجد مثله.

(٢) صحيح: رواه أحمد (٢/ ١٦٠)، وأبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤)، وقال: «حسن صحيح»، وصحَّحه الشيخ الألباني، والشيخ شعيب الأرنؤوط.

٤ ـ الأدبُ في الزواج، والسِّنُّ المُدَّعى فيه[١]

الزواجُ قانونٌ حيويٌّ عامٌّ لجميع السلسلةِ الحيوانية، وهو ضروريٌّ لحفظ النوعِ الإنساني وتقدُّمِه، ولم يجتمعْ في شيءٍ ما اجتمع في الزواج مِن دواعي الشرع والعقل والطبع.

فأما دواعي الشرع: فقد نصَّ عليه الكتابُ والسُّنةُ والإجماع.

وأما العقل: فإن كلَّ عاقلٍ يُحبُّ أن يَبقى اسمُه ويُخلَّدَ ذِكرُه، ولا يتأتَّى ذٰلك إلا بالذرِّية.

وأما الطبع: فإنه يدعو إلى تحقيق ما أُعِدَّ له من المباضعة[٢].

وإذا كان الزواجُ ضروريًّا لحفظ النوعِ الإنساني وبقائه، فلا يخلو ـ كذٰلك ـ من فوائدَ عظيمةٍ للشخص المفرد؛ وذٰلك أنه يُبعده عن ارتكاب الجرائم، والتلوُّثِ بأدران الدنايا والخسائس.

والمرأةُ أحوجُ [للزواج] من الرجل؛ لأنه صونٌ لها، وأعونُ على صحَّتها في الحال والاستقبال، ولا خوفَ عليها من أخطارِ الأمومة ما دامت الفوائدُ الصحيةُ متَّبعةً كل الاتباع.

ولمَّا كان أهمَّ أغراض الزواج هو التناسلُ للحصول على الذرية لبقاءِ النوع الإنساني وتقدمه، فمِن البديهي أن يبتدئ الزواجُ من السن الذي يشعرُ فيه الإنسان بالحاجة التناسلية، وأن يكون سنُّ الزواج للمرأةِ ليس أقلَّ من (١٤) سنة، ولٰكن لا يجب تأخيرُه عن ذٰلك كثيرًا.

وإنْ تقدَّمَ الزواجُ عن ذٰلك كان عديمَ الفائدة، ومُضرًّا ـ أحيانًا ـ للمرأة ولأولادها لجملةِ أمور:

---

(١) من كتاب «صحة المرأة». (القاسمي).

(٢) المباضعة: الجماع.

منهـا: أن الأعضاءَ التناسلية لم تكن قد بَلغت حدَّها النهائيَّ في النمو.

ومنها: أن البناتِ المتزوِّجاتِ صغيراتِ السن ـ عن الحدِّ الذي قررناه ـ يكون زواجُهنَّ في الغالب أقلَّ إخصابًا ـ أي أقلَّ نسلًا ـ ، وأولادُهن تكون حياتُهم قليلةً عن غيرهم.

ومنها: أن المبكِّراتِ في الزواج لا يتوفَّرُ فيهن الشروطُ الجِسميةُ والعقليةُ اللازمةُ للزوج والأمومة، وكلَّما تأخـر زواجُهـن اكتَسَبْـن تجاربَ تؤهِّلهنَّ للزواج.

ومنها: أن النساءَ المتزوِّجاتِ وهنَّ صغيرات نسبةُ الوفَياتِ فيهنَّ أكثرُ منها في المتزوِّجات في السن المعتدل.

ومنها: أن صِغرَ الأم في العمرِ ينشأ عنه ضعفٌ في الطفل، وخصوصًا في الولد البِكري.

وإذا تأخَّر الزواجُ إلى ما بعد الخامسةِ والعشرين أو الثلاثين يكون الحَملُ والولادةُ ـ في الغالب ـ أكثرَ تعبًا على المرأة؛ لأن الأعضاءَ تكون قد انتهت من النمو، وثبتتْ في أوضاعها، وصار أيُّ تغيُّرٍ في أوضاعها متعذِّرًا، ولا يخلو من خطر، والولادةُ عندهن غالبًا تكون عَسِرة.

وعلى العموم فإن الشبوبيةَ[1] والتقدُّمَ في السن كلاهما يُضعِفُ التغذية في النَّسل، وأولادُهنَّ يغلبُ فيهم الضعفُ ونقصُ القوة الحيوية[2].

ومن الضروري جدًّا أن يكون الزوجُ أكبرَ من الزوجة لجملةِ اعتبارات:

منهـا: أن الرجل ينمو ببطءٍ عن المرأة.

---

(١) يقصد صغر السِّنِّ عن الرابعة عشرة.

(٢) راجع ـ متفضِّلًا ـ ما كتبته عن هٰذا ـ مع بعض الأمور الأخرى الهامة ـ في كتابي: «عقبات الزواج وأخطارها الكبيرة في حياةِ الأمة المسلمة»، عقبة: «فارق السن بين الرجل والمرأة».

ومنها: أن المرأة تنتهي حياتُها التناسلية ـ سنُّ اليأس ـ قبلَ الرجل بكثير.

ومنها: أن الرجلَ لا يكونُ له السلطةُ التامةُ عليها إذا كان أصغرَ منها.

ومنها: أن الرجل إذا كان في سنِّ العشرين ـ مثلًا ـ يكون قد أسَّس له مركزًا معيشيًّا يسمحُ له بالزواج، والمرأةُ بعد اليأس لا تتزوج أصلًا؛ لإن الغرض من الزواج ـ وهو التناسل ـ مفقودٌ منها.

ﮊﮋﮌﮍ

٥ ـ أدبُ الْمَرأة الأيِّمِ[١] أو الْمُتزوِّجة

١ ـ عليها أن تلازمَ بيتَها، وألَّا تُكثِرَ من طلوعها[٢].

٢ ـ وألَّا ترتدي إلا بما له لونٌ واحد، وتجتنبَ المُزركشَ الكثيرَ الألوان.

٣ ـ وتجتنبَ شدَّ وسطِها وما يحاكي[٣] حَجمَ بدنِها.

٤ ـ وتجتهدُ في تغطيةِ وجهها بالحجاب[٤]، ولا تستعملِ الشفافَ.

٥ ـ وأن تحرصَ على الشُّغل والعملِ[٥] وما يُعينُ على دفع الفاقةِ والملل.

٦ ـ وأن تَحفظ بَعلَها في غَيبته وحضرته، وتطلبَ مسرَّتَه في جميع أمورها، ولا تخونُه في نفسها وماله.

٧ ـ ولا تخرجُ من البيت إلا بإذنه؛ وبِهيئةٍ لا تستلفتُ أبصارَ الناس إليها، ولا يُشمُّ منها رائحةٌ عطريَّة.

٨ ـ ولا تتعرَّفُ إلى صديق بعلِها في حاجاتِها؛ بل تتنكَّرُ على مَن يظنُّ أنه

---

(١) الأيِّم: التي تزوجت من قبلُ، سواء مات عنها زوجها أو طُلِّقت.

(٢) وأوصي برسالة فضيلة الشيخ محمد بن عبدالله الهبدان: «وقرنَ في بيوتِكنَّ».

(٣) يُحاكي: يبيِّن ويفصِّل.

(٤) لا يزال عقلاء الأمم التي تُبيح رفع الحجاب، تئنُّ من كشف النقاب؛ إذ دلَّتها المثُلات أن ذلك مجلبةٌ لما لا يُحصى من المُخزيات والمنكرات، وقد أرشدتْها الحوادث المتكررة بقوارع تتفتَّتُ منها الأكباد، وتذوب الإحساسات حسرات. قصَّ بليغٌ حادثةً مؤثرة منها، ثم قال في أثرها: فيا أيتها الغادةُ المستترةُ بحجاب الأدب، حَيِّي الجدران التي تحرسُك، وقبِّلي القناعَ الذي يحفظُ وجهك من ألحاظ الغَدرِ وسِحرِ النواظر القاتلة، سلامٌ على تلك القيود التي تربط شهامتك، سلامٌ على ذلك الحجاب الذي يرفعُ جمالك إلى أوج الواجب، ويا ليت تلك القيود وذلك الحجابَ يعمَّانِ الأرض بأسرها، إذ يعرف الناس ماهية الشعائر ومحور مدارِ الكائنات. (القاسمي).

(٥) أي: في بيتها.

يعرفُها أو تعرفُه.

٩ ـ وأن يكون همُّها صلاحَ شأنِها، وتدبيرَ بيتها، مقبلةً على مهماتِها وعباداتِها.

١٠ ـ وألَّا تكثرَ الكلامَ مع أجنبيٍّ من وراء حجاب[١].

١١ ـ وأن تُقصِّرَ لسانَها عن مراجعةِ الزوج وأهلِه[٢].

١٢ ـ وإذا مات زوجُها فلا يجوز لها أن تُحِدَّ عليه[٣] أكثرَ من أربعةِ أشهر وعشر، وتجتنب الطِّيبَ والزينةَ فيهن والتعرُّضَ للزواج.

(١) أي: حتى من وراءِ النقاب ـ أو الجِدار ـ لا تُكثر من الكلام مع غير المحارم، ولابدَّ أن ننتبهَ إلى أن غيرَ المحارم يشملُ أقاربَ الزوج ـ إخوته وغيرهم ـ كما هو معلومٌ في الشرع المطهر؛ بخلافِ ما رأيناه من التساهل مع أشقاءِ الزوج ـ خاصةً ـ ؛ فلقد ترتَّب على هٰذا من المفاسد ما هو معلومٌ لدى الكثيرين، وما خفي كان أدهى وأطم.

(٢) وهٰذا أدبٌ عظيم على النساء العاقلات أن يداومنَ عليه، لٰكنْ من باب الإنصاف نقول: لابد لأهل الزوج ـ وخاصةً أمِّه ـ أن يتعاملوا مع زوجةِ ابنهم معاملةً طيبةً، ويعاشرُوها بالمعروف، فهي أمانةٌ عندهم من ناحية، وليست خادمةً تحت تصرُّفهم يعاملونها كيفما يشتهون، وأيُّ خللٍ يحدُثُ من أحدِ الطرفين ـ الزوجة أو أهل الزوج ـ في المعاملة؛ فلابدَّ أن تقع بينهم المشاكل والمتاعب التي لا تنتهي.

(٣) أحدَّت المرأة: امتنعت عن الزينة والخضاب بعد وفاة زوجها، فهي مُحِدٌّ، وكذا حَدَّت تَحُد ـ بضم الحاء وكسرها ـ حِدادًا ـ بالكسر ـ فهي حادٌّ، ولم يَعرف الأصمعي إلا الرباعي ـ أي: أحدت ـ . اهـ «مختار». (القاسمي).

٦ ـ أدبُ مُعاشَرةِ الزَّوْجة

١ ـ يَلزَمُ حُسنُ الخلقِ معها، واحتمالُ الأذى منها، وكفُّ الضرر عنها، والحِلمُ عند طَيشها وغضبها، والمداعبةُ تطييبًا لقلبها.

٢ ـ وألَّا ينبسطَ في الموافقة باتباع هواها إلى حدٍّ يُفسِدُ خُلقَها، وتُسقِط هيبتُه عندها، فلا يدعُ الانقباض ما رأى منكرًا، ولا يفتحُ بابَ المساعدةِ ما رأى محظورًا(١).

٣ ـ وأن يعتدلَ في الغَيرة؛ فلا يتغافلُ عما تُخشى عواقبُه(٢)، ولا يبالغُ في إساءةِ الظن والتعنُّتِ وتجسُّس البواطن(٣).

٤ ـ وأن يعتدلَ في النفقة؛ فلا يُسرف ولا يُقتِّر، ولا يُتبعُه مِنَّةً ولا أذًى.

٥ ـ وأن يأمرَها بالتصدق ببقايا الطعام، وما يَفسُد لو تُرِك.

٦ ـ ولا يستأثرُ عنها بمأكولٍ طيب، فإنه شُحٌّ موغِرٌ للصدور.

٧ ـ ولا يخبرُها بقَدْر ماله.

٨ ـ ولا يستكتِمُها سرًّا يخافُ إذاعتَه(٤).

٩ ـ وأن يتعلمَ من علم المحيضِ وأحكامه ما يحترزُ به الاحتراز الواجب.

---

(١) أي: لا يتهاون إذا رأى من زوجته معصيةً اتباعًا لهواها، فإن التهاون بين الزوجين في مثل ذٰلك مما يُعجِّلُ بفساد البيوت؛ نسأله تعالى السلامة والعافية لنا ولأحبابِنا.

(٢) فالمرأةُ عند زوجها أمانةٌ؛ لا يحلُّ له أن يتلاعَبَ بها، أو يفرِّطَ فيها.

(٣) وهٰذا مع مَن لم يظهر منها إلا العفة والأدب والصيانة.

(٤) هٰذا إذا عَلم عن زوجته أنها لا تكتُمُ سرًّا ولا تستر أمرًا؛ أما من كانت أمينةً صيِّنةً، فهي خيرُ مستودَعٍ لأسراره. وحقيقةً ـ أيها الأحبة ـ فإنه عذابٌ لازمٌ أن تكون المرأة هتَّاكةً للأسرار خرَّاقةً للأستار؛ فإنها حينئذٍ ـ فوق فِسقِها وخيانتها ـ تعيِّشُ زوجها في نكدٍ دائم، وهمٍّ لازم، وحسراتٍ لا تنقضي، نسأله تعالى السلامة.

١٠ ـ وأن يُعلِّمَها من العبادات والآداب ما لا يُستغنى عن معرفته.

١١ ـ وألَّا يكلِّفَها من خدمته فوق طاقتِها.

١٢ ـ ومَن عنده أكثرُ من زوجةٍ واحدةٍ فعليه العدلُ بالسَّوية، ومجانبةُ الميل إلى بعضِهن(١)، وإذا أراد سفرًا أقرَعَ بينهن.

١٣ ـ ولْيَحذرِ الفقيرُ من الجَمْع بين زوجاتٍ وهو لا يستطيعُ الإنفاق عليهن(٢)؛ إذ لا يزال معهنَّ في نزاعٍ على النفقات وسائرِ الحقوق الزوجية، وقد لا يطلِّقُهنَّ ـ ولا واحدةً منهن ـ ، فلا يزالُ الفسادُ يتغلغلُ فيهنَّ وفي أولادهن، ولا يمكنُ له ـ ولا لهنَّ ـ أن يقيموا حدودَ اللَّه(٣)، وضررُ ذٰلك بالدِّين والأمَّة غيرُ خافٍ على أحد.

٨٠٨٠٣٨٣

---

(١) يقصد الميلَ المقدور عليه؛ كالعدل في الإنفاقِ، والبياتِ ونحو ذٰلك؛ أما الميلُ غير المقدور عليه، فلا لومَ على العبد فيه؛ كأن يحبَّ زوجةً أكثرَ من غيرها، أو يكثرَ من الجماع عندها دون الأخرى؛ فإن هٰذا مما لا حرجَ على العبد فيه، وهو المقصود بقوله ﷻ: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾ [النساء: ١٢٩]، فمفهوم الآية أن اللَّه تعالى عفا عن «بعض» الميل ـ وهو الخارجُ عن إرادة العبد كما أشرنا ـ ، لأن مَن مال «كلَّ» الميل تركَ الزوجة الأخرى كالمعلَّقة التي لا زوجَ لها، وهٰذا حرامٌ بلا ريب، ومفاسده لا تخفى.

(٢) ما أحسنَ ما جاء في «الإقناع» وشرحه ـ من كتب الحنابلة ـ من قوله: «ويستحبُّ ألَّا يزيدَ على واحدة ـ إن حَصَل بها الإعفاف ـ لما فيه من التعرُّض للمحرم، قال تعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ [النساء: ١٢٩] اهـ جزء (٣/ ص٤)». (القاسمي).
قلت: يقصد بـ«المحرَّم»: عدم العدل المقدور ـ الاختياري ـ بين الزوجات.

(٣) وهي المعاشرة بالمعروف، التي ذكرها اللَّهُ تعالى بقوله الحق ـ في الزوجين اللذين أرادا الرجوع بعد طلاق الثلاث وزواج المرأة من آخر ثم طلاقها منه ـ : ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾ [البقرة]. فالأصلُ هو إقامة دين الربِّ تبارك وتعالى، والوقوف عند حدوده ﷻ، وإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه، وهٰذا هو البيت الذي يباركُ فيه وعليه رب العالمين.

٧ ـ أدبُ الفتاة

١ ـ يلزم وليَّها أن يعلِّمها الكتابَ العزيز بحُسنِ أداء، ثم ما يصحِّحُ عقيدتَها وعبادتَها من أصول العقائد والفقهِ، ثم ما وَجب عليها لوالديها وأولادها وبَعلِها[١]، وما أُبيح لها وما حُظر عليها، وما تُضطرُّ إليه من إدارةِ نفسها وبيتها وبَنيها؛ كالخياطة، وترتيب المنزل، وإدارةِ صحة بنِيها وآدابِهم، وصلاح المأكل والملبس، وأصولِ الاقتصاد، ومكارم الأخلاق... وما أشبهَ ذٰلك مما يجعلُها قرَّةَ عينِ الكمال.

○ ولقد صدق القائل: «إن الفتاة المتعلمةَ[٢] المهذَّبةَ فخرٌ لأهلها، وعونٌ لبعلها، وكمالٌ لبَنِيها؛ أهلُها بها يفتخِرون، وأولادُها بها يَسعَدون، ومَن ذا الذي لا يُسَرُّ فؤادُه بابنته الأديبةِ التي تدبِّرُ الأمور المَعاشيَّة بالمعرفة، وتديرُ الحركةَ المنزليةَ بالحِكمة، ويجدُ في مجالستها أنيسًا عاقلًا، وسميرًا كاملًا؟!».

٢ ـ وعلى وليِّها أن يزوِّجَها من الأكْفاءِ الأخيار؛ ذَوِي الدينِ والمروءة؛ الذين يَتوسَّمُ فيهم إسعادَ زوجاتِهم[٣].

○ وما ألطفَ قولَ الخُوارزمي: «حَقُّ كافلِ الكريمة[٤] ألَّا يزوِّجَها حتى يستكرمَ صِهرًا[٥]، أو يُحكِمَ مَهرًا».

❊❊❊

(١) البَعل: السيد، والمقصود: الزوج.

(٢) أي: المتعلمة أمور دينها قبل كلِّ شيء.

(٣) وإسعادُ الزوجة يكون بإبعادها عن مساخِطِ ربِّها، ومعاملتها بالحسنى والخُلق الجميل، وليس إسعاد الزوجة قاصرًا على إغراقها بالأموال، أو مَلء البيتِ بفاخِر الأثاث، أو النزولِ على جَميع رغباتِها ـ ولو كانت تغضب رب العالمين ـ. وراجع ـ متكرِّمًا ـ كتابي «عقبات الزواج»، مقدمة «بماذا تُعتبر الكفاءةُ في النكاح؟».

(٤) الكريمة: الفتاة أو المرأة.

(٥) أي: يختاره كريمًا ديِّنًا.

٨ ـ أدبُ الأطفال

أجمَعَ الباحثون في أحوالِ العُمران ونواميسِ[١] المَدَنيَّة: على أن التربية والتعليمَ[٢] هما الوسيلةُ الوحيدة، والواسطةُ العظمى في ارتقاء الأمم على مِنصَّاتِ الحضارة، وبلوغِها ما تطمحُ إليه من الآمال الكبار، لذٰلك كان من أهمِّ واجبات الأمةِ ـ التي تجعل بلوغَ مثل هٰذه الأمنية نُصبَ عينيها ـ : أن تَكِلَ أمرَ تربيةِ أبنائها وتعليمهم إلى رجالِ الدين الذين يَطبَعون في فطرةِ الناشئ أصولَ الفضائل وآدابَ الشريعة، ويلقِّنونه دروسَ الحياة ويُرَقُّون عواطفه، ويربُّون شعوره.

فإذا فارقتِ الآباءَ هٰذه المبادئُ، فوَسَّدتِ الأمرَ إلى غير أهله، وأَسندت وظائفَ التعليم إلى غير أكْفائِه مِن أعداء دينِها؛ فلا تلبثُ أن يُلِمَّ بمِزاج مجموعها ما يُضعِفه وينمِّي جراثيمَ الداء فيه، فتَظهرُ أعراضُه عليه، فتصبحُ في حضيض خسران الدنيا والآخرة[٣].

فالتربيةُ الدينيةُ هي أُسُّ الفضائل، ورُوحُ الاجتماع الحيوي.

---

(١) النواميس: الأنظمة.

(٢) يعني ـ كما سيبيِّن قريبًا ـ التربيةَ والتعليم القائمين على أسس الإسلام وقواعدِ الشريعة المطهرة، وليست التربية والتعليم القائمةَ على العلمانيةِ الظالمة المظلمة وغيرها من الأنظمة الخبيثة التي دمَّرت أجيال المسلمين.

(٣) وهٰذا من أروع الكلام في أصول التربية والتعليم؛ فرحِمه اللَّهُ رحمةً واسعة.

٩ ـ الاهتمامُ بتربيةِ الطفل المَنزِليَّة

إذا لَحِظَ المرءُ ما ينجُم من التربية المنزلية يجدُ أنه كما يكون الأهلُ يكون الطفلُ في الغالب[(١)]، فإن كانوا ذَوِي نِظامٍ وطباعٍ كريمةٍ شبَّ الطفلُ كذٰلك؛ لِما عُلم من أنه ميالٌ للتقليد والمحاكاة، وإن كانوا جهلاءَ أغبياءَ وذَوِي خُمولٍ أو ضعفٍ في العزيمة؛ شبَّ الطفلُ على ذٰلك[(٢)].

فمِن هٰذا يُعلم أن تربيةَ البيت إما أن تكونَ عضُدًا وساعدًا للمعلِّم في المدارس، وإما أن تكون عقبةً كؤودًا[(٣)] في سَير التربيةِ المدرسية[(٤)].

ﮊﮋﮌﮍ

---

(١) أي: ينشأ الطفل على طبائع أهله.

(٢) يُحاكي: يبيِّن ويفصِّل.

(٣) ومن ألطف ما قيل في هٰذا قول القائل:

مشى الطاووسُ يومًا باعوجاجٍ ... فقلَّدَ شكلَ مِشيتِهِ بنوهُ

فقال: علامَ تختالون؟ قالوا: ... بدأتَ به ونحنُ مقلِّدوهُ

فخالِف سَيْرَكَ المُعوَجَّ واعدِلْ ... فإنا إن عدلتَ معدِّلوهُ

أما تدري أبانا! كلُّ فرعٍ ... يُحاكي بالخُطى مَن أدَّبوهُ

وينشأُ ناشئُ الفتيانِ منَّا ... على ما كان عوَّدَه أبوهُ

(٤) والآنَ زاد الطينَ بِلَّة والمرضَ عِلَّة ما تكاتفت عليه المدارسُ والبيوتُ ـ جميعًا ـ من تخريبِ قلوب وعقولِ أولادنا ـ إلا من رحم ربيِّ ـ؛ فلطفًا بنا ـ يا أرحم الراحمين ـ!.

١٠ ـ تَدارُكُ مَن يُراد تربيتُه قبل تأثير الوِراثةِ فيه[١]

تقرَّر في سُنةِ البشر أن الفروعَ كما تَرِثُ من أصولها جانبًا منَ الصفات الجُسمانية؛ كذٰلك ترثُ منها كثيـرًا مـن الطبـائع الخُلُقية؛ فلقد تجدُ أولادَ الرجلِ الأبلهِ[٢] كأبيهم، وأبناءَ العاقل الداهيةِ كذٰلك.

ولا حاجةَ إلى إيراد البراهين على ذٰلك؛ لأنه يكفي في إثباتِه أدنى التفاتٍ إلى دراسةِ أصول العالَم الذي نحنُ بين ظَهرانيه.

نعم؛ قد لا يطَّردُ ذٰلك كليًّا[٣] ـ لأن لكل قاعدة شذوذًا ـ ؛ إلا أن القصدَ التنبيهُ على أنه ـ وإن كـان في الحَـدَث[٤] طبـاعٌ موروثـة ـ ؛ إلا أن المربِّي الحكيمَ يمكنُه أن يُهذِّبَ منها ما فَسد، ويُقوِّمَ ما اعوَجَّ ـ وإنِ احتاج إلى عناءٍ زائد وجهدٍ كبير ـ على شريطةِ أن يتدارك ذٰلك قبل أن تتمكَّنَ تلك الوراثةُ الفاسدةُ وتَصيرَ مَلَكةً[٥]، ولذا قلَّما تفيدُ التربيةُ في الكبير[٦].

---

(١) يعني: إذا كانت الوراثة فاسدة.

(٢) الأبله: الأحمق.

(٣) الاطراد: ثبات القاعدة.

(٤) الحدَث: الطفل الصغير.

(٥) المَلَكة: الطبيعة الراسخة.

(٦) ولذا قال القائل:

إنَّ الغـصونَ إذا قوَّمـتَها اعـتدلتْ ... ولـيسَ يلـينُ إذا قوَّمْـتَهُ الخـشبُ

قـد ينفعُ الأدبُ الصغيرَ على مَهَلٍ ... ولـيس يَنفعُ في ذي الشيبةِ الأدبُ

١١ ـ العنايةُ بتأديب الصغير

○ قالت الحكماء: «ينبغي أن يأخذَ الولدُ الأدبَ من صِغَره؛ فإن الصغير أسلسُ قيادًا وأسرع مؤاتاةً[١]، ولم تَغلب عليه عادةٌ تمنعُه من اتباع ما يُراد منه، ولا له عزيمةٌ تصرفُه عما يؤمرُ به؛ فهو إذا اعتاد الشيءَ ونشأ عليه ـ خيرًا كان أو شرًّا ـ لم يكد ينتقلُ عنه؛ فإن عُوِّد من صباه المذاهبَ الجميلةَ والأفعالَ المحمودة بقي عليها، ويزيدُ فيها إذا فهمها، وإن أُهمل حتى يعتادَ ما تميلُ إليه طبيعتُه ـ مما أُغلَّ عليها[٢] ـ، أو عُود أشياءَ رديئةً مما ليس في طبيعته، ثم أُخذ بالأدب بعد غلبةِ تلك الأمور عليه؛ عسُر انتقالُه مع الذي يؤذيه، ولم يكد يفارقُ ما جرى عليه؛ فإن أكثرَ الناس إنما يؤتَون في سوء مذاهبهم[٣] مِن عادات الصِّبا.

ﮋﮊﮉﮈ

(١) المؤاتاة: الطاعة والموافقة.

(٢) كذا في المطبوعات، ولعل المراد: أُغلقت عليها نفسُه بسبب اعتياده لها.

(٣) المذاهب: الأفكار والمعتقدات.

١٢ ـ آدابٌ عامَّةٌ للصغير

○ قال الحكيمُ المستعصِمي:

١ ـ يُجتنبُ النومَ الكثير؛ فإنه يقبِّحُه، ويُغلِظُ ذهنَه، ويُميتُ خاطرَه.

٢ ـ يُمنع من الفراشِ الوطيء[١] وجميعِ أنواع الترفُّه[٢]؛ حتى يصلُبَ بدنُه بتعوُّدِ الخُشونة.

٣ ـ يُمنع من اعتياد الأمكنة الباردة صيفًا، ومن النيرانِ شتاءً[٣].

٤ ـ لا يُسرع المشي.

٥ ـ لا يَتثاءب بحضرةِ غيره.

٦ ـ لا يضعُ رِجلًا على رِجل.

٧ ـ لا يضربُ تحت ذقنِه بساعده، ولا يعتمدُ رأسَه بيده[٤]؛ فإنه دليلُ الكسل وأنه قد بلغ به التقبيحُ إلى ألَّا يحملَ رأسَه حتى يستعينَ بيده[٥].

٨ ـ يُعوَّد ألَّا يكذب، ولا يحلفُ لا صادقًا ولا كاذبًا[٦].

٩ ـ يُعوَّد الصمتَ وقلةَ الكلام، وألَّا يتكلم إلَّا جوابًا، وإذا حَضر مَن هو أكبرُ منه اشتغل بالاستماع منه والصمتِ له.

١٠ ـ يُمنع من خبيثِ الكلام وهَجينِه[٧]، ومن السبِّ واللعن، ولغوِ

---

(١) الوطِيء: الوثير الفاخر.

(٢) الترَفه: التنعُّم.

(٣) حتى لا تُضرَّ بصحته، واللَّهُ أعلم.

(٤) أي: لا يُسندها على يده.

(٥) في هٰذا الأمر مبالغةٌ لا تخفَى، واللَّهُ أعلم.

(٦) هٰذا من باب صيانة اليمين للأطفال حسنٌ؛ لٰكن للكبار، فيُستحبُّ الحلفُ باللَّهِ لمن تيقَّن مِن صِدقِ نفسه ـ على الراجح من أقوال أهل العلم ـ، واللَّهُ تعالى أعلم.

(٧) الهجين: القبيح.

الكلام[١].

١١ ـ يُعوَّد حَسَنَ الكلام وظريفَه، وجميلَ اللقاءِ وكريمَه.

١٢ ـ يُعوَّد خِدمةَ نفسِه ومعلِّمِه ومَن هو أكبرُ منه.

١٣ ـ يُعوَّد طاعةَ والديه ومعلِّميه ومؤدِّبيه، وأن ينظرَ إليهم بعين الجلالة والتعظيم ويَهابُهم.

١٤ ـ يُعوَّد ضبطَ النفس عما تدعو إليه من اللذاتِ القبيحةِ والفكرِ فيها.

---

(١) اللغو: الكلام الفارغ.

١٣ ـ غرسُ الحبِّ، ورفعُ الأحقاد، والاعتمادُ على النفس، وتعلُّمُ اللغات[١]

○ قال حكيمٌ: «إني لأُكثرُ التعجُّبَ ممَّن يُعلِّمُ أولاده ذِكرَ الحروب والضغائن، ومَن انتقم ووَثَب على صاحبه! ولا يخطرُ ببالهم أمورُ المودةِ وأحاديثُ الألفة وما يحصلُ من الخيرات العامةِ لجميع الناس بالمحبة والأُنس، وأنه لا يستطيعُ أحدٌ من الناس أن يعيشَ بغير المودة ـ وإن مالت إليه الدنيا بجميع رغائبها ـ».

○ وقال بعضُهم: «خليقٌ[٢] بالآباء ـ وإن كانوا في غِنًى أو جاهٍ ـ أن يُربُّوا أولادهم على مبدإِ الاعتماد على النفسِ والاستقلال؛ بأن يستعدَّ في حياةِ والديه للعمل؛ لأن الحياةَ لا تقومُ إلا بالحركةِ والسعي والعمل والتدبيرِ وحسنِ السلوك لإصابة العلم والرزقِ والراحةِ والجاه. والسعيُ لحفظِ ثروةٍ يَحتاطُ بها من الفقر من أهمِّ ما يصلُ بها إلى مطالب الحياة بِهناء؛ فإنَّ المستقبل صفوةُ الحياة».

ومتى نما فيهم هٰذا المبدأُ المذكور، رفضوا المعيشةَ الاتكاليةَ على الآباء ـ التي هي أليفةُ الخمول والصَّغار[٣] ـ، وأصبحوا يَجِدُّون في المساعي التي تُوسِّدُهم على فراش الهناء، وما اللذةُ إلا بعد التعب.

وعلى الآباء ـ أيضًا ـ أن يعلِّموهم من اللغات ما استطاعوا إليه سبيلًا؛ فإنه يقال: «كلُّ لسانٍ إنسان»، ومَن عَرف لُغتين فهو بمنزلةِ شخصين؛ لا سيما في

(١) هناك ضوابط مهمة جدًّا حول تعليم اللغات ـ خاصةً للصغار ـ، تراها في كتابي: «منزلة اللسان العربي، ودوره الهام في سيادة الأمة»، فراجعه ـ متفضِّلًا ـ.

(٢) خليق: جدير.

(٣) الصَّغار ـ بفتح الصاد ـ: الذُّل.

هٰذا العصر الذي اتَّسع فيها مجالُ المعاملة والعمل، وكثُر اختلاطُ الناس من أممٍ مختلفة.

❋ ❋ ❋



الباب الرابع

الآدابُ الاجتماعية



الباب الرابع
الآدابُ الاجتماعية

١ ـ أدبُ الصُّحبة

○ قال حكيمٌ: متى انتظمَتْ بينك وبين أحدٍ صحبةٌ، فعليك حقوقٌ وآداب يوجبُها عقد الصُّحبة، وهي:

١ ـ الإيثار بالمال؛ فإن لم يكن فبذلُ الفضل[١] من المال عند الحاجة.

٢ ـ والإعانةُ بالنفس في الحاجات على سبيل المبادرة؛ من غير إحواجٍ إلى التماس[٢].

٣ ـ وكتمانُ السر، وسَترُ العيوب، والسكوتُ عن تبليغ ما يسوء من مَذِمَّةِ الناس إياه، وإبلاغُ ما يسرُّه من ثناءِ الناس عليه.

٤ ـ وحسنُ الإصغاء عند الحديث، وتركُ المماراة فيه.

٥ ـ وأن يدعوَه بأحبِّ أسمائه إليه.

٦ ـ وأن يُثنيَ عليه بما يعرفُه من محاسنه.

٧ ـ وأن يشكرَه على صنيعه في وجهه.

٨ ـ وأن يذُبَّ[٣] عنه في غَيبتِه ـ إذا تُعرِّض لعرضه ـ كما يَذُبُّ عن نفسه.

٩ ـ وأن ينصحَه باللطف والتعريض ـ إذا احتاج إليه ـ .

١٠ ـ وأن يعفوَ عن زلَّته وهفوته؛ فلا يعتبَ عليه.

---

(١) الفضل: ما زاد عن الحاجات الضرورية.

(٢) أي: تساعده من نفسك؛ دون أن تضطرَّه إلى الطلبِ منك والإلحاحِ عليك.

(٣) يذُبُّ: يُدافع.

١١ ـ وأن يدعوَ له في خلوته في حياته وبعد مماته.

١٢ ـ وأن يُحسنَ الوفاء مع أهله وأقاربه بعد موته.

١٣ ـ وأن يؤثِرَ التخفيف عنه، فلا يكلِّفَه شيئًا من حاجته، ويروِّحَ قلبَه من مهماته.

١٤ ـ وأن يُظهر الفرحَ بما يُباح له من مسارِّه، والحزنَ بما ينالُه من مكارهه.

١٥ ـ وأن يُضمِرَ مثلَما يُظهر؛ فيكون صادقًا في وُدِّه سرًّا وعلانيةً.

١٦ ـ وأن يبدأه بالتحية عند إقباله.

١٧ ـ وأن يوسِّعَ له في المجلس، ويخرجَ له من مكانه، وأن يُشيِّعَه عند قيامه.

١٨ ـ وأن يصمتَ عند كلامه حتى يفرغَ من خطابه، وأن يتركَ المداخلةَ في كلامه(١).

١٩ ـ وأن يسكتَ عن القدح في أحبابه وأهلِه وولده، وعن قدحِ غيره فيه.

٢٠ ـ وألَّا يُخفي عليه ما يسمعُ من الثناء في حقه؛ فإن إخفاءَ ذٰلك من الحسد.

٢١ ـ وألَّا يسألَه ـ إذا رآه في طريق ـ عن مَصدرِه ومَورِده(٢)؛ فربما ثقُل عليه ذِكرُه، أو يحتاجُ إلى الكذب.

٢٢ ـ وأن يتجاهلَ عما يكرهُه منه، ويتغافلَ عن مناقشته(٣).

○ أوصى أحدُ الحكماء ابنه فقال: «يا بُني، إذا عَرضَتْ لك إلى صحبةِ الرجال حاجةٌ، فاصحَبْ مَن إذا خَدَمْتَه صانَك، وإن صحِبتَه زانك، وإن قعدتْ

---

(١) أي: لا يقاطعه أثناء كلامه.

(٢) أي: لا يسأله من أين جاء، ولا أين يذهب.

(٣) أي: إذا رأى منه شيئًا لا يحبُّه ـ لٰكنه لا يُنزل جاهَه عند الخلق ـ، فليتجاوزْ عنه، ولا يبيِّنْه له؛ حتى لا تقعَ بينهما الوحشَة.

بك مؤونةٌ مانَك[١].

اصحَبْ مَن إذا مددتَ يدَك بخيرٍ مدَّها، وإن رأى منك حسنةً عدَّها، وإن رأى منك سيئةً سدَّها.

اصحَبْ مَن إذا سألتَه أعطاك، وإن سكتَّ ابتداك[٢]، وإن نزلتْ بك نازلةٌ واساك.

اصحَبْ مَن إذا قلتَ صدَّق قولَك، وإن حاولتَ أمرًا أمَّرَك[٣]، وإن تنازعتما آثرك[٤]».

---

(١) المؤونة: الحاجة. أي: وإذا نزلت بك حاجة بادر بقضائها.

(٢) أي: إن لم تطلب منه أعطاك دون سؤال؛ لشدة حبِّه لك.

(٣) أي: جعلك أميرًا عليه، ولم يترأس عليك، ويجوز: «أَمَرَك»، أي: حثَّك على مصالحك وشجعك عليها. واللَّهُ أعلم.

(٤) أي: إذا وقع بينكما أمرٌ تحتاجانِه جميعًا فضَّلك على نفسه، وقدَّم حاجتك على حاجته.

٢ ـ أدبُ الأصدقاء

١ ـ تُرفضُ صداقةُ من اشتُهـر بالبخل، ومَن اشتُهـر بالنَّميمـة والثَّلْب[١] والسَّفَه، ومَن عُرف بالكبرياء والخفَّةِ والطيشِ وعدمِ حِفظِ السِّر، أو اشتُهر بحُبِّ الهَذَرِ والهذيانِ والتهتُّكِ[٢] والخلاعةِ والكسل.

٢ ـ ولا يُقبل في التآخي مَن أصيب بخَللٍ في عقلِه، أو شذوذٍ في أفكاره؛ حتى لا تسقطَ درجةُ آداب الإخوان وعلومُهم، ولا يكونَ بين أفرادهم واحدٌ لا خيرَ للإنسانية والعمران منه.

○ قال حكيمٌ: «احذَرْ مؤاخاةَ من يجعلُك أكبرَ همِّه[٣]، ويؤثرُ ألَّا يَخفى عليه شيءٌ من أمرك؛ فإنه يَتبعُك ويأسِرُك[٤]».

○ قال الإمام الغزَّالي: «إذا طلبت رفيقًا ـ ليكـونَ شريكَـك في التعلُّم وصاحبَك في أمر دينِك ودنياك ـ ؛ فراعِ فيه الشروطَ التي يصلحُ بها للأخوَّة والصداقة، وهي خَمْس:

الأولى: العقلُ؛ فلا خيرَ في صُحبة الأحمق؛ فإلى الوحشةِ والقطيعة يرجعُ آخرُها، وأحسنُ أحواله أن يضرَّك وهو يريدُ أن ينفعَك، والعدوُّ العاقلُ خيرٌ من الصديق الأحمق الجاهل.

الثانية: حُسنُ الخُلق، فلا تصحبْ من ساء خُلقه، وهو مَن لا يملكُ نفسَه عند الغضب والشَّهوة.

---

(١) الثَّلْب: العيب.
(٢) الهَذَر والهَذَيان: الكلام الفارغ والساقط. التهتُّك: التمسخر وقلَّة الأدب.
(٣) أي: يترقبك في كل صغير وكبير، ولا يتركك وشأنك، واللَّهُ أعلم.
(٤) لا سيَّما إذا اطلع منك على عيبٍ أو زلل.

الثالثة: الصلاحُ؛ فلا تصحبْ فاسقًا؛ فإنَّ من لا يخافُ اللَّهَ لا تؤمن غوائله؛ بل يتغيرُ بتغيُّر الأعراض والأحوال، ومشاهدةُ الفِسق والمعصيةِ على الدوام تُزيل عن القلبِ كراهيةَ المعصية، وتُهَوِّن عليه أمرها[١].

الرابعة: لا تَصحب حريصًا؛ فصُحبة الحريص على الدنيا سمٌّ قاتل؛ لأن الطباعَ مجبولةٌ على التشبُّهِ والاقتداء؛ بل الطبعُ يَسرِقُ من الطبع من حيثُ لا يدري.

الخامسة: الصدقُ؛ فلا تصحَبْ كذابًا؛ فإنك منه على غُرور[٢]؛ فإنه مِثلُ السَّراب؛ يُقرِّبُ منك البعيد، ويُبعِدُ منك القريب» اهـ.

○ وقال بعضُهم: «المختارُون من الأصدقاء: أهلُ العلم والدين والحكمة والعقل؛ ليُفيدوه ويُقوُّوا قوةَ تمييزِه وعِلمِه، وأهلُ شرف يُستعانُ بجاههم في المُلمَّات[٣]، وأهلُ ثروةٍ يُستعان بهم في لَمِّ الشَّعَث، وأهلُ محادثةٍ طيبةٍ في خَلَواته يفزعُ لهم عند كَربه والضَّجرِ من أعماله.

وأما أصدقاءُ الظاهر[٤]، فينبغي مجاملتُهم، والإحسانُ إليهم، وكتمانُ الأسرار عنهم، وإخفاءُ الأحوال الخاصة عنهم، وتركُ تحديثهم بنِعَمِه».

○ وقال آخَر: «معاشرةُ الأصدقاء لا تتمُّ إلا بالمؤانسةِ والمداخَلة[٥]، ولابد ـ في ذٰلك ـ من المُزاح المستعذَب، والأحاديثِ المستطابة، والفكاهةِ

---

(١) للّهِ درُّه رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فإننا رأينا كثيرًا ـ ممن كان يريدُ الخير ـ ألقى بنفسِه بين أصدقاءِ السوء، وأبى مفارقتَهم ـ بالرغم من تحذير الناصحين له ـ ، فجرُّوه إلى كلِّ خزيٍ وندامة، وصَدق من قال:

مَن جالَس الجُرْبَ يومًا في أماكنِها ... وإن كان ذا صحَّـةٍ لا يأمـنُ الجَرَبا

(٢) أي: مُعرَّضٌ للاغترار بكذبه، والوقوع بسببه في المهالك.

(٣) المُلِمَّات: المحن والمصائب.

(٤) أي: عموم الناس.

(٥) المداخَلة: الدخولُ إلى أسرارِ الصديق، أو الدخولُ الكثيرُ على بعضهم البعض، أقصد: كثرة الزيارات. واللَّهُ أعلم.

المحبوبة التي تُطلقُهـا الشريعـة ويُقدِّرُهـا العقل[١]؛ حتى لا يتجـاوزَها إلى الإسراف فيها، ولا يُقصِّرَ عنها تهاونًا بها؛ فإنها إذا خرجت إلى جانبِ الزيادة سُميت «مُجونًا وفِسقًا وخلاعةً» ـ وما أشبهَها من أسماء الذم ـ، وإلى جانب النقصان سُميت «مذمًّا وعبوسًا وشكاسةً»، وما أشبهها من أسماء الذم ـ أيضًا ـ، والمتوسِّطُ بينهما هو الظريف الذي يوصفُ بالهشاشة والطلاقة وحُسنِ العِشرة، ويَعرض من الصعوبـةِ في وجـودِ هٰذا الوسط[٢] ما يَعرِضُ في سائر الفضائل الخُلُقية».

○ وقال حكيمٌ: «متى حصل لك صديقٌ يلزمُك أن تُكثر مراعاتِه، وتبالغَ في تفقُّده[٣]، ولا تستهينُ باليسيـر مـن حقِّـه عنـد مهمٍّ يَعرِضُ له أو حادثٍ يحدُث به، فأما في أوقات الرخاء فينبغي أن تلقاهُ بالوجهِ الطلْق والخُلق الرَّحْب، وأن تُظهر لـه ـ في عينيك وحركاتك وهشاشتك[٤] وارتياحك عند مشاهدته إياك ـ ما يزدادُ به كلَّ يوم وفي كل حالةٍ ثقةً بمودتك وسكونًا إلى غَيبك[٥]، ويرى السرورَ في جميعِ أعضائك ـ التي يَظهر السرور فيها ـ إذا لقيك، وإن أصابَتْه نكبةٌ، أو لحِقَته مصيبةٌ، أو عثَر به الدهر؛ [يرى] كيف تكون مواساتُك له بنفسك ومالك، وكيف يَظهرُ له تفقُّدُك ومراعاتُك، ولا تنتظرنَّ به أن يسألك تصريحًـا أو تعريضًـا؛ بل اطَّلِـعْ على قلبـه، واسبق إلى ما في نفسه[٦]، وشارِكْـه في مَضضِ ما لَحِقَـه[٧] ليخفَّ عنـه، وإن بلغتَ مرتبةً من السلطان[٨] والغنى، فاغمِسْ إخوانك فيهـا مـن غيـر امتنانٍ ولا تطاول؛ فإن

(١) أي: التي بيَّنتها الشريعة وانضبطت بضوابط العقل النظيف.
(٢) أي: الاعتدال.
(٣) أي: تَهتمُّ اهتمامًا كبيرًا بمراعاة شؤونه.
(٤) **الهشاشة**: الفرح والتبسُّم.
(٥) أي: ويكون مطمئنًا منك وأنت غائبٌ عنه.
(٦) يعني بالفراسة.
(٧) يعني بالفراسة.
(٨) السلطان: الجاه والمنصب.

رأيتَ من يحتشمُك آنئذٍ فاجذِبْـه إليـك، واختلط بـه، وابرأ بذلك من الكِبر والصَّلَف[١].

ثم احذَرِ المِراءَ مع صديقك خاصةً ـ وإن كان واجبًا أن تَحذَرَه مع كل أحد ـ ؛ فإن مماراةَ الصديق تقتلعُ المودَّةَ من أصلها؛ لأنها سببُ التبايُن[٢]، وقُبحُ أثرها لا يخفى، فلا يقفُ مع المراء محبةٌ، ولا يُرجى به أُلفةٌ، نعم؛ ينبغي أن يكون كلٌّ مِرآةً لأخيه؛ ينصحُ بعضُهم بعضًا، ويُرشدُ كلٌّ أخاه إلى سُبل الكمال، ولا يكتمُ نَقدَ ما يراه نقصًا؛ فمِن تبادُلِ النقدِ في ساحة المودةِ على بساط الصفاء يكونُ الكمال.

وينبغي ألَّا تؤاخِذَ صديقَك المخلِصَ بالتقصير، ولا تجازيَه عليه، ولا تعاتبَه عتابًا مُفرِطًا، وأدِمْ ملاطفتَه، وتعهَّـدْ أشيـاءه[٣]، واهْدِ ما تستحسنُه إليه[٤]، واجتهدْ في الإكثار منَ الأصدقاء؛ فإن الصديقَ زينُ المرء وعضُدُه، وناصرُه، ومُذيعُ فضائله».

ﮧﮨﮩﮪ

---

(١) الصَّلَف: الغرور.

(٢) التبايُن: المقاطعة.

(٣) أي: راعِ أحوالَه.

(٤) أي: إذا أعجبك شيءٌ ففضِّله به على نفسك.

٣ ـ أدبُ الجار

للجوار حقٌّ وراءَ ما تقتضيه الأخوة.

* وجُملةُ حقِّ الجار:

١ ـ أن يبدأه بالحُسنى.

٢ ـ ويُعينَه إذا استعانه.

٣ ـ ويُقرضه إذا استقرَضه.

٤ ـ ويَعودَه في المرض.

٥ ـ ويُعزِّيَه في المصيبة، ويقوم معه في العزاء.

٦ ـ ويُهنِّئَه في الفرح، ويُظهرَ الشرِكةَ[1] معه في سروره.

٧ ـ ويَصفحَ عن زلَّاته.

٨ ـ ولا يطَّلعَ من السطح على عَوْراته.

٩ ـ ولا يضايقَه في وضع الجذعِ على جداره، ولا في مصبِّ الماء في مِيزابه[2]، ولا في مَطرَحِ التُّراب في فِنائه.

١٠ ـ ولا يُضيِّقُ طريقَه إلى الدار.

١١ ـ ولا يُتبِعَه النظرَ فيما يحملُه إلى داره[3].

١٢ ـ ولا يستطيلَ عليه في البناء فيحجبَ عنه الهواء إلا بإذنه.

١٣ ـ ويُهديَه من فضلِ ما يجد.

---

(١) الشَّركة: المشاركة.

(٢) المِيزاب: ما يخرج منه الماء من الأسطُح ونحوها.

(٣) أي: إذا أحضر جارُك طعامًا أو فاكهةً، فلا تتطلع إليه ليعطيك منه.

١٤ ـ ويَسترَ ما ينكشفُ له من عَوْراته.

١٥ ـ ويُنعشَه من صَرعته ـ إذا نابته نائبةٌ[١] ـ.

١٦ ـ ولا يَغفُلَ عن ملاحظةِ داره في غَيبته[٢].

١٧ ـ ولا يَسمعَ عليه كلامًا[٣].

١٨ ـ ويَغُضَّ بصره عن حُرمته.

١٩ ـ ويتلطفَ لولده في كلمته، ويُرشِدَه إلى ما يُهمُّه من أمر دينه ودنياه.

هٰذا إلى جُملةِ الحقوق المتقدِّمة[٤].

(١) أي: يأخذ بيده ويساعده إذا وقعت به محنةٌ.

(٢) وهٰذا يكون بالضوابط الشرعية، بأن يرسل زوجتَه ـ أو ابنته ـ للسؤال عن أحوال نساء جاره، أما اختلاطُ الرجال والنساء ـ من الجيران خاصةً ـ ببعضهم البعض؛ فهو يترتب عليه من المفاسد ما لا يخفى على ذي لُبٍّ.

(٣) أي: لا يتجسس عليه ليسمع كلامه.

(٤) أي: من حقوق الصداقة والأخوَّة.

٤ ـ حكاياتٌ ونوادرُ في الحبِّ الصادق

قَصَّ بعضُهم ثلاثَ قَصصٍ نادرةٍ في الحبِّ الصادق:

○ قال في القصة الأولى تحت عنوان: «الشرف الأعظم»:

«إنَّ أخاكَ الحقَّ مَن كان معكْ ... ومَن يَضُرُّ نفسَه لِينفعَكْ

ومَن إذا رَيبُ الزمانِ صَدَعَكْ ... شَتَّتَ فيه شَمْلَهُ لِيجمَعَكْ[1]

قال: هٰذه حادثةٌ يجب أن تُكتب بماء الذهب في سائر تواريخ العالَم المتمدِّن؛ لتظهرَ بعضُ واجبات الأخ إلى أخيه إذا ألَمَّت به مُلِمَّةٌ.

في الثامن عشر من شهر يناير سنة (١٨٩١م) خرجتْ مُفاخَرَةُ أَخوانٍ من القوةِ إلى الفعل، وتجلَّلت[2] محبَّتُهم برداءِ الشجاعة والإقدامِ في مدينةِ «شيكاغو»، فتقدَّم منهم عددٌ كبير ليكونوا غَرَضًا لمُديةِ[3] الجَرَّاح ليقطع جزءً مِن لحم ذراعهم يُلصِقُه على فخِذِ أحد إخوانِهم وقايةً لحياته، وضَمانًا لراحته؛ وذٰلك أن أحدَهم أصيبَ بسرطانٍ في فخِذه الأيمن، وامتدَّ مقدارَ قدم، وكان الجرَّاحُ يعتني بالمصاب، فرأى أن خيرَ الأمور أن يُجرِّدَ اللحمَ الفاسدَ من مكانه، ويضعَ مكانه لحمًا آخرَ يَسهُلُ التحامُه بالفخِذ، فذَبح الجَرَّاحُ لهٰذه الغاية جَدْيًا كان في دارِ المستشفى[4] لتسليةِ المرضى، وعالَج المريض مدةَ عشرةِ أسابيع؛ ولٰكن لسوءِ الحظ لم يَلتصق لحمُ الجَدْي بفخِذِ المصاب، فاضطُرَّ الجرَّاحُ أن ينزعَ لحمَ الجدي ويُجرِّبَ لحم الإنسان، ولٰكنْ من أين له بإنسانٍ يجُودُ من لحمه بقطعةٍ تلتصقُ على فخِذ إنسانٍ آخرَ، ويحتملُ عذابَ

---

(١) رَيبِ الزمان: مصائب الدهر.

(٢) تجلَّلت: ارتدت واكتملت.

(٣) المُدية: السكين.

(٤) الصواب ـ لغةً ـ أن يقال: «مَشْفَى».

القطعِ والسَّلخِ والشقاء؟ وهل في الكون مِن دافعٍ يدفعُ قلبَ الإنسان إلى تضحيةِ جسدِه مساعدةً لغيره؟! إلَّا أنه لم يَعِزَّ وجودُها بين أولئك الأصحاب المتآخِينَ، إذ كان في مَشرَبِهم[1] منَ الدافع القويِّ ما يَقضي على الصاحب أن يبذلَ كلَّ ما في وُسعه لينقذَ أخاه، ويساعدَه في السراء والضراء.

فلما علِموا ما حلَّ بأخيهم، وما يلزمُ لشفائه؛ عَقدوا جلسةً، وتداولوا في شأن مساعدته، فاكتَتَبَ منهم[2] ثلاثُمئة، وقدَّموا أجسادهم لمُديةِ الجرَّاح ليقطعَ منها ما يشاءُ إكرامًا لأخيهم المريض، وطمعًا في شفائه، فضَرب الجراحُ ميعادًا لذلك: اليومَ الثامنَ عشر من الشهر المتقدم.

وصباحَ ذلك اليوم المعهود ابتدؤوا يتقاطَرون[3] حتى اكتَمل عددُهم، فلما رأى الأطباءُ كثرتَهم ارتَأَوْا أن يَنتخبوا (١٧٥) منهم، ويذهبوا بهم إلى المستشفى ـ حيث كان المصاب ـ، فقُسِّموا إلى ثلاث فرق.

وتقدمتِ الفرقةُ الأولى إلى المستشفى، وفي مقدمتهم عددٌ من الأطباء حضَروا لمساعدة الجرَّاح في عمليتِهِ الجراحية، وكان الجراحُ قد سَبق الجميعَ إلى المستشفى، فخَدَّر المصابَ بالمُخدِّرات[4]، وغَسَل الجُرحَ بالمحلولات اللازمة، وجهَّز الأدويةَ والرِّباطات[5].

ثم أفاقَ المصابُ من غيبوبته، ورأى بعينِه إخوانَه الذين قدِموا ليشاطِروه الألَم، ويعينوه على الشفاء من مرضه، فأمَر الجراحُ بأن يَبتدئ العمليةَ والسلخَ حالًا حرصًا على الوقت، فتقدمتِ الفرقةُ الأولى، فشمَّروا عن سواعدهم، أما كيفيةُ قطع اللحم وسلخُه فكانت هكذا: يأتي الشخصُ كاشفًا ساعدَه

(١) المَشرب: الطريق، والمقصود: منهج حياتِهم.
(٢) اكتَتب: تطوَّع.
(٣) يتقاطرون: يأتون شيئًا بعد شيء.
(٤) المخدِّرات ـ بكسر الدال ـ: ما يخدِّر العقل، والمقصود: البِنج.
(٥) الرِّباطات: ما يُربط به الجُرح من «شاشٍ» ونحوه.

الأيسر، فيَفرِكُه أحدُ الأطباء فركًا شديدًا، ثم يَغسل المحِلَّ المطلوبَ سلخُه بالماء الحارِّ والصابون، ثم بالكحول حتى ينظِّفَ الجلدَ جيدًا، ثم يتقدم طبيبٌ آخرُ فيَقطع المقدارَ المعيَّنَ من الجلد، ويسلِّمَه على رأس سكِّينِه إلى الجرَّاح، وهٰذا يَضعُه على فخِذ المريض، وللحالِ يتقدمُ طبيبٌ آخر، ويرُشُّ على الذراع المسلوخةِ مسحوقًا معدًّا من المخدِّرات لتخفيفِ الهيجان[1]، ثم يضعُ قُطنًا مبتلًّا بالمراهم والسوائل، ويربطُ الذراع ربطًا متقنًا، ثم يتقدمُ الثاني... وهٰكذا إلى آخر العملية.

وفي مدةِ ساعةٍ ونصف انتهت الفرقةُ الأولى، وتقدمت الفرقةُ الثانية، فجرى برجالها ما جرى بالفرقة الأولى، وكانوا كلُّهم يتقدَّمون بجراءةٍ عظيمةٍ غيرَ مُبالينَ بالجِرَاح؛ إلا اثنين من هٰذه الفرقة؛ فإنهما غطَّيا وجهَيهما بمنديل عند مسِّ ذراعيهما.

ثم حضرتِ الفرقةُ الثالثة، ولم يُقطع من لحم رجالها بقَدر ما قُطع من الفرقتين السابقتين؛ لأن الطبيب اكتفى بما قُطع، فبَلغ عددُ الذين سُلخت سواعدهم مئةً وستةً وأربعين (١٤٦)، ومعدَّلُ ما قُطع من ذراع الواحد مقدارَ قيراطٍ مربع.

وقد استقلَّ[2] أصدقاءُ العليل وإخوانُه هٰذا القَدْرَ؛ لأنهم كانوا مستعدِّين أن يقدِّموا ما يَنِيفُ[3] عن قدَم وزيادة، وكان بينهم مَن أتى من مسافةٍ بعيدةٍ ليقدِّم ذراعَه ضحيةً لأخيه، ولَم تستمرَّ هٰذه العمليةُ أكثرَ من ثلاثِ ساعات ونصف.

أما العليل، فكان مُلقًى على جانبِهِ الأيسر، وكان كلَّما دخل عليه واحدٌ منهم يتبسَّمُ تبسُّمًا ينوبُ عن الكلام في إظهار شكره وامتنانه، وكان إخوانُه

---

(١) أي: ثوران الألم.
(٢) أي: رأوه قليلًا.
(٣) يَنِيف: يزيد. ويصح ـ أيضًا ـ أن تضبط: «يُنيِّف».

يشجِّعونه ويُعَزُّونه في مُصابه برقيق الكلام.

واشترك في هٰذه العملية جميعُ إخوانه ـ على اختلاف أعمارهم ودرجاتِهم ـ ؛ فمنهم الشيخُ الكبير، والرجلُ الحازم، والشابُّ النشيطُ الذي لم يُخَطَّ عارضاهُ بعدُ، وكان منهم أعمى واحد! وغضِب كثيرون من الذين رفض الأطباءُ قبولَهم ولم يصلُح صحِّيًا، والذين خاب أملُهم حينما أعلن الجراحُ أنه ليس في حاجةٍ بعدُ إلى اللحم.

وهٰذه المحبةُ التي لا توصفُ كانت سببًا لشفاء العليل، وما برِح يشكرُهم إلى آخِر نفَسٍ في حياته».

○ وقال في القصة الثانية تحت عنوان: «النَّخوة والشهامة والمروءة» ما مثاله: «هٰذه نُبذةٌ تدلُّ على شهامة إخوانٍ لم يضِنُّوا[1] بالنفْس والنفيس؛ حبًّا بمساعدة إخوانِهم، ومحافظةً على عهودهم التي تعاهدوها.

فقد نَشرت جريدة «إلينوي أودفلو» في عددها الخامس الصادر في (١٥ مارس سنة ١٨٩٥م) ما ملخَّصه: دُعي أعضاءُ محافلَ وعائلاتُهم إلى احتفالٍ في «شيكاغو»، ثم تلا رئيسُ الاحتفال ملخَّص حادثةٍ جرت؛ فقال:

في (العاشر من شهر أكتوبر سنة ١٨٩٤م) بينما كان صديقٌ غائبًا عن منزله في أشغاله، وليس في البيت سوى امرأتِه وولدِهما الصغير ـ وكان نائمًا في سريره ـ ؛ قامت والدتُه لتفتحَ دُرْجًا ـ وبيدها مصباحٌ مُنارٌ بزيتِ الكِيروسين، فالتهب بالقضاءِ والقدر، وسَقط الزيتُ على الثياب، فاشتعلت النيرانُ بسرعة، فذهبت إلى الباب تستغيثُ بالجيران، ففطِنت إلى ولدها، فعادت ولفَّته بملاءةٍ وحَملته، ولمَّا وصلت إلى الباب رأتْه مُقفَلًا، فلفَّتِ الولدَ جيدًا، وخرجت من إحدى نوافذ البيت، وكانت النارُ قد علِقت بها ولم تشعُر لعِظم حرارة منزلها وشغَفها بخلاص ولدها، وأتت مسرعةً، ولم تصل إلى بيوتِ

(١) يضِنُّوا: يبخلوا.

الجيران إلا والنار قد شوَّهتها، فألقت الولدَ أمامهم سالمًا، وكانت ذراعاها وأحدُ جانبيها محترقةً، وكان لحمُها يتساقط عند مسِّه، فأطفأها الجيرانُ، ووقعت إلى الأرض من الألَم، ثم جيء بمَرْكبةٍ، فنقلتها إلى المستشفى، وكانت ملفوفةً بشال، ولمَّا نُزع الشال صار المنظرُ محزنًا؛ لأن يدَيها من رؤوس الأصابع إلى العنق والكتفين، والجوانبَ إلى الخَصر ومِن نصف الثَّديين إلى الوراء منتهى قيراطينِ من العَمود الفَقَري، كانت كلُّها كتلةَ لحمٍ محترقةٍ تقع عند لمسِها، وسَماكةُ الحرق في بعض المواضع قيراطان، وفي البعض الآخر لم يُحرق سوى الجِلد، ثم وقعتِ الأظافر، وأكثرُ المواضع التي حُرقت صَدِئت فيها الموادُّ.

وشعُرت بعد دخولها المستشفى بستِّ ساعات بحمَّى رافقها ألمٌ شديد، ونتج من ذٰلك تقرُّحٌ في المعدة والأمعاء، وأُصيبت بإسهالٍ حادٍّ وآلام تفوق الوصف، ولا سيَّما لمَّا كانوا يُغيِّرون لها عن الحروق؛ فإنهم كانوا يمكُثون ساعتين أو أكثر، وكانت تعاني كلَّ أنواع الآلام عند نزع الأنسجة عن لحمِها.

ثم إن الطبيب ومساعديه رأَوا أنه لابد من تعويض اللحم الساقطِ من جسمها بلحمٍ حيٍّ وعَمَلِ عمليةٍ جراحية؛ لعلَّ اللَّهَ يمُنُّ بالشفاء، فقَدَّم زوجُها نفسه لقطعِ ما يلزم من لحم جسده حبًّا بسلامةِ قرينته[١] التي ضحَّت بحياتِها لأجل ولدِها، ولٰكنَّ الأطباءَ رأوا أنه يلزمُ أكثرَ مما يمكنُهم أن يأخذوا منه، فتبرَّع بعضُ الممرضات بالمستشفى بأخذِ قِطَعٍ مِن لَحمِهنَّ حبًّا ـ أيضًا ـ لتلك

---

(١) أي: زوجته، وإطلاق وصف «القرينة» على الزوجة له قصةٌ طريفةٌ ذكرها العلَّامة بكر أبو زيد؛ حيث قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد اشتقَّ القدامى من مادة «القَرَن»: «الاقتران» بمعنى الازدواج، فقالوا: «اقترن فلان بفلانة، أي: تزوجها»، وسُمِّي النكاح «القِران» ـ وِزان «الحِصان» ـ ، وأصلُ ذٰلك في لغة العرب: أن العرب كانت تربطُ بين قرنَي الثورين بمَسَدٍ (حَبْل) تسمِّيه «قَرَنْ» ـ على وزن «بَقَر» ـ ، فسُمِّيا «قرينين»، وسُمي كلٌّ منهما «قرينًا للآخر»، فلْتَهنأ الزوجةُ الراقية ـ بلسان العصر ـ مِن تسميتها «قرينة»، فصاحبها ذٰلكم الثور». «فقه النوازل» (١/ ١٨٤ ـ ط: الرسالة).

المصابة.

ولمَّا بلغ إخوانَ زوجها وأصدقاءَه ما كان حرَّكتهم النخوةُ والشهامةُ إلى مشاركة أخيهم وقرينته، وقبلَ ابتداء العملية جاؤوا أفواجًا أفواجًا وهم ممتلئو الجسم أصحاءُ البِنية، واندفعوا بكل قواهم مُظهِرينَ عواطفَ الحب والولاء، وعرَضوا أنفسهم على الأطباء ليقطعوا من أجسادهم ما شاؤوا، ومن أي جهةٍ أرادوا لإنقاذ حياة امرأة أخيهم.

ولما حضروا أمامَ الجرَّاح مدَّ أولًا زوجُها ذراعيه، وقال للطبيب: خذ منها ما تشاء، فقطع منها ثمانيَ قِطعٍ طُولًا - كلُّ قطعةٍ قيراطان، وعرضُها ثلاثةُ أرباع القيراط - ، وكان يقول: خذ بعدُ، ولم يُبدِ أقلَّ إشارةٍ تدلُّ على الألم؛ بل كان مسرورًا لأنه استطاع أن يضحِّي بحياته لسلامة امرأته، فأخذ الطبيبُ اللازمَ، ثم قَطع من صديقه ثمانيَ قطع - أيضًا - ، ومن غيره خمسًا، وأتى بعدَهم غيرُهم يخبرون الأطباء بأخذ اللحم من أجسادهم من أي جهةٍ أرادوا، فكان الأطباءُ يَقطعون اللحم، وآخرون يَخيطون مكان الجروح، ويغسلونها بمُزيلات الفساد، وهلُمَّ جرًّا.

وما زالوا حتى عوَّضوا من كل اللحمِ المحروق، فكان جملةُ ما أخذوه نحو سَبعِمئةٍ وخمسينَ قيراطًا مربعًا، وهي تساوى نحو خمسةِ أقدام، وكان جُملةُ ما أُخذ من كل رجلٍ نحوَ قيراطٍ - أو أكثر - ، والذين أَخذوا من لحمهم ثمانين رجلًا عدا امرأتين تبرعتا - أيضًا - ، فكانت تعزيتُها بإظهار حُنوِّ إخوان زوجها وسرورهم وشجاعتِهم وتشجيعهم إياها؛ مما ساعدها كثيرًا على احتمال تلك العملية الغريبة النادرةِ المثال، ولحمُها مكشوفٌ للهواء، ثم جُمع منهم ستُّمِئةِ ريال قُدمت لزوجها ليشتريَ أدواتٍ للبيت بدلًا من التي احترقت وتذكارًا لحب إخوانه ولقرينته».

هٰكـــذا هٰكـــذا وإلا فـــلا لا ليس كلُّ الرجالِ يُدعى رجالًا

○ وقال في القصة الثالثة تحت عنوان: «المشاركة في الحياة» ما صورتُه: «مِن أغرب ما رواه التاريخ، ومِن أعظم الحوادث تأثرًا الخبر الآتي؛ فإنه يدلُّ على أن أخًا ضحَّى بحياته لمساعدةِ أخيه، ويشهدُ لأطباء الأميركان بطول الباع والمهارةِ في صناعة الطب:

مَرِضَ أستاذُ محفلٍ في «أوهايو» بسُمِّ الدم، وكان محترمًا محبوبًا في تلك الولاية، وكان كريمَ الخُلق، سَمْحَ اليد، يساعد المحتاجين، ولمَّا أشرف على الخطر تواردتِ الأراملُ والأيتامُ على منزله يَسألون عن صحَّته، ويقدِّمون ابتهالاتِهم إلى اللَّه ليشفيَه، ويَنذِرون نذورًا قَدْرَ طاقتهم إذا شُفي، وعَقَد عدد من نُطُسِ الأطباء[1] جلسةً، وقرَّر أحدهم ألَّا أمل بنجاةِ الأستاذ إلا بأمرٍ واحد ـ وهو أملٌ ضعيف جدًّا ـ ، والواسطةُ هي أنه لمَّا كان دمُ المريض قد سُمَّ أكثره، واستحال[2] إلى دمٍ فاسد، فلابد من تفريغِه من عروقِه وإملائها بدمٍ نقيٍّ من جسم صحيح.

ثم قال الطبيب: إن في العمل خطرًا جسيمًا جدًّا، ولٰكنَّ الطريقةَ الوحيدة الممكنَ عملُها ـ ولا شك أنه يصعُب جدًّا؛ إن لم نقل يستحيل ـ وجودُ مَن يسمح بجزءٍ عظيم من دمِه لمثل هٰذه الغاية.

وفي مساءِ اليوم عَينِهِ عَقَد المَحفلُ جلسةً خصوصية، فنهض الرئيسُ فيها وأبان حالةَ أخيهم المريض والواسطةَ التي ارتآها الطبيب، وطلب منهم أن يتضرَّعوا إلى اللَّه أن يمُنَّ عليه بالشفاء، وكان أحدُ أصحابِهم وإخوانِهم حاضرًا ـ وهو في مُقتبَلِ العمر ـ قويُّ البِنية، مُورَّدُ الخدود، صحيحُ الجسم، في أشُدِّه، فوقف في الوسط وقال: «أيُّها الإخوان، إنني أجودُ بما يلزم من دمِي عن طِيبةِ خاطرٍ لإنقاذ هٰذا الأستاذ»! فأحدَق به الحاضرون، وأخذوا يُثنُون على شهامته وشجاعته، ورأوا في قوةِ جسمه ورَيعانِ صِباه ما يؤيد قوله.

(١) النُّطُس: الأطباء، ولعل المراد هنا: المَهَرة منهم.
(٢) استحال: تحوَّل.

ثم اجتمعت لجنةُ الأطباء لفحص هٰذا البطل، فوجدوه صحيحَ الجسم، نقيَّ الدم، وحَكموا أنه أهلٌ للقيام بذٰلك، وعليه أَخَذ الأطباءُ في اليوم التالي في إجراءِ العملية بحضور جميع إخوان المريض، فبدأ الأطباءُ بإخراج الدم من جسمِ المريض في دقةٍ وانتباه؛ حتى أخرجوا منه القَدْرَ اللازم، ثم فتحوا عِرقًا في ذراع ذٰلك البطل، ووَصَّلا منه أنبوبًا إلى جسم المريض، فجَعل الدمُ يتدفقُ من جسم الصحيح إلى جسم المريض، فيُكسِبُه لونًا جميلًا ويُنعشُه، وما زال البطل يجودُ بدمه لإحياء أخيه؛ وهو محاطٌ بإخوانه الذين يَمدحون شجاعته ويُثنُون عليه؛ إلى أن اعتراه دُوارٌ شديد، فنظر إليهم نظرةَ الوداع، وأشار إليهم بعينه يريد الكلام، فلم يَقْوَ عليه، ثم أَغمض وأُغمي عليه.

وكان الأطباءُ ينتظرون ذٰلك، فأَوقفوا جريانَ الدم، وانقسموا قسمين: قسم اعتنى بالمريض، وقسم بالبطل.

أما الأستاذُ المريض، فتحسَّنت حالته حالًا، وأخذ يتقدمُ إلى الصحةِ بسرعة إلى أن شُفي تمامًا وعاد إلى حالته الأولى، أما البطلُ فتأخرت صحتُه كثيرًا، وأشرف على الموت، وكان يقول لزائريه: لستُ متألِّمًا ولا متكدِّرًا، بل أنا مسرورٌ لقيامي بِهٰذا العمل، والشكرُ للَّهِ أن دمِي أفاد أخي فأحياه.

وبعد أن بذلَ الأطباءُ كلَّ هِمَّةٍ في مداواته أخذ يتعافى، وبدأت صحتُه بالتحسن، وبعد ثلاثة أشهر من تاريخ تلك الحادثة المؤثِّرة قام من سريره وزار إخوانه، ولمَّا سُئل عن السبب في إقدامه على هٰذا العمل، قال: لو مات الأستاذ لخرَّ المحفل، أما إذا متُّ أنا فلا تكون الخسارةُ مذكورةً. ثم انهالت عليه الإكرامات والهدايا الثمينة» اهـ.

أقول: هٰذه القصصُ الثلاثة ـ وإن تكن غريبةً في بابها، جديرةً بالاعتبار والتأسي بها ـ؛ فلقد دوَّن التاريخُ ما هو أعظمُ منها.

○ فقد حكى الغزَّالي ـ عليهُ الرحمة والرضوان ـ في باب «حقُّ الأخوة

والصحبة» من «الإحياء»: «أن أعلى مراتبِ المواساة: أن تؤثِرَ أخاك على نفسك وتُقدِّمَ حاجته على حاجتك»، قال: «وهٰذه منتهى رتبةِ المتحابِّين، ومنتهى هٰذه الرتبة الإيثارُ بالنفس ـ أيضًا ـ ؛ كما رُوي أنه سُعي بجماعةٍ من الصوفية[1] إلى بعض الخلفاء، فأَمر بضربِ رقابِهم ـ وفيهم أبو الحُسين النُّوري ـ ، فبادَر إلى السَّيَّاف ليكونَ هو أولَ مقتول، فقيل له في ذٰلك، فقال: أحببتُ أن أؤثر إخواني بالحياة في هٰذه اللحظة، فكان ذٰلك سبب نجاةِ جميعِهم...» في حكايةٍ طويلة.

○ وحكى ـ عليه الرحمة ـ في باب «الإيثار» عن حذيفة قال: «انطلقتُ يوم اليرموك ـ في أيام فتوح الشام ـ أطلبُ ابنَ عمٍّ لي ـ ومعي شيءٌ من ماءٍ ـ لأسقيَه إن كان به رمق، وأمسحَ وجهه، فلقيتُه، فلما أهويتُ لأسقيَه سَمع قائلًا يقول: آهٍ، فأشار ابنُ عمي: أن انطلِقْ بالماء إليه، فجئتُه، فسمع متأوِّهًا آخر، فأشار إليَّ أن انطلق إليه، فجئتُه، فإذا هو مات، فرجعت إليه، فإذا هو مات ـ أيضًا ـ ، فعُدتُ إلى ابن عمي فإذا هو قد مات ـ رحمةُ اللّٰه عليهم أجمعين ـ ».

وفي تاريخ «شذَرات الذهب»[2] ـ في ترجمة الشيخ «مبارك بن عبداللّٰه الحبشي الدمشقي»؛ أحد شيوخ الصوفية المتوفَّى سنة (٩٤٣) ـ : «أنه حجَّ ومعه مُريدون[3]، فلما دخلوا مكةَ فَرغت نفقتُهم، فقال لبعض أصحابه: خُذ

---

(١) أي: أوقع البعض بينهم وبين الحاكم. فالسِّعاية: النميمة عند السلطان خاصةً.

(٢) لابن العماد الحنبلي.

(٣) المُريد: تعبيرٌ صوفي، والمقصود منه: مَن يريدُ اللّٰهَ تعالى، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللّٰهُ: «جرت عادة أهل المعرفة بتسمية هٰذا الطالب: «المريد»؛ فإن أول الخير إرادةُ اللّٰهِ ورسوله والدار الآخرة». «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ١٤٦ ـ ١٤٧). بينما قال العلَّامةُ ابنُ قيمِ الجوزيَّة رَحِمَهُ اللّٰهُ: «المريدون هم أربابُ الأحوال، والعُبَّادُ أربابُ الأورادِ والعِبادات، وكلُّ مريدٍ عابدٌ، وكلُّ عابدٍ مريد. لٰكنَّ القومَ خصُّوا أهل المحبةِ وأذواقِ حقائق الإيمان باسم «المريد»، وخصُّوا أصحاب العمل المجرد باسم «العابد»، وكلُّ =

بيدي إلى السوق، [وبِعني]، واقبِض ثمني، واصرِفْه على بقيةِ الجماعة، ففعل ذٰلك، واشتراه بعضُ تجَّار العجم، ثم أعتقه» اهـ.

○ ثم رأيت قصةً أخرى تشابِهُ ما تقدم[1]، وهي: «أن امرأةً مرِضت واشتدَّ بها الضَّعفُ حتى يئسَ الأطباءُ من شفائها، أو تُسعَفَ بدم جديدٍ يقوم مقام ما فقدَتْه من الدم، وكان زوجُها على تمام الصحةِ والنشاط، فأوعَزَ[2] إلى الأطباء أن يُخرجوا الدمَ من عروقه، ويُدخلوه في عروقها لتَقوَى وتُشفَى ـ إذ لم يكن لشفائها سبيلٌ آخر ـ، ففحصوا دمَه، ووجدوه سليمًا، وفحَصوا قلبه فوجدوه قويًّا، فأجلسوه إلى جانبِ زوجته، وأوصلوا بين عِرقٍ من عروقه وعرقٍ من عروقها على غير رضاها[3]، فجَعل الدمُ يجري من جسمِه إلى جسمها، وللحالِ زال الاصفرارُ من وجنتها، وقَوِيَ نبضُها ـ بعد أن كان ضعيفًا لا يُشعَرُ به ـ، وحاول الأطباء حينئذٍ أن يقطعوا الاتصالَ بينها وبين زوجها، فمنعهم من ذٰلك، وقال: بل دعُوها تأخذ من دمي كلَّ ما يحتاج إليه جسمها، ولما قطعوا الاتصال كانت وجنتا المرأة قد تورَّدَتا، وأما زوجُها فكان قد اصفرَّ وأُغمي عليه، ولم يستردَّ قوته ونشاطه إلا بعد أيام»[4].

= مريدٍ لا يكونُ عابدًا فزنديقٌ، وكلُّ عابدٍ لا يكونُ مريدًا فمُراءٍ». «مدارج السالكين» (٣/ ١١ ـ «منزلة الغيرة» ـ ط: دار ابن خزيمة).

(١) نقلها «المقتطف» (جزء ٤ ـ مجلد ٣٩ ـ صفحة ٣٩٦)، تحت عنوان: «الحب الصادق» (القاسمي).

(٢) أوعَزَ: تقدم طالبًا.

(٣) أي: لخوفها على زوجها.

(٤) قال الراوي: الحادثةُ صحيحة، والرجل من أعضاء مجلس الأعيان الأمريكي، وهو شابٌّ في مقتبل العمر، وقد ترطَّبت الألسُن بذِكر شهامته، والإطنابِ بمحبته، وتضحيتِه نفسه لأجلها، ولٰكنْ كلُّ زوجةٍ في الدنيا تعرِّضُ نفسها مرارًا كثيرةً من حياتِها لأجل زوجها لكي تلدَ له الأولاد، وكلُّ زوجٍ وكل زوجةٍ يَسفكان دمهما مرارًا كثيرةً لأجل أولادهما؛ يَسهران الليالي، ويتجشَّمان المشاق، ويحرمان أنفسهما كلَّ راحةٍ وكلَّ مسرَّةٍ لأجل أولادهما، يَشتغلان ويكتسبان ليطعماهم ويربياهم ويعلِّماهم، ويتركا لهم ما =

٥ ـ أدبُ المَشْي

١ ـ يلزمُ أن يكون المشيُ هَونًا[١] معتدلًا؛ لا سريعًا ولا بطيئًا.

٢ ـ وأن يجتنبَ الماشي الخفَّةَ في التلفُّت.

٣ ـ وأن يكون ناصبًا للقامة، لا منحنيًا ولا مُحدودِبًا، ولا مشبِّكًا يديه وراء ظهره؛ لئلَّا تصلُبَ[٢] أعصابُ ظَهرِه على التقوُّس والانحناء.

٤ ـ وعليه أن يكون مؤثرًا ليُمنى الطريق أو يسارِها؛ ليَبعُدَ عن مصادمةِ العجلات ونحوها؛ موجِّهًا النظرَ إلى الأمام؛ لا إلى النوافذ، ولا مُحدِّقًا براكبي العجلات وبالمارِّين.

٥ ـ مساعدًا لضعيفٍ وعاجزٍ أو من يحملُ على دابة.

٦ ـ متباعدًا عن مواقف التخاصم.

٧ ـ منتقيًا الطرقَ النظيفة.

٨ ـ غيرَ مزاحِم، ولا ملتصقٍ بالحيطان، ولا بأحدٍ.

٩ ـ محترسًا في الزِّحام على الجَيب من يدِ مختلِس.

١٠ ـ متأخرًا عن جليلٍ يُماشيهِ، سائرًا عن يساره.

***

= يستعينون به على شؤونهم؛ وما فعله ذلك الزوجُ هو ما يفعله كلُّ زوجٍ وكل زوجةٍ كل يوم؛ لا بإخراج رِطل من الدم؛ بل ببذلِ دم القلب وعَـرَقِ الجَبين وقُوى العقل لأجل حفظ النسل، فجزى اللّٰهُ الوالدين كلَّ خير. (القاسمي).

(١) الهَون: التواضع.

(٢) تصلُب: تخشُن.

٦ ـ أدبُ الزِّيارةِ والزائر[١]

الزيارةُ هي الواسطةُ الوحيدة لدوام رابطةِ الأُخوَّةِ والصحبة[٢]؛ إلَّا أن كثرتَها ربما كانت مَجلبةً للملل، وقِلَّتَها مدعاةً للإيحاشِ وضعفِ المودة.

١ ـ ويجبُ أن تكون في غيرِ وقتِ النوم، وتحسُنُ في غيرِ وقتِ الأكل.

٢ ـ وأن يكون بملابسَ نظيفةٍ وهيأةٍ حسنة.

٣ ـ وأن يطرقَ الباب بلطفٍ إلى ثلاث، وله بعدَها الانصراف.

٤ ـ ومَن لم يجِدِ المَزورَ فلْيتركِ اسمَه مع الخادم أو على بطاقة.

٥ ـ ومَن وجد الباب مفتوحًا فلا يدخل إلا بعدَ أن يستأذن له الخادمُ، أو يرسلَ معه بطاقته.

٦ ـ ولا يفاجِئِ المزورَ مفاجأةً[٣]؛ فإن ذٰلك يؤلِمُ من فوجِئ في بَدءِ رؤيته.

٧ ـ ومَن شعَر أن لمزورِه شُغلًا، أو تَهيُّأً لحاجةٍ فلْيبادر بالانصراف ـ ولو رغَّب إليه بالمُكث ـ.

٨ ـ ومَن وَجَده يُناجي أحدًا في حديثٍ فلْيَعتزلْهما جانبًا، ويتشاغلْ انتظارًا لفراغهما.

٩ ـ وإذا وَجده في كتابةٍ أو قراءةٍ فلا يتطلَّع إليها ويسألْه عنها، ولا يُدِلَّ عليه[٤] بتفتيش أوراقِه وخزانته.

١٠ ـ ولا يتناجى مع غيره بحضرةِ المزور.

---

(١) راجع ـ في هٰذا الفصل وما بعده ـ رسالة الشيخ محمد بن إسماعيل المقدم «الأدب الضائع»، ومحاضرة «آداب الزيارة»، للشيخ الحافظ عبدالرَّحيم الطحَّان.

(٢) وقد فرَّطنا فيها أيَّما تفريط.

(٣) أي: لا يَهجُم على بيته دونَ موعدٍ سابق.

(٤) أي: لا يُحرجه.

١١ ـ ولا يُطيلُ مُدةَ المقابلة.

١٢ ـ ولا ينصرفُ إلا باستئذان.

١٣ ـ وإذا وَعد أحدًا بزيارته فلا يُخلِفُ وعده معه، ولْيكن حضورُه في الوقت المعيَّن، وإن طرأ عذرٌ فيجب إخبارُه قبل الميعاد[1].

○ ومن اللطائف ما كَتبه حكيمٌ على باب داره: «ينبغي للزائر أن يشتركَ مع أهلِ البيتِ في أعمالهم»[2].

ﮩﮩﮩ

(١) وقد فرَّط الكثيرون في هٰذا الأدب المُهِم؛ فترى أحدَهم يواعد أخاه، ثم يَحدُثُ له ظرفٌ ما، ولا يتَّصل بصديقه الذي ينتظره ـ والذي قد يكونُ ألغى الكثيرَ من مواعيده المهمة من أجله ـ، ولا يعتذرُ عن عدم القدوم، وهٰذا أمرٌ لا ينبغي التفريط فيه أحبابي.

(٢) لا أدري ما وجهُ هٰذا! وقد قرَّر أهل العلم أن من خوارم المروءة استخدام الضيف والزائر، أي: مطالبته بمساعدة أهل البيت في أعمالهم، وفي هٰذه العبارة إحراج للزائر، واللّٰهُ تعالى أعلم.

٧ ـ أدبُ المَزُور

١ ـ يَلزَمُ المزورَ أن يستقبلَ زائرَه ببشاشةٍ وطلاقةِ وجهٍ.

٢ ـ وأن يصافحَه، ويرحِّبَ به، ويُظهرَ السرورَ بزيارته، ويشكرَه على تفضُّلِه.

٣ ـ وألَّا يتقدَّم على زائره في مجلس، وفي تناولِ مَشروب.

٤ ـ وألَّا يحدِّثه بالأراجيف[1]، ولا بما يسوؤه.

٥ ـ وإذا بغتَتْه[2] نائبةٌ أو مصيبةٌ فلْيَكتمْها عن زائره، ولْيَتجلَّدْ في إكمال الجلسة.

٦ ـ وأن يلتفتَ لزائريه بالتساوي، فلا يؤثِر بحديثِه أحدًا منهم.

٧ ـ وأن يُسامِرَه بمَشربِهِ وما يهواه[3].

٨ ـ وأن يَستسمحَه في إنهاءِ شُغلٍ ـ إن كان لديه[4] ـ ليتفرَّغَ لمخاطبته.

٩ ـ وأن يمشيَ معه إلى الباب.

١٠ ـ وأن يردَّ له ـ بعد أيام ـ زيارتَه.

❦❦❦❦

---

(١) الأراجيف: ما يُخيفُه ويُوتِّرُ أعصابه.

(٢) أي: جاءه فجأة.

(٣) أي: يكلمه في الأمور التي يحبُّها. وهٰذا ـ بالطبع ـ ما لم يكن معصيةً للّٰهِ تعالى.

(٤) أي: يستأذن الزائر أن ينهي بعضَ مشاغلَه المهمة. وينبغي ألا تأخذ وقتًا طويلًا.

٨ ـ أدبُ الضَّيف

١ ـ يلزمُه الحضورُ في الوقت المعيَّنِ له، والجلوسُ مع مَن يليق به.
٢ ـ وموافقةُ المَضيف، والمَشيُ مع رغبته.
٣ ـ وألَّا يمنعَه من شيءٍ أراد إحضاره.
٤ ـ ولا يتطلعَ إلى ناحيةِ الحريم وجهةِ الباب رغبةً في مجيء الطعام[1].

✍ ومما يُعاب على الضَّيف:

١ ـ أخذُ ولده الصغير[2].
٢ ـ وكثرةُ الأكل بالشَّرَه، وجَرْفُ الطعام من نواحي الوعاء[3]، وابتلاعُه بصوتٍ يُسمع.
٣ ـ ونَفضُ الأصابع[4].
٤ ـ وإعادةُ بعض ما يَطعَمُه إلى الوعاء.
٥ ـ والبَهتُ في وجوه الآكِلين[5].
٦ ـ وجذبُ اللحم بعنف، وغمسُ يدِه فيه، والتطفُّلُ بتوزيعِه على الآكلين.
٧ ـ ونقلُ الطعام من وعاءٍ إلى غيره يَخلطُه معه إلَّا لصحفةٍ لديه.

---

(١) لكن يجب على صاحب البيت ألا يؤخِّر الطعام عن الضيف؛ لا سيما إذا كان قد جاء من سفرٍ طويل؛ بل يبادر بوضع الطعام فور دخوله.
(٢) هٰذا إذا لم يكن الضيفُ دُعيَ وأهلُه دعوةً عامة، ويُنتبه إلى أنه في الدعواتِ الأسرية لابد ـ حتمًا ـ من انفصال الرجالِ عن النساء، ويحرم الاختلاط المشؤوم ـ الذي سبقت إشارةٌ إليه ـ؛ فإنه نذير شؤم وبلايا ـ كما سبقت إشارةٌ لهٰذا ـ، وكذا لا يؤخذ الصغارُ في اللقاءات التي تختصُّ بالكبار، خاصةً التي فيها مباحثاتٌ علمية وأمورٌ كُبرى.
(٣) أي: سَحبُ الطعام من هنا وهناك، والسُّنَّةُ أن يأكلَ مما أمامه.
(٤) أي: في وسط الصِّحاف والأطباق.
(٥) أي: العبوس في وجوه الجالسين معه.

٨ ـ ومزاحَمةُ الجالسين.

٩ ـ والتأمُّرُ على من يَصُفُّ الصحونَ بالتقديم والتأخير، وعلى المَضيفِ بمضايقتِه في فِكره.

١٠ ـ والتكاسُلُ بالنهوض إلى الطعام، والتشاغل عمن يُنهضه إليه(١).

١١ ـ والتشبُّعُ لدى الحضور تصنُّعًا(٢)، والتأفُّفُ مما يَرغبُ فيه غيره(٣).

١٢ ـ وإطالةُ الحديث والماءُ يُصبُّ على يديه.

١٣ ـ وسؤالُ صاحب الدار عن داره وعمارتِها، ولَومُه على ما يراه قصَّر في هندستها.

١٤ ـ وإخبارُ مَن لم يُدْعَ مِن صديق المَضيف بالدعوة.

١٥ ـ واستعجالُه بإحضار الطعام وشكوى الجوع.

١٦ ـ وأن يطلبَ ممن يدعوه أن يدعوَ صديقه(٤).

١٧ ـ وأن يدعوَ مَن يُحبُّ بغير إذن داعيهِ.

١٨ ـ أو يتطفَّلَ بغير دعوة؛ وهو أقبح الخلال ـ لِمَا فيه من تعريض النفس للإهانة والخزي والعار ـ.

١٩ ـ وأن يُحدِّثَ بما كان من كلام؛ ففيه خيانةُ مَن حضر، والغفلةُ عن كونِ المجلس بالأمانة(٥).

---

(١) كأن يُدعى إلى الطعام، فيتشاغل بالنظر في أثاث البيت، أو قراءة شيء.

(٢) أي: إذا أُحضر الطعام يدَّعي الشِّبَع.

(٣) أي: يرى الجالسين معه يحبُّون نوعًا من الطعام، فيتأفَّفُ منه.

(٤) أي: إذا دعا زيدٌ عمرًا يقول عمرٌو: سآتي معي بخالد، وهٰذا مرفوض.

(٥) كما ثبت عنه ﷺ أنه قال: «إنما المجالسُ بالأمانة». رواه أبو الشيخ في «التوبيخ»، كما في «الجامع الصغير» (٤٠٩٥)، وصحَّحه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٣٣٠).

٩ ـ أدبُ المُضيف

١ ـ أن يَستقبل ضيفَه بطلاقةِ وجهٍ، وسِنٍّ ضَحوك، وترحيبٍ بالغ، ولِقًى مُبهج.

٢ ـ ويُحدِّثهم بلذيذ المحادثةِ وغرائب النوادر.

٣ ـ وألَّا يخبرَهم بما يُفزعُهم.

٤ ـ وأن يكتمَ ما ينوبُه مدةَ حضورهم.

٥ ـ وأن ينتظرَهم قبلَ الميعاد.

٦ ـ ولا يُمِلَّهم بالغَيبةِ عنهم، ولا يُضجِرَهم بتأخير الطعام.

٧ ـ وأن يخدمَهم ويقومَ عليهم، ويُظهرَ لهم سعةَ الحال.

٨ ـ ويُطيلَ الحديث عند مؤاكلتهم.

٩ ـ ويُظهرَ رغبتَه في الطعام أمامهم تجسيرًا لهم[١].

١٠ ـ وألَّا يمسِكَ عن تأكيد الدعوة بأدنى اعتذار، فيكونَ كالمنتظر لذٰلك، أو المنافق في دعواه.

١١ ـ ولا ينامَ قبلهم.

١٢ ـ ولا يشكو الزمانَ وضِيقَ الحال بحضورهم.

١٣ ـ ويَسمَرُ معهم.

١٤ ـ ولا يغضبُ على خادمِ أمامهم، ولا يعبسُ بوجهه.

١٥ ـ ولا يُفخِّمُ طعامه، ولا يمدحُ طابخَه، ولا يُنوِّهُ بنُدرةِ وجوده، أو غَلاءِ سعره، أو الانفرادِ بعمله؛ فإن ذٰلك دناءةٌ وأمارةُ الشُّح.

١٦ ـ وألَّا ينتهرَ أحدًا ولا يشتمَه لديهم.

---

(١) أي: يبدأ في الأكل قبلَهم ليشجِّعهم على التناول، حتى لا يصيبَهم الحياء.

١٦ ـ وأن ينزعجَ عند استئذانِهم، ويتروَّعَ لفِراقهم، ويسيرَ معهم إلى الباب.

١٧ ـ ومما يتعينُ عليه تجنُّبُ الإسراف، فلا يسيءُ التصرف، ويقتلَ نفسَه حبًّا في المفاخرة[١].

ﮋﮊﮉﮈ

(١) راجع كتاب: «المظهرية الجوفاء»، للشيخ الفاضل حسين العوايشة، فهو نفيسٌ في بابِه.

١٠ ـ أدبُ المُهدِي

١ ـ رؤيةُ الفضل للمُهدَى إليه[١].

٢ ـ وإظهارُ السرور بالقبول منه لها.

٣ ـ والشكرُ عند رؤية المهدَى إليه.

٤ ـ والاستقلال لها[٢] ـ وإن كثُرت ـ.

ﮋﮋﮊﮊ

(١) وهٰذا من الأدب السامي؛ لأن المهدَى إليه لمَّا قبل هدية المهدِي، فإنه يكون بذٰلك فتح له أبوابًا عظيمة من الثواب والخيرات.

(٢) أي: رؤيتها قليلة.

١١ ـ أدب المُهدَى إليه

١ ـ إظهارُ السرور بها[١] ـ وإن قلَّت ـ.

٢ ـ والدعاءُ لصاحبها ـ إذا غاب ـ، والبشاشةُ ـ إذا حضر ـ.

٣ ـ والمكافأة ـ إذا قدَر ـ، والثناءُ عليه ـ إذا أمكن ـ.

٤ ـ وتركُ الخضوع له، والتحفُّظُ من ذهاب الدين معه[٢].

٥ ـ ونفيُ الطمع معه ثانيًا.

ﮓﮓﮓﮓ

(١) أي: الهدية.

(٢) يعني إذا كانت الهديةُ على حساب دِين المُهدَى إليه، كالرِّشوة ـ مثلًا ـ.

١٢ ـ أدبُ اصطناع المَعروف

١ ـ البداءةُ به قبلَ السؤال.

٢ ـ والمبادرةُ به عند الوعد.

٣ ـ والتوقيرُ له عند العطاء.

٤ ـ والسَّترُ له بعد الأخذ(١).

٥ ـ وتركُ المِنَّةِ بعد القبول.

٥ ـ والمداومةُ على اصطناعه، والحَذرُ من انقطاعه.

ﮓﮒﮓﮒ

(١) فلا يذهب هنا وهناك ويقول للناس: لقد أعطيتُ فلانًا من الهدايا كذا وكذا ـ كما يفعل الذين لا يفقهون ـ؛ فإن هٰذا من السفاهةِ وقلةِ المروءة.

١٣ ـ أدبُ المعاشَرة

* مُعاشِرُ الناس ومُجالِسُهم يلزمُه:

١ ـ البِشرُ والبشاشة.

٢ ـ وكتمانُ السرِّ.

٣ ـ وحُسنُ الخُلق.

٤ ـ وملازمةُ الصِّدق في المقال.

٥ ـ وإسعافُ الصَّديق في الحاجة.

٦ ـ واجتنابُ اللَّجاجة(١).

٧ ـ ومواصلةُ النُّصح والإفادة(٢).

٨ ـ والسَّخاءُ بالزيارةِ والعيادة.

٩ ـ وخلوصُ الوِدادِ في حالتي السرَّاء والضرَّاء.

١٠ ـ ومشاطرةُ الخليل في الأفراح والأحزان.

١١ ـ وتقليلُ العبث والمزاح.

١٢ ـ وصونُ اللسان.

١٣ ـ والمعاملةُ باللُّطف والأُنس، واعتبارُ الصديق كالنَّفس.

١٤ ـ والإغضاءُ عن الزلل.

١٥ ـ وهجرُ النفور والملل.

١٦ ـ وكظمُ الغيظ والغضب.

---

(١) اللَّجاجة: الخصومة والجدال.

(٢) أي: مداومة النصيحة والنفع.

١٧ ـ وممارسةُ العفَّةِ والأدب.

* ويتعين على الجليس:

١ ـ أن يراعيَ ألفاظَه، ويكونَ على حذرٍ من عثرةِ لسانه، ولا سيما إذا كان جليسُه ذا هيبةٍ.

٢ ـ وألا ينظر في عِطفَيه(١)، ولا يُكثرَ الالتفات.

٣ ـ ويتحفَّظُ من تشبيك أصابعه، وتخليل أسنانه وكثرةِ البُصاق، والتمطِّي، والتجشِّي(٢)، وتقريبِ الفم من وجهِ المخاطَب، ومِن العبث بشاربه ولحيتِه، ومن التمخُّطِ إلَّا بمنديل، ومن الإزعاج بالعُطاس، فلا يكون له ضجةٌ.

٤ ـ وينبغي أن يُصغيَ إلى كلام مُجالسِه، ولا يقاطعَ عليه كلامه، ويستوعبَ منه القول(٣)؛ فقد يستفيدُ من مُجالسةِ الحكيم ما لا يستفيدُه من كتاب.

٥ ـ ويكون مجلسُه هادئًا، وحديثُه منتظمًا مرتَّبًا مقرونًا بالتروي والتحرُّز.

٦ ـ وعليه ألَّا يتصنَّع تصنُّعَ المرأةِ في الزينة.

٧ ـ ولا يُلِحَّ في طلب الحاجة.

٨ ـ ولا يُكثرَ من الهزل.

٩ ـ ولا يذكرَ أحدًا بسوء.

١٠ ـ ولا يبُثَّ الأراجيف(٤).

⁂

(١) **العِطفان**: الجانبان، وهي نظرة المتكبرين.

(٢) **التجشِّي**: إخراج الهواء من الفم الناتج عن امتلاء المعدة.

(٣) أي: يفهمه فهمًا جيدًا.

(٤) **الأراجيف**: المخاوف.

١٤ ـ أدبُ التكلُّم

الكلامُ معيارُ[١] فضلِ المرء وأدبه؛ لأنَّ فضلَه لا يَظهر إلا بمَنطقِه.

١ ـ فينبغي اعتيادُ النطق بالحكمةِ بكثرة سماعِها[٢]، واجتنابِ التكلُّفِ والتعقيد.

٢ ـ وينبغي التكلُّمُ بصوتٍ متوسط، وعلى قدرِ اللزوم؛ فإنَّ مَن رَفع صوتَه زيادةً عن العادةِ وقَدْرِ الحاجة نفَّر السامعَ من سماع كلامه، وأوجبَ كراهةَ الناس له، فلا يُحبُّون محادثتَه ومؤانستَه؛ على أن كثرةَ الصياح والصُّراخ تُوجِبُ ضَعفَ أعضاءِ التنفُّس، ويحصلُ للإنسان بها بَحَّةُ الصوت، وصداعُ الرأس، وضعفُ العينين؛ كما أن زيادةَ خفضِ الصوت توجبُ صعوبةَ سماعه، وتكلُّفَ المستمِع زيادةَ الإصغاء، وربما تَخفَى بعضُ ألفاظه؛ فلا تُسمع ـ أو تَشتبه على السامع بغيرها ـ، فيُفهمُ منها خلافُ غرض قائلها.

فمِن تمام الأدب والصحة: أن يكون صوتُ الإنسان في خطابه متوسطًا معتدلًا بقَدْر اللزوم، لا عاليًا يُتعب المتكلم، ويُزعجُ السامع، ولا منخفضًا جدًّا يَضعُفُ عن الوصول إلى المَسامع.

٣ ـ وينبغي ألَّا يكونَ كلامُه بسرعةٍ شديدة، يعسُرُ على المخاطَب تمييزُه وضبطُه وحُسنُ فهمه، ولا يكونُ بتأنٍّ زائدٍ وبطءٍ يُمِلُّ السامع، ويطولُ به الوقت؛ بل يكونُ وسطًا.

٤ ـ ولا يكون كلامُه بشدةٍ وحِـدَّةٍ مثلَ المُغتـاظِ والغضبان، ولا برخاوةٍ

---

(١) المِعيار: الميزان.

(٢) وهٰذه لفتةٌ نفيسةٌ لأهمية ملازمةِ أهلِ الأدب وسماعِ كلامهم، سواءٌ مباشرةً، أو بقراءةِ كُتبهم، أو الاستماع لشرائطهم.

وتكسُّرٍ ككلام النِّسوان[١]، ولا بتشدُّقٍ[٢] ينقذفُ معه لعابٌ أو بُصاق؛ بل يكون كلامُه كلامَ الرِّجال الشجعان، مع بشاشةِ الوجه وحلاوةِ اللسان، فكم مِن أمورٍ صعبةٍ متعسِّرةٍ يُسهِّلُها عذوبةُ اللفظ وحسنُ البيان[٣].

٥ ـ ولا يَهِشُّ[٤] إلى كافة الناس هشاشةً تجسِّرُهم عليه[٥]؛ فيَضيقَ بهم ذَرْعًا[٦]، ولا يصبرُ على ما يُحبُّون منه، ولا ينقبضُ عنهم انقباضًا يوحشُه منهم، ويمنعُه من رِفدهم[٧]، ولٰكن لِيَلْقَ الأعيانَ بالترحيب والمفاوضةِ، ومَن قصَّر عنهم[٨] بحُسنِ اللقاء والصمت، وسُفَّلَهم[٩] بالرأفةِ وحُسنِ المعونة.

٦ ـ وعليه ـ إذا كلَّمه أحدٌ ـ أن يُقبل عليه، ويُحسِنَ الإصغاءَ إليه، ولا يتشاغلَ عن كلامه، ولا يقطعَ عليه القولَ؛ حتى إذا خَطر بباله شيءٌ يجب أن يَذكُرَه يَصبرُ حتى يفرغَ صاحبُه ثم يتكلم.

٧ ـ وعليه ألَّا يذكرَ أحدًا من رُفقائه إلا باسمه مقرونًا بتفخيم[١٠]، أو بلَقبِه

---

(١) وهي كلمةٌ عربية فُصحى.
(٢) التشدُّق: تصنُّع الفصاحة.
(٣) وهٰذه الكلمات النفيسة نُهديها لإخواننا الذين اتخذ العُبوسُ في وجوههم مستقرًّا ومقيلًا، وظنوا أن «الالتزام» لا يتم إلا بالصرامة والغلظة! وقد نسُوا أن آدبَ الناسِ وأعظمَهم خُلقًا ﷺ كان كثيرَ التبسُّم، وما عُرف عنه العبوسُ إلَّا عندما تُنتهك محارم اللّٰه ﷻ.
(٤) الهشاشة: الابتهاج الشديد.
(٥) الجسارة: الجراءة وزوال الحشمة وحواجز الاحترام.
(٦) الذَّرْع: النفس.
(٧) الرِّفد: المعونة والنفع.
(٨) أي: من نزل عن منزلة الأعيان والكبراء.
(٩) السُّفَّل: الرعاع والدهماء.
(١٠) مثل: الأخ المكرَّم فلان، أو أخونا الفاضل فلان، أو أبو فلان... ونحو ذٰلك، وإذا كان كبيرًا في السن، فليذكره بلفظ «الشيخ»، وكذا إذا كان صغير السن؛ لٰكنه ذو باع في العلم والدعوة فله ذكره بلفظ «الشيخ» ـ أيضًا ـ ؛ إذ كان من عادة أهل العلم أن يطلقوا هٰذا اللقب الشريف على كبير السن ـ ولو كان جاهلًا ـ ، أو من له في العلم قدمٌ ـ وإن كان =

الذي يُعجبه ويُحبُّه، ولا يسمِّي أحدًا باسمٍ يكرهه، ولا يُناديه، ولا يخاطبُه به.

٨ ـ وعليه أن يَكفَّ لسانَه عن لفظٍ قبيحٍ مَعيب ـ كأعضاء العورة ـ، فيَكني

= شابًا ـ، أما إطلاقها على كل أحد ـ ولو كان صالحًا «ملتزمًا» ـ، فلا.

وقد وجِّه سؤال للعلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ حول هٰذا الأمر، ونصُّه: «هل يصحُّ أن تطلقَ كلمة «الشيخ» لكل أحدٍ من الناس؟ ولا سيَّما أن هذه الكلمة أصبحت متفشيةً، فأرجو توضيح ذٰلك؟.

الجواب: كلمة «شيخ» في اللغة العربية لا تكون إلا للكبير ـ إما كبير السن، أو كبير القَدْر بعلمه أو ماله أو ما أشبه ذٰلك ـ، ولا تطلقُ على الصغير، لٰكن كما قلتَ: تفشَّت الآن حتى كاد يلقَّب بـ«الشيخ» مَن كان جاهلًا أو لم يعرف شيئًا، وهٰذا ـ فيما أرى ـ لا ينبغي، لأنك إذا أطلقتَ على هٰذا الشخص كلمةَ «شيخ» وهو جاهلٌ لا يعرف؛ اغترَّ الناسُ به، وظنُّوا أن عنده علمًا، فرجعوا إليه في الاستفتاء وغير ذٰلك، وحَصل بِهذا ضررٌ عظيم، وكثيرٌ من الناس ـ نسأل اللّٰه لنا ولهم الهداية ـ لا يبالي إذا سُئل أن يُفتي ولو بغير علم، لأنه يرى إذا قال: «لا أدري»؛ أن ذٰلك نقصٌ في حقه!! والواقع أن الإنسان إذا قال فيما لا يعلم: «لا أدري»، كان ذٰلك كمالًا في حقه، ولٰكنَّ النفوسَ مجبولةٌ على محبة الظهور إلا من عصم اللّٰه ﷻ. فالذي أرى: أنها لا تطلقُ كلمة «شيخ» إلا على من يستحقها، إما لكبره، أو لشرفِه وسيادتِه في قومه، أو لعلمِه، وهٰذا كما كان بعضُ الناس الآن يطلق كلمة «إمام» على عامةِ العلماء، حتى وإن كان هٰذا العالِم من المُقلِّدة يقول: «هو إمام»!! وهٰذا ـ أيضًا ـ لا ينبغي، ينبغي ألَّا يُطلقَ لفظ «إمام» إلَّا على مَن استَحقَّ أن يكون إمامًا، وكان له أتباع، وكان معتبرًا قوله بين المسلمين» انتهى.

* نقلًا عن «لقاء الباب المفتوح» (ص١٧٧).

قلت: والآن صارت هٰذه الكلمةُ مَشاعًا لكلِّ مَن أطلق لحيته، أو التزم التزامًا ظاهرًا بحفظِ القرآن ـ مثلًا ـ ! وكما أشار الشيخ رَحِمَهُ اللهُ؛ فإننا رأينا كثيرًا من إخواننا ـ هداهم اللّٰهُ تعالى ـ اغترُّوا بِهٰذا اللقب الذي أطلقه الناسُ عليهم، وأخذوا يتلاعبون بأحكامِ الشريعة كيفما اشتهَوا، ومنهم من تمادَى به العدوانُ أن جَعل من نفسه ميزانًا لتقويم الدُّعاة ـ بل العلماءِ الكبار ـ ، فيُجرِّح هٰذا، ويعدِّل ذاك، والمسكينُ قد لا يتقنُ أحكام «الطهارة»! فليُحذَرْ:

أولًا: من الاغترار بالألقاب.

وثانيًا: من أن نطلقَها على من لا يستحقُّها، وخاصةً هٰذا اللقب الشريف «شيخ»، فقد رأينا أنه لا يُطلق إلى على «كبير السن»، أو كبير القَدْر في «العلم الشرعي»، واللّٰهُ الموفق.

عنها لدى الضرورة[١].

٩ ـ وعليه أن يتَّخذَ الصدقَ في أقواله عادةً لازمةً وطبيعةً دائمة؛ فإن فيه السلامةَ والنجاح.

والكذابُ فاقدُ الثقةِ بين أهله، ولا صديقَ له[٢]، ولا يُقبلُ قولُه حتى في الصِّدق، وضررُه يعود على نفسه وغيره.

١٠ ـ وعليه ـ إذا اضطُرَّ لمعارضةِ أحد[٣] ـ أن يقول: «لعلَّ الشأنَ كذا».

١١ ـ وعليه ـ إذا رغِب لأحدٍ في أمر ـ أن يسألَه ما يتحمَّلُه طَبْعُه، وما تنشرحُ إليه نفسُه.

١٢ ـ ويجبُ عليه الاحترازُ عن الألفاظِ الحشويةِ[٤] ـ التي تتخللُ كلام بعض اللُكن والرُّعَّن[٥] ـ.

١٣ ـ كما يجب تركُ التَّضمين[٦]؛ فإنه أقبحُ داءٍ، وأسوأُ آفةٍ للوقار والبهاء، وفيه تجرئةُ السِّفلةِ على الوقاحة، وهي من أخلاق الأدنياء، سَرى داؤها إلى غيرهم من الترخيص لهم في الجلوس معهم والانبساطِ إليهم لإضحاكهم ورِضاهم بمعاشرتِهم، وما تضمينُهم القبيحَ إلا نَفَثاتِ سمومٍ تَسَرَّبُ في جسم الحكمة والأدب فتفسده.

١٤ ـ وعلى المتكلم أن يتجنَّبَ الحلفَ في كلامه ـ وإن كان صادقًا ـ؛

---

(١) أي: حتى الكناية عن العورة لا يكون بلا حساب، بل عند الضرورة فقط.

(٢) وبالرغم من هٰذا رأينا الكثيرَ من الناس صاحبوا الكذَبة، وائتمنوهم، وأدخلوهم بيوتَهم، وأخبروهم بأدقِّ أسرارِهم! فنعوذ باللّٰهِ من هٰذا.

(٣) أي: الاعتراض على كلامه.

(٤) **الحَشوية**: التي لا فائدة منها، واللّٰهُ أعلم.

(٥) **اللكن والرُّعَّن**: أهل اللَّكَانة ـ وهي الجهل ـ، والرُّعونة ـ وهي الحُمق ـ.

(٦) نوع من الكلام يستعمله أرباب المجون والخلاعة والمساخر. اهـ. (القاسمي).

توقيرًا للَّفظِ الكريم[١]، وتباعُدًا عن إيهام الدخَل[٢] في كلامِه لترويج مأرَبِه[٣].

١٥ ـ وعليه ألَّا يُباحثَ في المسائل المَذهبيَّةِ[٤] التي تولِّدُ الضغائنَ والتعصُّب؛ فإنها من أعظم آفاتِ العُمران، وأشدِّ عاملٍ على التفرقةِ والانقسام.

١٦ ـ وعليه ألَّا يكون مِكثارًا من القول، مستغرقًا الجَلسةَ في طولِ حديثه، مُلجِمًا[٥] الغيرَ عن المشاركة؛ فإن ذٰلك مُضجِرٌ للجلساء، ومِن دلائل الطَّيش والخِفَّة[٦]، فمَن بَسط لسانَه قُبض إخوانه[٧]، ودواؤه الإعراض[٨]؛ لأن حُسن الاستماع قوةٌ للمُحدِّث.

---

(١) أي: اسم اللّٰه تبارك وتعالى.

(٢) الدَّخَل: الفساد.

(٣) المأرب: الحاجة والغرض.

(٤) يقصد الخلافية.

(٥) مُلجِمًا: مانعًا.

(٦) يقصد خفة العقل «السفاهة».

(٧) أي: انقبضوا عنه وهجروه.

(٨) أي: عدم الإصغاء إلى كلامه.

١٥ ـ أدبُ جليسِ الأُمراء

* يَلزمُ جليسَهم:

١ ـ أن يكونَ متأدبًا بحُسن الأخلاق، نقيَّ الثوب، طيبَ الرائحة.

٢ ـ ذا معرفةٍ بالبلاغةِ والفصاحة، حافظًا لصواب الشِّعر ومُلَحِه ومُجونِهِ ونوادِره؛ يورد الحكاياتِ والفُكاهات، وضروبَ الأمثال في أوقاتِها.

٣ ـ كتومًا للأسرار، بعيدًا من النميمة، حَسَنَ المَحضَر للناس، يأتي في خطابِهم بضميرِ الغائب.

٤ ـ ولا يستعملُ ضميرَ الجَمْع في الإخبار عن نفسه.

٥ ـ ولا يكون جهيرَ الكلام ولا مَهموسَه[١].

٦ ـ مخفِّفًا مُدَّةَ الزيارةِ لهم؛ فإن في إطالتها ضِيقَ صدرِ المزور، ومُلالَ الزائر، وضياعَ الوقت عليهما.

○ قال حكيمٌ: «إذا حضرتَ مجالسَ الأمراء فاغضُضْ عينيك[٢]، ولا تقُلْ في غَيبهم ما لا تقوله في مَشهَدِهم، فإن حُرمةَ مجالستِهم في غَيبهم كحُرمتها في مشهدهم، ولا تأمنْ أن يكونَ لهم عينٌ[٣] ترفعُ إليهم أخبارَك، وتُورِدُ عليهم أسرارك.

وإذا حدَّثَك صاحبُ المجلس فاسمَعْ إليه، وأقبِلْ بوجهك وجُملتِك عليه[٤]، ولا تُعرِضْ عن كلامه وقوله.

---

(١) أي: لا يكون صاحب صوت عالٍ، ولا صوتٍ خفيض لا يُسمع.

(٢) أي: لا تنظر للأمير مباشرةً، ولا تنظر إلى متاع بيتِه.

(٣) العين: الجاسوس.

(٤) أي: لا تعطيه جانبك فقط.

وإذا أوردَ عليك خبرًا، أو أنشَدَك شِعرًا، أو طارَحَك[١] أمرًا ـ وأنت به عليمٌ، ولك به خبرٌ قديم[٢] ـ، فأظهِرْ له أنك لم تسمَعْه إلا منه، ولم تأخذْه إلا عنه؛ كما قيل:

وتَـراه يُصغي للحديثِ بسَمعِهِ ... وبقلـــبِهِ ولعلَّـــه أدرَى بـــهِ

واجعل لدِينك من دنياك نصيبًا[٣]، وكنْ على نفسِك رقيبًا، وصيِّرْ لكل جارحةٍ من جوارحك زِمامًا[٤]، ومنَ النُّهى والعقل زمامًا.

وإذا صاحبتَ أميرًا فتوخَّ[٥] جميلَ الاحترام، وتوقَّ سبيل الاقتحام[٦]، ولا تبدأْ بالمقال، ولا تَبسَّطْ بالسؤال[٧]، وإذا تكلَّمَ فأقبل عليه بوجهك، وأصغِ إليه بسمعك، ووكِّلْ بشفتيـهِ ناظِـرَك[٨]، وأشغِلْ بحديثـه قلبَـك وخاطرَك، واستمِعْه استماعَ مستحسِنٍ هاشٍّ له مستبشِر به متعجِّبٍ منه، وإن كنتَ تحيطُ به علمًا، وتحقِّقُه فَهمًا[٩].

ولا يدعوك فضلُ أُنسِهِ إليك ومداعبتُه إياك على ابتدائِه بالمَزْح والهَزْل، ومفاتحتِه بمـا يُستهجَـنُ[١٠] مـن القـول؛ فإزالـةُ الحشمـةِ توجبُ الغضبَ

(١) طارحَك: طرح عليك.
(٢) أي: تعرفه منذ زمن بعيد.
(٣) لعل المقصود: استخدم بعض مباحات الدنيا ـ كالشعر والأدب ـ للحفاظ على دينك؛ بدلًا من أن تنخرط معه في المعاصي من غيبةٍ ونحوها، واللَّهُ أعلم.
(٤) الزِّمام: الحبل الذي يُتحكَّم به في الدابة.
(٥) توخَّ: اقصِدْ.
(٦) أي: لا تقتحمْ عليه مجلسَه بلا استئذان. أو: لا تقتحم حياتَه وأمورَه الخاصةَ التي لم يُطلعك هو عليها.
(٧) أي: لا تسأل كيفما تشتهي.
(٨) أي: راقب كلامه.
(٩) هٰذا إذا لم يكن في كلامه ما يُغضِبُ اللَّهَ تعالى.
(١٠) يُستهجَن: يقبُح.

والإنكار»[١].

* وأما أستاذُ الأمير ومُعلِّمُه:

١ ـ فيلزمُه أن يُخرِجَ تعليمَه مَخْرجَ المذاكرةِ والمحاضرة ـ لا مَخرجَ التعليم والإفادة ـ ؛ لأن لتأخير التعليم خَجلةٌ يَجِلّ الأميرُ عنها؛ فإن ظهر منه خطأٌ أو زللٌ في قولٍ أو عمل عرَّض له باستدراكِ زلَلِه، أو إصلاح خَللِه، ولم يجاهِرْه.

٢ ـ وإذا أعطاه فضلَ إقبالٍ عليه فلا يحملُه ذٰلك على الإدلال عليه[٢] والإكثار إليه، فصار ذٰلك ذريعةً إلى مَللِه، ومفضيًا إلى بُعدِه؛ فإن الأمير متقسِّمُ الأخطار[٣]، مستوعَبُ الزمان، ليس له فراغُ المنقطِعين إلى العلم، ولا صبرُ المنفردين به.

٣ ـ ولْيحذرْ موافقةَ هواه فيما يجانبُ الدينَ ويضادُّ الحق؛ فإن في ذٰلك غضبَ الحق، ومقتَ الخَلْق.

○ وما أحسنَ قولَ الرشيد للأصمعي: «يا عبدَالملك، أنت أعلمُ منا، ونحن أعقلُ منك، لا تُعلِّمْنا في مَلَا[٤]، ولا تُسرِعْ إلى تذكيرنا في خلا، واتركنا حتى نبدأك بالسؤال، فإذا بلغتَ من الجواب حقَّ الاستحقاق، فلا تزِدْ إلَّا أن يُستدعى ذٰلك منك[٥]، وانظر إلى ما هو ألطفُ في التأديب، وأنصفُ في التعليم».

---

(١) أي: إزالة الحدود والفوارق توجب غضبه عليك وإنكاره.
(٢) الإدلال: إزالة الفوارق.
(٣) الأخطار: جمع «خاطر».
(٤) ملا: ملأ وجَمْعٍ من الناس.
(٥) أي: إذا أجبت بما يكفي، فلا تزد عليه إلا أن نطلبَ منك الزيادة.

١٦ ـ أدبُ جليسِ العامَّة

١ ـ على الجالس في مَحفَلٍ أن يجلس مستقيمًا غير مضطجع، ضامًّا ثوبَه.

٢ ـ وألَّا يُكثر الإشارةَ بيده.

٣ ـ ولا يتثاءبُ أو يتمطَّى.

٤ ـ ولا يَنزعَ عمامته، ويحُكَّ جلدةَ رأسه.

٥ ـ ولا يجلسَ فوقَ من هو أكبرُ منه مقامًا.

٦ ـ وأن يجلس في موضعٍ لا يُقامُ منه.

هٰذا من جهةِ أدبه في نفسه معهم، وأما من جهةِ حديثه:

○ فقال حكيمٌ: «إذا بُليتَ بالعوام فأدبُ المجالسة معهم: تركُ الخوض في حديثهم، وقلةُ الإصغاء إلى أراجيفهم، والتغافلُ عمَّا يجري من سوءِ ألفاظهم، والاحترازُ عن كثرة لقائهم والحاجةِ إليهم، والتنبيهُ على منكراتِهم باللُّطف والنصح عند رجاءِ القبول منهم».

○ وفي كتاب «النصائح الدينية»: «ينبغي للعالِم أن يكون حديثُه مع العامةِ ـ في حالِ مخالطتِه ومجالسته لهم ـ في بيان الواجبات والمحرمات، ونوافلِ الطاعات، وذِكرِ الثوابِ والعقابِ على الإحسان والإساءة، ويكونُ كلامُه معهم بعبارةٍ قريبةٍ واضحةٍ يعرفونها ويفهمونها، ويزيدُ بيانًا للأمور التي يَعلمُ أنهم ملابسون لها، ولا يسكتُ حتى يُسأل عن شيءٍ من العلم ـ وهو يعلمُ أنهم محتاجون إليه ومضطرُّون له ـ ؛ فإن علمَه بذٰلك سؤالٌ منهم بلسانِ الحال[1]، والعامةُ قد غَلَب عليهم التساهلُ بأمر الدين ـ علمًا وعملًا ـ ؛ فلا ينبغي للعلماء أن يساعدوهم على ذٰلك بالسكوت عن تعليمِهم وإرشادهم فيَعُمَّ الهلاك، ويعظمَ البلاء، وقلَّما تَختبـرُ عاميًّا ـ وأكثرُ الناس عامةٌ ـ إلا

(١) أي: مجرد علم العالِم بأحوال العامة؛ هٰذا في حد ذاته سؤال منهم أن يعلِّمَهم.

وجدتَه جاهلًا بالواجبات والمحرَّمات، وبأمورِ الدين التي لا يجوزُ ـ ولا يَسُوغُ ـ الجهلُ بشيءٍ منها، وإن لم يوجدْ جاهلًا بالكلِّ وُجد جاهلًا بالبعض، وإن عَلم شيئًا من ذٰلك وجدتَ علمَه به علمًا مسموعًا من ألسنةِ الناس؛ لو أردتَ أن تَقلِبَه له جهلًا فعلتَ ذٰلك بأيسر مؤونة؛ لعدم الأصلِ والصحة فيما يعلمُه.

وينبغي للعلماء ـ وخصوصًا منهم وُلاةُ الأحكام[1] ـ أن يعِظوا عامةَ المسلمين عند الاختصام إليهم، ويُخوِّفوهم بما ورد عن اللّٰه وعن رسوله [ﷺ] من التشديدات والتهديدات في الدعاوَى الكاذبة وشهادةِ الزور والأيمانِ الفاجرة، والمعاملاتِ الفاسدة ـ مثل الربا وغيره ـ ، ويذكروا لهم بعض ما ورد في الشرع من تحريم هٰذه الأمور وشدةِ العقاب فيها، وذٰلك لغلبة الجهل، وشدةِ الحرص، وقلَّةِ المبالاة بأمر الدين.

وعلى الجملة: فيتأكدُ على العلماء أن يجالسوا الناسَ بالعلم، ويحدِّثوهم به، ويبثُّوه لهم، ويكونَ كلامُ العالِمِ معهم في بيانِ الأمر الذي جاؤوا إليه من أجله؛ مثلما إذا جاؤوا لعقد نكاحٍ؛ يكون كلامُه معهم فيما يتعلقُ بحقوق النساء منَ الصَّداقِ والنفقةِ والمعاشرة بالمعروف ـ وما يجري هٰذا المجرى ـ ، ومثلما إذا حضَروا لعقدِ بيعٍ يكون حديثُه معهم في الشهادات وفي صحيح البيوع وفاسدها... ونحو ذٰلك.

وهٰذا خيرٌ وأولى في هٰذه المجالس من الخوض في فضولِ الكلام وما لا تعلُّقَ له بالأمر الذي من أجله جاؤوا، ولا بالدين رأسًا.

ولا ينبغي للعالِم أن يخوضَ مع الخائضين، ولا أن يصرفَ شيئًا من أوقاتِه في غير إقامةِ الدين.

وهٰذا الذي ذكرناه ـ من أنه ينبغي للعالِم ويتأكدُ عليه أن يَجعلَ مجالستَه

---

(١) يعني القُضاة.

ومخالطتَه مـع عامـةِ المسلميـن معمـورةً ومستغرَقـةً بتعليمهـم وتنبيههم وتذكيرهم ـ قد صار ـ في هٰذا الزمان بالخصوص ـ من أهم المهماتِ على أهل العلم؛ لاستيلاءِ الغفلةِ والجهل والإعراضِ عن العلم والعملِ على عامة الناس؛ فإن ساعدهم أهلُ العلم على ذٰلك بالسكوتِ عن التعليم والتذكير غَلب الفسادُ وعمَّ الضرر ـ وذٰلك مشاهَدٌ ـ لإهمالِ العامة أمرَ الدين، وسكوتِ العلماء عن تعليمهم وتعريفِهم، ولا حول ولا قوة إلا باللّٰه» انتهى.

وتتمةُ ذٰلك في «أدب النصيحة»؛ فاستمِع لما نتلوه:

ಬಬಡಡ

١٧ ـ أدبُ النَّصيحة

مِن أهمِّ الواجبات بذلُ النصيحةِ العامةِ لنوع الإنسان كافةً؛ وهي الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر اللذانِ نوَّهتِ الشرائعُ بعلوِّ شأنِهما، وجعلتهُما من أهمِّ الوسائلِ النافعةِ في تقويم أَوَدِ الأُمَّة[١]، وتشييدِ دعائم هيأتها الاجتماعية؛ غيرَ أن النصيحةَ لا تُجدي إلا باستيفائها شروطَها؛ من الصدق، والإخلاص، واللِّين في القول، والمحبة، والتجرُّدِ عن شوائبِ الخشونة، والبذاءةِ في اللسانِ بالسِّباب والشتم؛ مما تَنفِرُ منه الطباعُ السليمة.

وعلى المنصوح لهُ أن يكون ممن رَوَّضَ نفسَه[٢] على الانصياع والقبول لكلمةِ الحق من غيرِ مشاحَّةٍ ولا تعصُّب[٣]، فتوجد إذ ذاك القابليةُ التامةُ لما بعد ذٰلك من التخلُّق بالأخلاقِ الحميدة والتحلِّي بحُلَى[٤] الآدابِ الحقَّة، وإلا فما دام العنادُ في قبول كلمةِ الحقِّ مستوليًا على القلب بجُنود التعصب الأعمى[٥]؛ فمِن المحال أن يُرجى لدائه شفاء، ولاندمالِ[٦] جُرحِه دواء، ومهما بلغت الأنفُسُ من الكمال شأوًا كبيرًا، وحَصَلت من السعادة على درجةٍ عظيمة؛ فهي في حاجةٍ إلى النصح والإرشاد.

○ وما ألطفَ ما قال بعضُ الأخيار في هٰذا الموضوع: «الدَّعوةُ إلى الهدى بنورِ اللّٰه ورسوله من أهمِّ المشروعات وأكبرِ الوظائفِ الدينية، وتعليمُ الدين وبثُّ أصوله في نفوس أهلِه فريضةٌ لا يصحُّ تركُها والتقاعسُ في أدائها بوجهٍ

(١) الأَوَد: الاعوجاج.
(٢) روَّض: مرَّن وعوَّد.
(٣) المشاحَّة: المخاصمة. والتعصُّبُ يكون للعادات والأصحاب والكبراء.
(٤) الحُلَى: جمع «حِلية».
(٥) وهٰذا ـ وربِّي ـ حال أكثر أهل الزمان، واللّٰهُ المعين على ما نحن فيه.
(٦) الاندمال: الالتئام.

من الوجوه، ولا مجالَ للنِّزاع في أن أحكمَ الوسائل وأقومَ السُّبلِ لتربيةِ الشعوب وترقيةِ الأمم: هو قيامُ كبارِ الأخيارِ وقادةِ الأفكارِ بدعوتِها للبحث في أسرارِ الشرائع، وفي مذاهبِ الحياة، والنظرِ في طبائع الكون ونواميس[١] العُمران، وأنه ينبغي على مَن يأنَسُ من نفسه القدرةَ على أداء هٰذا الواجب المِلِّي[٢] وبَثّ رُوح اليقظة بين أفراد تلك الأمة: أن يسعى لخير قومِه؛ سالكًا سبيلَ الجراءةِ والإقدام والثبات، فلا يَسأَمُ مِن تكرارِ الدعوة وموالاةِ[٣] الإرشاد إلى ما يَتوسَّمُ[٤] البلوغَ ـ بسببِه ـ إلى الغايةِ المبتغَاةِ من سُبل التقدم ومناهج الترقي؛ فقد قالوا: «إن مقاليدَ القلوب بأيدي الخطباء، وأَزِمَّةَ[٥] النفوس بأيدي الكُتَّاب». وقال الصاحب بن عبَّاد: «إذا تكرَّر الكلام على السمع تقرَّرَ[٦] في القلب».

وناهيك بالخَطابةِ والكتابة اللتين يُعدَّانِ من أهم دعائم العُمران التي قام عليها بناءُ المجتمع الإنساني، فإنك لا تجد جمعيةً تألفت أو دولةً قامت أو دِينًا انتشر أو شرعًا تقرَّر؛ إلا على إحدى هاتين الدعامتين[٧] ـ أو عليهما معًا ـ ، فهي الآلةُ المؤثِّرة في النفوس للاقتناع بالغرض الذي تحاولُ جذبَها إليه بمؤثِّراتِ الترغيب والترهيب، والزجرِ والحضِّ، والوعد والوعيد، ونحو ذٰلك.

وهٰكذا كان حالُ السلف من أئمتنا ومُرشدينا ممن أُوتوا سِحرَ البيان وفصلَ

---

(١) النواميس: الأنظمة.

(٢) المِلِّي: نسبةٌ إلى المِلَّة الحنيفية.

(٣) الموالاة: التتابع.

(٤) يتوسَّم: يعتقد ويتفرَّس.

(٥) الأزِمَّة: جمع «زِمام»، وهو الحبل الذي يُتحكم به في الدابة ـ كما سلف ـ .

(٦) تقرَّر: ثبت واستقر.

(٧) يعني: الخطابة، والكتابة.

الخطاب، وبذلك جاء قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران]».

ﮊﮋﮌﮍ

١٨ ـ أدبُ المُناظرة

ذَكَر حُجَّةُ الإسلام الغزَّالي في الباب الرابع من «إحيائه»: أن الذين يزعمون بأن غرضَهم من المناظرات المباحَثةُ عن الحق ـ لأن الحقَّ مطلوبٌ والتعاونَ على النظر في العلم وتواردِ الخواطر مفيدٌ ومؤثِّر ـ ما هو إلا تلبيس.

○ قال: «ويُطلِعُك على هٰذا التلبيس ما ذكروه، وهو أن التعاونَ على طلب الحق منَ الدين، ولٰكن له شروطٌ وعلاماتٌ ثمان:

الأول: ألَّا يشتغلَ به ـ وهو من فروض الكفايات ـ مَن لم يتفرَّغْ من فروض الأعيان[١].

الثاني: ألَّا يرى فرضَ كفايةٍ أهمَّ من المناظرة؛ فإن رأى ما هو أهمُّ منها عَصى بفعلِه[٢].

الثالث: أن يكون المُناظرُ مجتهدًا يفتي برأيه ـ كما كان يفعله الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ ، فأمَّا مَن ليس له رتبةُ الاجتهاد، وإنما يُفتي ناقلًا عن مذهبِ صاحبِه ـ بحيث لا يتركُه ولو ظهر له ضَعفُه ـ ، فأيُّ فائدةٍ له في المناظرة[٣]؟!.

---

(١) هٰذا ليس شرطًا في المناظرات الشرعية؛ اللهم إلا أن يكون اشتغالُه بها يؤدِّي إلى إهمال فرضٍ عيني؛ فحينئذٍ يتوجَّه الكلام.

(٢) وهٰذا ـ أيضًا ـ كسابقه؛ إنما يَعصي إذا أدَّى اشتغاله بالمناظرة إلى إهمال فرض كفائيٍّ هو أهم منها.

(٣) الناسُ طبقات:
الأولى: المقلِّدون ـ الذين يأخذون كلام العلماء بغير دليلٍ، ولا يَفقَهون وجهَ الدليل ـ ، وهٰؤلاء لا يجوزُ لهم ـ بلا ريب ـ المناظرةُ والمجادلة؛ وإنما يتعلَّمون ويَعمَلون.
الثانية: طالبُ العلم المُميِّز بين أقوال العلماء عند حضور الأدلة أمامَ ناظِرَيهِ؛ وهٰذا يجوزُ له المناظرةُ بما ترجَّح لديه.
الثالثة: العلماءُ المجتهدون، وهٰؤلاء لا خلافَ في جواز مناظرةِ بعضهم البعض؛ سواءٌ كانوا مجتهدين اجتهادًا مطلقًا، أو اجتهادًا في مذهبهم ـ فقط ـ ، أو اجتهادًا في بعض =

الرابع: ألا يناظِرَ إلَّا في مسألةٍ واقعة أو قريبةِ الوقوع غالبًا[١].

الخامس: أن تكون المناظرةُ في الخَلوةِ أحبَّ إليه ـ وأهمَّ ـ من المحافل، خوفًا من تحريكِ دواعي الرياء.

السادس: أن يكونَ في طلب الحقِّ كناشدِ ضالةٍ[٢]، لا يفرِّق بين أن تَظهرَ الضالةُ على يدِه أو على يدِ مُن يُعاونُه، ويرى رفيقَه مُعِينًا ـ لا خَصمًا ـ، ويشكرُه إذا عرَّفه الخطأ، وأظهرَ له الحق؛ كما لو أخذ طريقًا في طلب ضالَّتِه فنبَّهُه صاحبُه على [أنَّ] دابتِهِ في طريق آخرَ؛ [فإنه] كان يشكرُه ولا يذُمُّه، وكان يُكرمُه ويفرحُ به، فهٰكذا كانت مشاوراتُ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم؛ حتى إن امرأةً رَدَّت على عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ونبَّهته على الحقِّ في خطبتِه ـ على ملإٍ من الناس ـ، فقال: «أصابتِ امرأةٌ، وأخطأ رجلٌ»[٣]، وورد رجلٌ على عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: «أصبتَ

= المسائل الشرعية.
والأصلُ الأصيل والهدفُ المنشودُ من هٰذه المناظرات ـ كما أشار الإمام الغزَّالي رَحِمَهُ اللَّهُ ـ الوصولُ للحق، ويحرُم تمامًا الانتصارُ لقولٍ أو رأيٍ إذا ظَهر للمُناظر ضَعفُه، ولو كان رأيَ أقربِ الشيوخ إلى قلبه وأعظمِهم عنده، واللَّهُ تعالى أعلم.

(١) نعم؛ فإنَّ المسائل التي يندُرُ فيها الوقوعُ؛ فإن المجادلةَ فيها ونَبشَ الأحقادِ والضغائنِ في القلوب مِن أحبِّ الأمور للشيطان الرجيم؛ وهٰذا بخلافِ سؤال العالِم لطلَّابه عن مثل هٰذه المسائل؛ فيجوز ـ على الصحيح ـ من باب التمرين وإشغال الفكر.

(٢) ناشد الضالة: الباحث عن الشيء الضائع.

(٣) وهٰذا هو الأثرُ المرويُّ في المُغالاة في المهور؛ ونصُّه: عن الشعبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «خَطب عمرُ بن الخطاب الناسَ، فحَمِد اللَّهَ تعالى وأثنى عليه، وقال: ألَا لا تُغالوا في صَدَاقِ النساء، فإنه لا يبلُغُني عن أحدٍ ساقَ أكثرَ من شيءٍ ساقه رسولُ اللَّه ﷺ ـ أو سِيق إليه ـ إلَّا جعلتُ فَضلَ ذٰلك في بيتِ المال. ثُم نزل؛ فعَرَضت له امرأةٌ من قريب، فقالت: يا أميرَ المؤمنين، أكتابُ اللَّهِ تعالى أحقُّ أن يُتَّبعَ أو قولُك؟ قال: بل كتابُ اللَّهِ تعالى؛ فما ذاك؟ قالت: نَهيتَ الناسَ آنِفًا أن يُغالوا في صداقِ النساء، واللَّهُ تعالى يقول في كتابه: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ [النساء: ٢٠]!. فقال عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كلُّ أحدٍ أفقهُ من عمرَ! مرَّتين أو ثلاثًا ـ وفي لفظٍ: أصابت امرأةٌ وأخطأ عمرُ ـ؛ ثُم رجع إلى المِنبر، فقال للناس: إني كنتُ نَهيتُكم أن تُغالُوا في صداق النساء، ألَا فلْيفعلْ رجلٌ في ماله ما بدا له». =

وأخطأتُ، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف]».

السابع: ألَّا يَمنَعَ مُعِينَه[1] في النظر منَ الانتقال من دليلٍ إلى دليل، ومن إشكالٍ إلى إشكال، فهٰكذا كانت مناظراتُ السلف.

الثامن: أن يُناظِرَ مَن يتوقعُ الاستفادةَ منه ممَّن هو مشتغلٌ بالعلم[2]».

هٰذا ملخَّصُ ما ذكره الغزَّالي ـ عليه الرحمة ـ وقد أطال فأطاب، وجوَّد الأمثلةَ في ذٰلك فليُراجَعْ[3].

○ ومن كلامه ـ عليه الرحمة ـ : «فانظرْ إلى مُناظِري زمانِك اليومَ؛ كيف يسْوَدُّ وجهُ أحدِهم إذا اتَّضح له الحقُّ على لسانِ خَصمه، وكيف يخجلُ به، وكيف يجتهدُ في مجاهدتِه بأقصى قُدرته، وكيف يَذمُّ مَن أفحمَه طولَ عمره،

= وهٰذا الأثر اختلف فيه العلماء على قولين:

١ ـ منهم من قال: «أثرٌ باطلٌ لا يصح». انظر: «عودة الحجاب» ـ للعلَّامة المقدِّم ـ (٢/ ٣٠٦)، وتحقيق «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٣٧ ـ بتحقيق الشيخين الألباني وعليِّ بن حسن ابن عبدالحميد)، و«إرواء الغليل» ـ للعلَّامة الألباني ـ (٦/ ٣٤٨)، و«تُحفة العَروس» ـ للشيخ الإستامبولي ـ (٧٦، ٧٧).

٢ ـ ومنهم من قال: «أثرٌ صحيح». كالحافظِ ابن كثير في «التفسير» (٣/ ٣٠٤)، حيث قال عن بعض طُرقه: «وإسنادُه جيِّدٌ قوي». وكذا الشيخ الفقيه مصطفى بن العدوي في كتابه القيِّم «جامع أحكام النساء» (٣/ ٣٠٠)؛ حيث قال ـ بعد إيراد عدَّةِ طُرقٍ للأثر ـ : «حسنٌ لغيره»، وجوَّده الحافظ السَّخاوي، كما في «إتحاف السادة المتقين»، للإمام الزَّبيدي (١/ ٤٦٤)، وكذا الإمام السيوطي، كما في كتاب «الكشف عن حقيقة إحياء علوم الدين» ـ وهو كتابٌ عليه تحفُّظاتٌ كثيرة في منهج النقد ـ (١/ ٦٩).

(١) يقصد مُناظِرَه.

(٢) ومن فضائح الزمان: أننا رأينا أُناسًا يجلسون للمجادلة والمناظرة مع من هو من أجهل خلقِ اللّٰهِ تعالى، ولو كانوا يعقلون لما جلسوا إلا مع من يستفيدون منهم.

(٣) وما سبق أورده الإمام أبو حامد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الإحياء» في كتاب «العلم»، الباب الرابع، وعنوانه: «سبب إقبالِ الخلق على علمِ الخلاف، وتفصيلُ آفاتِ المناظرةِ والجدل، وشروطُ إباحتها»، فانظر «الإحياء» (١/ ٢٣٩ ـ بعنايتي).

ثم لا يستحي من تشبيهِ نفسه بالصحابةِ رَضِوَاللَّهُعَنْهُمْ في تعاوُنِهم على النظر في الحق!!».

○ وذَكر أيضًا ـ عليه الرحمةُ ـ من آفاتِ المناظرة: «الاستكبارُ عن الحق، وكراهتُه، والحرصُ على المماراة فيه، حتى تصيرَ المماراةُ فيه عادةً طبيعيةً فلا يَسمع كلامًا إلَّا وينبعثُ من طبعِه داعيةُ الاعتراض عليه[(١)]؛ حتى يغلِبَ ذٰلك على قلبه في أدلةِ القرآن وألفاظِ الشرع، فيَضربَ البعضَ منها بالبعض، والمِراءُ في مقابلةِ الباطل محذور[(٢)]، وقد سوَّى اللَّهُ تعالى بين مَن افترى على اللَّه كذبًا، وبين من كذَّب بالحق؛ فقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ﴾ [العنكبوت: ٦٨]».

○ وقال أيضًا ـ عليه الرحمة ـ في «فَيصل التفرقة»[(٣)]: «فإن تخبَّطَ في جوابِ هٰذا ـ يعني ما قدَّمه من كلامه[(٤)] ـ ، أو عَجَز عن كشف الغِطاءِ فيه،

---

(١) في المطبوع: «الإعراض عنه»، والتصحيحُ من «إتحاف السادة المتقين»، و«الإحياء» الطبعة المحققة ـ ط: «دار المنهاج» ـ (١/ ١٧٥).

(٢) كما روى أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «مَن ترك الكذبَ وهو باطلٌ بُني له قَصرٌ في رَبَضِ الجنة، ومَن تَرك المراءَ وهو مُحِقٌّ بُني له في وسطها، ومَن حَسَّن خُلقَة بُني له في أعلاها». رواه الترمذي (١٩٩٣)، وابن ماجه (٥١)، وضعَّفه الشيخ الألباني في «الضعيفة» (١٠٥٦) و«ضعيف الجامع» (٥٥٢٢)، بينما حسَّنه لغيره الشيخ شعيب الأرنؤوط في التعليق على «سنن ابن ماجة» (١/ ٣٥).
وروى أبو أُمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «أنا زعيمٌ ببيتٍ في رَبَض الجنَّة لمن تَرك المراءَ ـ وإنْ كان مُحِقًّا ـ ، وببيتٍ في وَسط الجنة لمن تَرك الكذبَ ـ وإن كان مازحًا ـ ، وببيتٍ في أعلى الجنَّة لمَن حَسَّن خُلقَه». رواه أبو داود (٤٨٠٠)، والطبراني في «الكبير» (٧٤٨٨)، والبيهقي في «الشُّعب» (٨٠١٧)، و«السنن الكبرى» (١٠/ ٢٤٩)، وحسَّنه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٧٣) و«صحيح الجامع» (١٤٦٤)، وكذا الشيخ شعيب الأرنؤوط في تحقيق «سنن أبي داود» (٧/ ١٧٩).

(٣) يقصد كتاب: «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة»؛ لأبي حامد الغزَّالي رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٤) وكان هٰذا الكلام في الفصل الثاني من الكتاب المذكور، تحت عنوان: «التكفير بسبب =

فاعلم أنه ليس من أهل النظر، وإنما هو مقلِّدٌ، وشرطُ المقلِّدِ أن يسكتَ ويُسكَتَ عنه[١]؛ لأنه قاصرٌ عن سلوك طريق الحِجاج، ولو كان أهلًا له كان مستتبَعًا[٢] ـ لا تابعًا ـ وإمامًا ـ لا مأمومًا ـ ؛ فإن خاض المقلِّدُ في المحاجَّة؛ فذٰلك منه فضول، والمشتغلُ به صار كضاربٍ في حديدٍ بارد وطالبٍ لصلاح الفاسد...» إلخ.

○ وقال الإمام تقيُّ الدين[٣] ـ عليه الرحمة ـ : «إن المبتدِعَ ـ الذي بَنى مذهبَه على أصلٍ فاسد ـ متى ذكرتَ له الحقَّ الذي عندك ابتداءً؛ أخذ يعارضُك فيه؛ لِمَا قام في نفسه من الشُّبهة، فينبغي ـ إذا كان المناظِرُ مدَّعِيًا أن الحقَّ معه ـ أن يُبدأ بهدم ما عنده، فإذا انكسر وطَلب الحقَّ فأعطِهِ إياه، وإلَّا فما دامَ معتقدًا نقيضَ الحقِّ لن يَدخُلَ الحقُّ إلى قلبه؛ كاللَّوح الذي كُتب فيه كلامٌ باطلٌ؛ امحُهُ أولًا، ثم اكتب فيه الحق» اهـ.

ولقد ذكرتُ أن ذٰلك كان قاعدةً للإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مناظَرة المبتدِعين.

❁ ❁ ❁

= الاختلاف المذهبي ناتج عن التقليد»، والظاهر أنه عنوان من محقق الكتاب.

(١) أي: يسكتُ فلا يحلُّ له أن يجادِل ـ وهو جاهلٌ لا يعي الأدلةَ الشرعية، ولا مدلولاتِها ـ ، وكذٰلك يُسكت عنه؛ فلا يناظرُه أحدٌ لأنه أصالةً ليس أهلًا للتناظر.

(٢) بفتح العين: أي: يتبعه الناس ويقلِّدونه.

(٣) «جواب أهل الإيمان في تفاضل القرآن». (القاسمي).
قلت: والكتاب لشيخ الإسلام ابن تيمية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.



الباب الخامس

القوانينُ الصِّحية وتوابعُها

الباب الخامس
القوانينُ الصِّحيَّة وتوابعُها

١ ـ أدبُ حِفظِ الصحَّة

صحةُ الجسم من أعظم النِّعَم التي يتمتعُ بها المرءُ في هٰذه الحياة، فيجبُ عليه أن يُراعيَها ـ بما يحفظُها ويباعدُها من ضَعفها وانحلالِها ـ مراعاةً أكيدة؛ فلا يُسمحُ له بالتقصير فيها بوجهٍ ما، ومَن ذا الذي يُحصي فوائدَ العافية، وهي التي بها قوامُ الإنسان ووجودُه، ومَن ذا الذي لا يَرغبُ في النجاة من الأمراض العائقةِ عن كلِّ عملٍ ديني ودنيوي؟!.

والعقلُ أكبرُ مرشِدٍ إلى أنَّ مَن يعتني بجَودةِ طعامه وشرابه ونظافةِ جسده ولباسِه ومسكنه وانتقاءِ الهواء، واجتنابِ ما يُنهك القوى: أقربُ إلى الصحةِ[١] والعافيةِ ممن يُهمل ذٰلك.

نعم؛ يندُرُ وجودُ من ينالُ تمامَ الصحة ـ من جَميع الوجوه ـ ولا يدركُه المرض، ولٰكن هٰذا لا يَمنعُ من الاهتمام بالوسائطِ المقرَّرة[٢] لحفظِ الصحةِ وترقيتِها إلى أعلى ما تصلُ إليه يدُ الإمكان.

وأَخَصُّ أسباب المرض: ما ينشأُ عن فساد الهواء الذي يُستنشَق، والماءِ الذي يُشرَب، والطعامِ الذي يؤكَل، واللباسِ والمساكنِ التي تكمُنُ جراثيمُ الأمراض في أقذارها، وسنتكلمُ على آداب كلٍّ منها قريبًا.

وقد بَحث الأطباءُ في هٰذه السِّنينَ الحديثةِ في سبب الأمراض التي يمكنُ

(١) هٰذا خبر «أنَّ» في السطر السابق.

(٢) يقصد: الأسباب المعلومة.

منعُها، وعرَفوا أنه عائدٌ إلى أجسامٍ حيةٍ دقيقةٍ ـ لا تشاهَدُ إلا بالمَيكروسكُوب «النظَّارة المكبِّرة» ـ تدخلُ الجسدَ، وتتكاثرُ فيه ـ في أقربِ وقت ـ تكاثرًا لا يُحصى، وإذا انحصرتْ في مكانٍ واحد ـ كالحَلْق ـ تكوَّن منها سمومٌ يمتصُّها الدم، ويحملُها في دَورته إلى جميع الجسد، فيَحدُث من ذٰلك حُمَّى واضطرابٌ عامٌّ قد يؤدِّي إلى الموت.

ثم اشتغلوا[1] بدرسِ صفاتِ هٰذه الأجسام ـ على أنواعها ـ ، وما يتعلقُ بحياتِها، وكيفية تولُّدِها ونموِّها وموتِها، وأخرجوها من الجسد، وربَّوها وعالَجوها بطرقٍ مختلفة ليَعرفوا ما الذي يقتلُها، والسبيلَ إلى إدخال قواتلها في الجسد بلا ضررٍ على الحياة، وكثيرٌ منهم متفرِّغٌ لهٰذا الدرس الجليل[2]، وهم على أملِ النجاح الكبير.

وقد ثبت لديهم أن هٰذه الجراثيمَ ـ أو الأعداء ـ تنتشرُ منَ المصابين بها في الهواء، وربما خالطتِ الطعامَ والماء، فيكونُ الأصحَّاءُ عُرضةً لها على الدوام، وتَحقَّق ـ أيضًا ـ أنها تدخلُ أجسادهم، ولٰكنَّها لا تُسبِّبُ المرَض إلا في بعضهم.

واتَّضح لهم من درسِ أجهزةِ الجسد بالميكروسكوب أن في الدم خلايا تسمى بـ«كُرَيات الدم البيضاء» تجري فيه، فإذا دخلتِ الجراثيمُ المَرضيةُ الجسدَ افترستها الأجسامُ المذكورة وأهلكَتْها، فيَسلمُ الإنسانُ من غائلتها[3]؛ هٰذا إذا كانت الخلايا صحيحةً قويةً كافيةً لمقاومةِ العدوِّ، وأما إذا ضعُفت مع ضعفِ الجسد ـ بسبب فسادِ الهواء من ازدحامِ السكَّان، أو الغازاتِ المنبعثةِ من الكُنُف والمراحيض والبلاليع، والإسرافِ والإفراط بالشهوات، أو التعَبِ المُفرِط، أو نقصِ الطعام، أو رداءته، أو الخوفِ من الغمِّ ـ : تغلَّبت

---

(١) يعني الأطباء ـ الذين سبق ذكرهم في أول الفقرة السابقة ـ .
(٢) يعني علم محاربة الجراثيم.
(٣) الغائلة: الشرور.

عليها الجراثيمُ المرَضية، وأهلكتها، وفتكت بالجسد، وأثارت المرض، فإذا دخلتْ هٰذه الجراثيمُ الجسدَ[١] حَدث فيه قتالٌ عنيف بينها وبين جيش الخلايا المذكورة؛ لتدورَ الدائرةُ على الفريق الضعيفِ منهما، وهو شبيهٌ بقول القدماء: «إن الطبيعةَ والمرض جسمانِ يتقاتلان، والغَلَبَةُ للقويِّ منهما».

ومِن الأمراض ما له سببٌ غيرُ الجراثيم المرَضية، والتفصيلُ في كتب الطب، فسبحانَ مَن علَّم الإنسان ما لم يعلم.

ﮋﮊﮉﮈ

---

(١) في المطبوع: «فجراثيم الجسد»، ولعلَّ الأصحَّ ما أثبتُّه.

٢ ـ أدبُ السَّكنِ وتنقيةِ الهواء

١ ـ ينبغي أن يكونَ المسكنُ بعيدًا عن المياه الراكدة[١]، وعن مطارح[٢] القاذوراتِ والبالوعاتِ والمعاملِ التي يَنشأ عنها فسادُ الهواء، وأن يكونَ مضيئًا متجهًا لنورِ الشمس، ولذا كان مَن يقطُنُ في غُرَفٍ مظلمةٍ أضعفَ وأكثرَ مضرَّةً ممن يسكُنُ في غرفٍ مضيئةٍ تستقبلُها الشمس.

٢ ـ ويلزمُ لكل إنسانٍ مقدارُ عشرةِ أمتارٍ مكعَّبةٍ من الهواء ـ ولا سيما إذا كان قَبْوًا ـ.

٣ ـ وينبغي إبعادُ الأشياء المتخمِّرة ـ أو المتعفِّنة ـ عن المنازل، ودوامُ تنظيفِها، ومراعاةُ تجديدِ الهواء بفتح النوافذ مِرارًا.

ولْيَحذر من إغلاق النوافذ على الناس المزدحِمين في محلٍّ واحد كالشتاء؛ إذ يُمتنع تجدُّدُ الهواء فيها فيَفسُدُ بأنفاس الجالسين، فينشأ عنه أخطارٌ شتَّى.

٤ ـ ولْيَحذر ـ أيضًا ـ من استنشاقِ هواءِ الشَّمعةِ ساعةَ طَفئِها، فله سرعةُ ضررٍ لِما ينشأُ عنه من الاختناق.

٥ ـ ويجبُ الاحتراسُ ـ أيضًا ـ من الفحم الغير تامِّ الاحتراق لعِظَمِ ضررِه.

○ قال بعضُ الحكماء: «مِن دواعي الصحةِ الاعتيادُ مِن زمن الطفولية على النوم والشبابيكُ مفتوحةٌ في جهةٍ نظيفة؛ من غير تعرُّضٍ لمجرى الهواء».

وذٰلك لأقوياء البِنيةِ السالمينَ من الأمراض، وإنَّ أكثرَ الأمراضِ المنتشرةِ في البيوت من عدم الاعتناء بتجديدِ الهواء، وإن الاعتناء بصفاءِ الهواء يجبُ بقَدْر الاعتناءِ بنظافةِ المأكولات والمشروبات، وإن جراثيمَ الأمراض تنقطعُ من الأماكن التي يدخلُها الضياءُ والهواءُ الصافي، كما تكثُرُ في الأماكن

(١) لأنها كثيرًا ما تتعرض للعفونات والحشرات وإلقاء القاذورات فيها.
(٢) المطارح: الأماكن التي يُطرح فيها.

المحرومةِ منهما.

○ وقال حكيمٌ: «ليُعلم أن نقاءَ الهواء معناه خلوُّه من موادَّ سامةٍ تخالطُه، وأَخَصُّ هٰذه المواد السامةِ ثلاث:

الأولى: أبخِرةٌ منبعثةٌ من الجسد.

الثانيـة: أبخِرةٌ منبعثةٌ من الأقذار.

والثالثة: أبخِرةٌ منبعثةٌ من المستنقعات».

أما الموادُّ المنبعثة من الجسد فهي: ما يخرجُ منه بواسطةِ البُخار الرِّئوي والجِلدي، وللأبخرة المذكورةِ رائحةٌ خصوصيةٌ تنتشر في[1] الأثوابِ والأسِرَّةِ والفُرُشِ وتلتصقُ بالجُـدران، وقـد تدوم زمنًـا طـويلًا، وهي السببُ العظيم الناشئُ من ازدحام المجتمِعين ـ إذ لم يتجدَّدْ فيها الهواء ـ ، فلا يخرجُ الإنسان منها إلا ويشعُرُ بتعبٍ أو صداعٍ أو ثُقلٍ في الرأس؛ لا يزول إلا بعد التعرُّضِ للهواء المطلَق برهةً.

وشاهَدَ كثيرٌ من الأطباء موتى اغتالتْهم يدُ المنون من ازدحام شديدٍ في أماكنَ محصورة، ولهم إحصاءاتٌ في ذٰلك شتى.

فيتَّضح ـ مما تقدم ـ أن تبديلَ الهواءِ في المساكن من الأمور الضروريةِ لحِفظِ الصحةِ ومَنْعِ المرض، وأن نومَ كثيرينَ في غرفةٍ واحدةٍ مغلقةِ النوافذ من العادات المُضرَّة.

فإذا لم يمكن تقليلُ عدد النيام تُرك بعضُ النوافذ مفتوحًا لأجل إبدالِ ما فَسد منَ الهواء بالنقيِّ منه.

وكذٰلك الازدحامُ في المساجـدِ والمـدارس يوجبُ تطهيرَ الهواءِ فيها بواسطة فتحِ النوافذِ المتقابلة. وأما خوفُ العامة من دخول الهواءِ البارد إلى البيوت فوهمٌ؛ لأنه إذا كان نقيًّـا فهـو ضروريٌّ للصحة ـ ولو مدةَ النوم ـ ؛

(١) في المطبوع: «بها»، ولعل الأصح ما أثبتُّه ـ إن شاء اللّٰه ـ .

بشرطِ أن يَبعُدَ الفراشُ عن مَجرى الهواء البارد، وربما كان أقلَّ ضررًا من تنفُّس الهواء الفاسد.

وكذا يقال في اجتنابِ ما فَسد من هواءِ الأقذار والمستنقَعات؛ فإن أضرارَ استنشاقه جمَّةٌ، والتفصيلُ في كتب تقويمِ الصحة.

ﮋﮊﮉﮈ

٣ ـ أدبُ النَّوم

١ ـ يُجتنبُ النومُ في محِلٍّ غيرِ مسقوف؛ لأنه يكون عُرضةً للتغيُّراتِ الجويَّة.

٢ ـ ولا يغطِّي الرأسَ غِطاءً ثقيلًا، ولا يَشُدُّ برباطٍ أصلًا.

٣ ـ ولا يكونُ الفراشُ يابسًا ولا ليِّنًا؛ آخِذًا في الارتفاع بالتدريج إلى جهةِ الرأس.

٤ ـ ولا ينامُ على بطنه؛ لإعاقتِه حركةَ الأعضاء البطْنية والظَّهْرية، ولا على الظَّهر، وأن تكون الأعضاءُ مُنثَنِيةً نصفَ انثناء؛ لأنه يسهِّلُ مرورَ الدم في الأوعية وراحةَ الأعضاء.

٥ ـ وأن يكون غطاءُ الرأس خفيفًا، والأقدامُ ساخنةً، والهضم تامًّا، والفكرُ ساكنًا، فإن كثرةَ التفكُّر وإجهادَ البال عند التأهُّبِ للنوم من أهمِّ أسباب الأرَق.

٦ ـ وأن يَبعُدَ عن مكان اللغَط، وعن الضوءِ الضعيف من زيتِ الكاز[1]؛ لأنه يؤدِّي إلى ضيقِ النفَس واختناقِ الصدر برديءِ رائحته التي تُفسد الهواء.

٨ ـ وأن يُخرج باقةَ الزهور ليلًا من المكان؛ لأنها تُفقِدُ الهواءَ أوصافَه الجيدة.

٩ ـ ولا بأسَ بالقيلولة في النهار الطويل، أو طلبِ الجسمِ لها مطلقًا.

١٠ ـ ومدةُ النوم من ستِّ ساعاتٍ إلى ثمان، والزيادةُ عليها تورِّثُ العقل خُمودًا.

أما أسبابُ الأرَق:

فقد تكون أدبيَّةً، مثل الاهتمام بالأشغال، والقلقِ للمستقبل، والتعبِ

---

(١) أي: الجاز.

العقلي، وتعبِ الوجدان، والحُزنِ، وتبكيتِ القلب[1].

وقد ينشأ الأرقُ من أمراضٍ طبيعيةٍ صِرفة.

وفي الغالب أن المرءَ يُحرَمُ النومَ بتساهله؛ لأنه لا يُحسِنُ الاضطجاع على فِراشه، ولا يتخذُ الأسبابَ اللازمة، فإن أردتَ أن تنام:

١ ـ فعليك أن تتخذَ غرفةً بعيدةً عن الضجَّة.

٢ ـ خاليةً من الأنوار الصناعية والحيواناتِ والزهورِ والأثاث والبُسُط.

٣ ـ وأن تكون معرَّضةً ـ كلَّ التعرُّض ـ للتهوية ـ حتى في الشتاء ـ.

٤ ـ وأن يكون الفراش منحنيًا قليلًا من الرأس إلى الأقدام؛ بحيث ترتاحُ فيه الأعضاء جيدًا.

٥ ـ وأن يُتَّخذَ الفِراشُ من الصوف.

٦ ـ وتكونُ المِخدَّة لا رِخوةً ولا يابسة.

٧ ـ وأن يختارَ من الغِطاء الخفيف ومن الوسائدِ القليلةَ التضاعيفَ والنعومة.

٨ ـ وعليك أن تنامَ بعد الأكل بساعتين ـ أو ثلاث ـ، فالأَوْلى ألَّا تَغفَى الجفونُ إلا بعد أن يتمَّ الهضم.

٩ ـ ويَنصحُ بعضُ كبار الحكماء للمشتغلين بالأشغال العقلية: أن يناموا بعد الأكل؛ ومن رأيه أن الواجبَ تركُ الدماغ يستريحُ خلال الهضم.

١٠ ـ وينبغي ألَّا تُتركَ[2] في خلال أيام القيظ.

١١ ـ ويفضَّلُ النوم منفردًا.

١٢ ـ وعلى النائم أن يختارَ وسطَ الفراش لينام هنيئًا، وترتاحَ أعصابه، وتنبسِط.

---

(١) التبكيت: التقريع والتوبيخ.

(٢) يقصد الاستراحة، واللَّهُ تعالى أعلم.

١٣ ـ وألَّا يَنهض وذراعاهُ فوق رأسه ـ كما يفعلُ بعض النساء تدلُّلًا ـ ؛ لأن ذٰلك مما يخالف نواميسَ الفِسيولوجيا؛ فإذا صدَّرَ النائمُ صفحةَ وجهه كثيرًا فإنه يُتعبُ أعصابَ ذراعيه وأعصابَ صدره، وينقبضُ عنقُه، ويهزُّ تنفُّسَه فلا يمتد طويلًا.

وعليه؛ فالواجبُ أن يكون الرأسُ واطئًا[1] ما أمكن، حتى يتسرَّب الدم إلى الدماغ على صورةٍ منتظمة، وأن يتمدَّد الجسمُ كلَّ التمدُّد، وألَّا ينثنيَ الساقان، ولا يشبِّكَ أحدهما مع الآخر، وألَّا تُرفع الركبتان.

١٤ ـ ولا ينفع النومُ مستلقيًا على الظَّهر، ويؤكدُ بعضُ الأطباء أن هٰذا الضربَ[2] من النوم ينشأ عنه مرضُ النُّخاع الشوكي، وربما كانوا مبالِغين في تصوُّرِهم على أن النوم بالاستلقاء يُحدِثُ أرَقًا مضنيًا أو كابوسًا أو أضغاثَ أحلام.

١٥ ـ والنومُ على الشقِّ الأيسر أصعبُ حالًا من الاستلقاء ـ أيضًا ـ ؛ لأنه يوقفُ الهضم، ويؤدِّي إلى ضيق النفَس والاختناق، وإلى حدوثِ حركاتٍ في القلب تضغطُ عليه وتؤذيه.

١٦ ـ وعلى النائم ألَّا ينامَ وبطنُه مُنبسِط، فالأفضلُ أن ينامَ المرءُ على جانبه الأيمن؛ لِما في ذٰلك من النفع للحواس، وعلى هٰذه الطريقةِ ينبغي لنا تعويدُ أولادنا، وأن نقتصر نحن ـ أيضًا ـ أن ننام مثلهم.

وإذا حدث لنا قلقٌ، فالواجبُ علينا أن نَعمِدَ إلى الطرق البسيطةِ[3] لجلبِ الكَرَى إلى العيون، وذٰلك بالمَشي والاستحمامِ وشُربِ الحليب الحار، ولا

(١) واطئًا: ليس مرتفعًا.

(٢) الضَّرب: النوع.

(٣) يقصد اليسيرة، وكلمة «البسيطة» ـ بمعنى السهلة اليسيرة ـ خطأ لغوي شائع؛ لأن معناها الحقيقي: الواسعة الكبيرة.

ينبغي أخذُ شيءٍ من العقاقير والمخدِّرات[1] لأنها ضارة، وتأثيرُها مؤقتٌ لا يلبثُ أن يزول.

هٰذا؛ وعلى كلِّ إنسان ألَّا يُغفِلَ أمر النوم.

○ فقد قال حكيم: «إنَّ في النوم لِصَحِيحي الجسم قوةً وفرحًا، وللمريض شفاءً وهناءً».

ﻪﻫﻪﻫ

(١) يقصد ما يسمَّى بـ«المنوِّم»؛ لأنه يخدِّر العقل.

٤ ـ أدبُ اللّباس

١ ـ ينبغي أن يكون غطاءُ الرأس خفيفًا، والأقمصةُ والسراويل من كتانٍ أو قُطن، بيضاءَ غيرَ مصبوغة.

٢ ـ وأن تُغيَّر وتُغسَلَ كثيرًا، ولا ينبغي مُكثُها على بَدَنِ الفقير أكثرَ من أسبوع، ويُغيِّرُها الغنيُّ كلَّ يومٍ أو ثلاثةِ أيام في الأسبوع.

٣ ـ ولا يلبسُ الصوفَ مباشِرًا لبدنه إلا في بعضِ الأمراض والأشخاص الضِّعاف.

٤ ـ ويلبس مُدَّةَ الزمان البارد ـ كالشتاء ـ ويغيِّرُ كثيرًا، لأنه سريعُ الاكتساب للعفونة.

٥ ـ ولا يلبسُ الواسعَ الذي لا يحيطُ بالجسمِ ولا يقِي من البَرد، ولا الضَّيِّقَ المُعيقَ لحركةِ الدم والجسم.

٦ ـ ولا تُشدُّ أربطةُ الأطراف ولا الحِزام، لأنه يُعيقُ دورةَ الدم، ويسبِّبُ الفتاق.

٧ ـ ولا يَضغطُ عضلاتِ العنق والحنجرة بقُبَّةٍ عالية أو تزريرٍ ضيقٍ؛ لئلَّا يُضعِفَ الصوت، ويوقفَ الدورة ـ أيضًا ـ.

٨ ـ ويلزمُ أن يكونَ ما يُلبس في القدمين مُدفِئًا، لا واسعًا؛ لأنه لا يضغطُ على الأقدام، وينخلع في حال المشي، ويُتعب الماشي، ولا ضيِّقًا؛ لأنه يُعيق الدورة، ويُحدث قروحًا أو يُبوساتٍ مؤلمةً.

٩ ـ ولُبسُ الجورب مفيد، لأنه يصونُ القدمَ من البرد، فيلزم أن يكونَ في الصيف من قطنٍ أو كتَّان، وفي الشتاء من صوف.

١٠ ـ ويلزمُ تهوية ثيابِ النوم ـ كفِراشِه ـ يوميًّا.

❧❧❧❧

٥ ـ أدبُ نظافةِ الجسمِ والاستحمام

الوساخةُ مذمومةٌ مُضِرَّةٌ بالصحة، تولِّدُ القمل، وتسبِّبُ الأمراضَ الجلدية ـ كالجرَب والجُذام والقَرَع[١] ـ، دعْ عنك ما تسبِّبه من الروائح الكريهة، والمَنظر القبيح للمرء، واجتنابِ قُربِه، واستقذارِ مخالطتِه، فيلزمُ أن يتعهَّد الجسمَ بالغسل والاستحمام.

١ ـ أمَّا غَسلُ الأطراف[٢] ففي كلِّ يومٍ مِرارًا، وأما الاستحمامُ فمرَّتين في الأسبوع صَيفًا، ومرةً فيه شتاءً، ويكونُ بالصابون والليف لإزالةِ الوسخ المتراكم من عَرَق البدن، ولتبقى مسامُّ الجلدِ مفتوحةً تُفرزُ الموادَّ المُذابةَ في العَرق.

٢ ـ والأشخاص المعرَّضون للغبار يلزم اعتناؤُهم بالاغتسال أكثرَ من غيرهم.

٣ ـ ولا يستحمُّ وجسده مُعيًى[٣] مِن تعبٍ عقليٍّ أو جسديٍّ، أو عَقِبَ الطعام.

ﮓﮔﮕﮖ

---

(١) الجَرَب: معروف. الجُذام: تساقط الأطراف. القَرَع: سقوطُ بعض الشَّعر من مواضع، وبقائه في مواضع أخرى.

(٢) أي: اليدين والرجلين.

(٣) مُعيًى: مرهَق متعَب.

٦ ـ أدبُ الطعام

المطاعمُ تُرادُ للصحة ـ لا للذة ـ ، لأنها خُلقت لتصحَّ بها أبدانُنا، وتصير مادَّةً لحياتنا؛ فهي تجري مجرى الأدويةِ يُداوَى بها الجوعُ والألمُ الحادث منه، فينبغي أن يأخذ المتأدِّبُ بما يُذكر:

١ ـ لا يَتناولُ الطعامَ إلَّا إذا صَدَق الجوعُ.

٢ ـ لا يُنبِّهُ الشَّهوةَ بوسائط[١].

٣ ـ لا يتأخرُ عن تناوله إذا طلبتْه النفسُ.

٤ ـ لا ينتظرُ زيادةَ التَّوْقِ إليه؛ لأنه قد يُفضي به إلى الشَّرَه.

٥ ـ لا يَجعل هِجِّيراهُ[٢] مَدحَ الطعام الذي يستعظمُه أهلُ الشَّرَه.

٦ ـ يُقبِّحُ عنده صورةَ مَن شَرِه إليه ونال منه فوق حاجته.

٧ ـ لا يبادرُ إليه إذا جَلس مع غيره.

٨ ـ لا يُديم النظرَ إلى ألوانه ولا يُحدِّقُ بها.

٩ ـ لا يُسرعُ في الأكل.

١٠ ـ لا يُوالي بين اللُّقَم[٣].

١١ ـ لا يُعظِّمُ اللقمةَ[٤]، ولا يبتلعُها حتى يجيدَ مَضغَها.

١٢ ـ لا يُلطِّخُ يدَه ولا ثوبه.

١٣ ـ ولا يَلحظُ مَن يؤاكلُه[٥].

---

(١) كأن يقف أمام الروائح الشهية، أو ينظر إلى الطعام المشتهَى... ونحو ذٰلك.

(٢) هِجِّيراه: عادته الدائمة.

(٣) أي: لا يأخذ أكثرَ من لقمة في المرة الواحدة.

(٤) بل تكون صغيرةً حتى لا تقف في حَلْقه.

(٥) أي: لا ينظر إليه أثناء الأكل؛ فإن ذٰلك يجلب الحياء؛ لا سيما إذا كان ضيفًا.

١٤ ـ لا يَتبعُ بنظره مواقعَ يدِه من الطعام.

١٥ ـ يُعوِّدُ نفسه على أن يؤثِرَ غيرَه بأفضل ما يليه.

١٦ ـ يضبطُ شهوتَه حتى يقتصرَ على أدنى الطعام وأدوَنِه.

١٧ ـ يأكلُ الخُبزَ بلا إدامٍ[1] أحيانًا.

١٨ ـ يحترزُ من تناول الشديدِ البرودةِ والسخونة؛ فإن له أضرارًا جَمَّةً؛ منها تسويس الأسنان، ولذا يلزمُ تنظيفُ الأسنان بعد الأكل بمِسواكٍ أو فرشاةٍ وماءٍ لإزالة آثار الطعام المتحلِّلة.

١٩ ـ لا يأكلُ طعامًا قبل هَضم الأوَّل، والزمنُ اللازمُ للهضم خمسُ ساعاتٍ إلى ست، ومع ذٰلك فلا تُشغَلُ المعدةُ بالأكل بمجرد مضيِّ ذٰلك؛ بل يجب أن يكون بين الأكلتين ستُّ ساعاتٍ ـ أو سبعٌ ـ ، مع وجود الشهيةِ الصادقة، وإلا فيَلزم الامتناعُ حتى توجد.

٢٠ ـ ويجتنبُ الأكلَ ليلًا؛ لأن فيه مبتدأَ النوم مع اشتغال المعدةِ بالهضم، فيجتمعُ فِعلانِ في الجسم؛ يُشوِّشُ أحدُهما على الآخر، فينشأ عنه سوءُ الهضم والتعبُ في النوم.

٢١ ـ وينبغي أن يكون مقدارُ الغذاء قليلًا؛ لا سيما لمن كانت أشغالُه عقليةً، لئلَّا يَثقُلَ الجسمُ ويغالبَه النعاس، فيختلطَ فِكرُه، ولا يتمكنُ من إتمام عمله.

٢٢ ـ ويكونُ العَشاءُ أكثر قليلًا؛ لأن الأعمال النهارية تمَّت، وجاءت برودةُ الليل فيسهُلُ الهضم.

---

(١) الإدام: كل ما يؤكل بالخبز؛ كالطبيخ واللحوم وغيرها.

٧ ـ كيفيةُ الأكلِ ومُدَّتُه

١ ـ ينبغي للآكِلِ أن يغسلَ يديه قبل الطعام وبعده غَسلًا جيدًا، وإن كان بصابونٍ فهو أولى.

٢ ـ وأن يجلسَ على المائدة مستويًا باحتشام؛ لا متكئًا ولا منحنيًا بصَدره، ولا باسطًا يديه على الخِوان[١].

٣ ـ وأن يضعَ الخُبزَ على شماله والمِلعقةَ والشوكةَ والسكِّينَ عن يمينه[٢].

٤ ـ وألَّا يَمَسَّ بيدِه سوى الأشياءِ الجافة ـ كالخُبز والثمار ـ.

٥ ـ وألَّا يشُمَّ رائحةَ الطعام قبلَ أكله.

٦ ـ وألَّا يَضعَ في صَفْحتِه[٣] أكثرَ مما يأكلُه.

٧ ـ وأن يُجزِّئَ ما يَضعُه أجزاءً صغارًا، ولا يأكلُه لُقَمًا كبارًا.

٨ ـ ويأكلُ بيمينِهِ إلَّا لضرورة[٤].

٩ ـ ويَجتنبُ الإسراعَ المُفرِطَ والبطءَ كذٰلك، وتكونُ مدَّتُه عشرين دقيقةً إلى ثلاثين، فإن طالت فلا تزيدُ على ساعةٍ[٥].

١٠ ـ ويَجتنبُ الأكلَ وقتَ الغضبِ والانفعالات النفسانية؛ لخطر أعراضِه

---

(١) الخِوَان: مائدة الطعام.

(٢) هٰذا إذا كان الطعام يحتاج إلى شوكة وسكين، وإلا فالأكل بالأيدي أفضل؛ اتباعًا لسنةِ الحبيب ﷺ؛ لٰكن لا يُعدُّ الأكل بالشوكة والسكين بدعةً؛ لأن هٰذا من العادات التي ينشأ عليها طائفةٌ من الناس.

(٣) الصَّفْحة: الإناء أو «الطبق».

(٤) وقد صار الأكلُ والشرب بالشمال علامةً على التمدُّن والرُّقيِّ!! وإنْ هو إلا سقوطٌ وتخلُّف وتشبُّهٌ بالشيطان اللعين، والكفارِ المجرمين؛ كما قال نبيُّنا الأمين ﷺ.

(٥) ساعة للأكل كثيرٌ جدًّا؛ اللهم إلا لمن اعتاد على ذٰلك؛ لٰكن طلَّاب العلم خاصةً وأهل المعالي لابد أن يكون أكلهم سريعًا حرصًا على العمر النفيس.

حالَتَئِذٍ.

١١ ـ ولابدَّ وقتَ الأكل من راحةِ [القوَّة] المُفكِّرة[١] ليحصُلَ الهضمُ؛ فلا يخوضُ في العَوِيصات[٢]، ولا في الأمور المُحزِنة، ولا يتذكرُها.

١٢ ـ ولْيَحذَرْ نفخَ الطعام الحار[٣].

١٣ ـ ويجبُ المَضغُ جيدًا، وسَحقُ الجامد بالأضراس قبل الابتلاع.

١٤ ـ وأن يمضُغَ بتمهُّل ـ لا بسرعة ـ، وألَّا يُستعان على المضغ بسائلٍ كالشاي والقهوةِ والماء؛ لأن الغُددَ اللعابية تُفرزُ سائلًا كافيًا لتبليلِ الطعام الجاف، وإفراطُ الشرب وقتَ الأكل مضرٌّ جدًّا[٤].

١٥ ـ وينبغي الاحتراسُ منَ المُبادرةِ إلى الأكل عقِب شغلٍ عقليٍّ أو بدَني؛ لأنه يُنتج مرضًا في أعضاء الهضم.

١٦ ـ ولا يسوغُ تناولُ طعامٍ غليظٍ أو كثير في أثناءِ السَّير على عجلةٍ أو دابة؛ بل يكون لطيفًا وقليلًا.

١٧ ـ ومَن فَرغ من الأكل ـ في دعوةٍ ـ فلْيُقلِّلِ الجلوسَ من غير حاجةٍ، ولْيستأذِنْ في الانصراف.

١٨ ـ ويجتنبُ القِرانَ[٥] في تمرٍ ونحوه؛ لِمَا فيه من الشَّرَهِ والخطرِ على البلْع.

---

(١) يعني العقل.

(٢) العَويصات: المسائل الصَّعبة المعقَّدة.

(٣) حيث ورد نَهيُ الحبيب ﷺ عن ذلك؛ كما في «المسند» (١/ ٣٠٩)، و«سنن أبي داود» (٣٧٢٨)، و«سنن الترمذي» (١٨٨٨)، و«سنن ابن ماجه» (٣٤٢٩). وانظر: «تحقيق مسند الإمام أحمد» (٣/ ٣٩٠ ـ ط: الرسالة).

(٤) وإنما يحتاجُ العبدُ إلى الماء الكثير أثناءَ الأكل إذا ملأ فمَه بالطعام؛ فإنه قد تنتابه غصَّةٌ أثناء البلع يحتاجُ معها لدفع الطعام بالسوائل؛ أمَّا مَن يصغِّر اللقمةَ فلا يحتاج لمثل هذا.

(٥) القِرَان: أخْذُ أكثرَ مِن ثمرةٍ في المرةِ الواحدة.

١٩ ـ ولْيَحذر من نفضِ اليد في الإناء، وتقديم فمِه إلى الإناءِ عند اللَّقْم، ومِن غَمسِ اللُّقمةِ الدسِمةِ في خلٍّ أو نحوه، ومِن غمسِ اللقمةِ التي أكلَ منها في المَرَقة، ومِن عضِّ طرفها، ثم وضْعِها في المطعوم(١).

٢٠ ـ ويُحوِّل وجهَه عند السُّعال والعُطاس.

٢١ ـ ويخلِّلُ أسنانَه بعد الطعام ـ لا في أثنائه ـ.

٢٢ ـ ولا يَنقُلُ الضيفُ ما لديه إلى غيره(٢)، ولا يَخلِطُ طعامًا في غيره إلا في وعاءٍ لديه.

٢٣ ـ ولا يتصنَّعُ بالانقباض فيوحِشَ الحاضرين(٣).

٢٤ ـ ومَن لم يستطِبْ طعامًا فلا يُظهِرِ اشمئزازًا؛ لئلَّا يأنفَ غيرُه منه.

٢٥ ـ ويتكلفُ الانبساطَ بالحديث الطيِّبِ والموعظةِ الحسنة.

٢٦ ـ ولا يرفعُ مَن حَضر مع جماعةٍ يدَه عن الطعام قبلَهم حتى يكتفُوا؛ إلَّا أن يعلمَ منهم شَرَهًا(٤).

٢٧ ـ ولا يمدحُ طعامَه وتقويمَه(٥)؛ لأنه دناءةٌ.

٢٨ ـ ولا بأسَ أن يأكل ما يكسِرُ نَهْمتَه قبل ذهابِه للدعوة.

٢٩ ـ وأنسبُ أوقاتِ الغَداءِ قبلَ الزوال بساعةٍ أو ساعتين، والعَشاءِ قبل غروبِ الشمس بساعة.

ﮋﮊﮉﮈ

---

(١) فكلُّ هٰذا مما يؤذي الآكِلين معه، ويعكِّرُ نقاء الطعام ـ أيضًا ـ.

(٢) أي: لا يعطي الضيفُ بقايا طعامِه لغيره من الجالسين معه.

(٣) أي: لا يتصنعُ أنه منقبضُ النفس لا يريد الأكل.

(٤) والذي أراه أنه متى اكتفى قام؛ سواءٌ رأى منهم شرهًا أم لا، اللهمَّ إلا لو كان هو صاحبَ البيت، وكان بطبعه قليلَ الأكل، فإنه يُطيل ـ يسيرًا ـ حتى لا يقومَ الضِّيفانُ قبل نيل كفايتهم، واللَّهُ أعلم.

(٥) أي: لا يشير إلى جمال طعمه وغلاء ثمنه.

٨ ـ أدبُ الشُّرْب

من المعلومِ أن الماءَ ضروريٌّ للحياة؛ فإنَّ الإنسان لا يعيشُ بلا ماءٍ إلا ثلاثةَ أيام؛ كما لا يعيشُ بدون الطعامِ إلا ثلاثةَ أسابيع، وبلا هواءٍ إلا ثلاثَ دقائق.

وقد ثبت في العلم الطبيعيِّ أن مصادرَ المياه منَ البُخار الذي يَصعَدُ من سطح البحر ويتكاثفُ في الجو بوساطةِ البَـرَد، ويسقطُ إلى الأرض فيذهب بعضُه إلى البحر والبُحيرات، وبعضه يَغُورُ(١) في التراب، ويخترقُ الطبقاتِ الصخريةَ، أو ينحدرُ مِن بعض شقوقِها إلى الأسفل، ثم يخرجُ مِن تحتِها إلى ظاهرِ الأرض على هيئةِ الينابيع أو الأنْهُر، أو يَبقَى في باطنها، فيُتوصَّلُ إليه بوساطة حفرِ الآبار.

فأما ماءُ المطر: فهو نقيٌّ لا يخالطُه إلا آثارٌ من المواد التي يكتسبُها من الهواء، غيرَ أنه يَفسُدُ في المُدنِ الغاصَّةِ(٢) بالسكَّان التي أبخرتُها كثيرةٌ من إشعال النيران أو منبعثةٌ من الأرض؛ فلا يبقى صالحًا للشرب. ويَفسُد ـ أيضًا ـ إذا جُمع في أحواضٍ غيرِ نقية؛ نعم إلا لو حُفظ في الصهاريج التي تَقيهِ من الأكدار فلا مانعَ منه.

وأما ماءُ العيون والآبار: فنقيٌّ صافٍ باردٌ من أفضل المياهِ للشرب، ولو خالطهَ شيءٌ من الكِلْس(٣).

نعم ماءُ الآبار القريبةِ من المراحيض أو من البالوعات التي تنحدرُ فيها المياهُ القذرةُ: واجبٌ الاجتناب عنها؛ لأن البئرَ النقيَّ هو الذي يكونُ ما حولَه

---

(١) يغُور: يغيب.

(٢) الغاصَّة: الممتلئة.

(٣) الكِلْس: حجارةٌ يُبنى بها.

خاليًا من الأسراب[١]، ويكونُ ما حوله بمقدارِ عُمقِه؛ فلْيُنتبَهْ لهٰذه الفائدة.

وأما ماءُ الأنْهُر: فكثيرًا ما يكون مكدَّرًا بالتراب أو الرمْل أو تحليل النباتِ أو جُثثِ الحيواناتِ التي تُلقى فيها، وبما يندفعُ إليه من الأقذارِ والأَسراب، فلذٰلك يلزمُ تصفيتُه قبل استعماله أو غَلْيِهِ نحوَ عشرِ دقائق، وهي طريقةٌ سهلةٌ في إهلاك الجراثيم المَرَضية، كما حققه الأطباء.

* وأما أدب تناوُلِه:

١ ـ فأنْ يأخذَ إناءه بيمينه.

٢ ـ ويشربَ مصًّا ـ لا عَبًّا[٢] ـ.

٣ ـ ويشربَ قائمًا ـ لا مضطجعًا ـ.

٤ ـ وينظرَ قبل الشُّربِ في الإناء[٣].

٥ ـ ولا يتجشَّى[٤]، ولا يتنفسُ فيه؛ بل يُنحِّيهِ عن فمِه.

٦ ـ ويُبدأ في السَّقيِ بالأفضل، ويُدارُ منه يَمْنةً.

❊❊❊

(١) **الأسراب**: ما يتسرَّب إليه من أشياء، واللّٰهُ أعلم.

(٢) **العَبُّ**: التضلُّعُ بكثرة بحيث يملأ الفم.

(٣) كيلا يكون وقع فيه شيءٌ يؤذي.

(٤) **الجُشاء**: خروج الريح الناتج عن امتلاء المعدة، وقد سلف.

٩ ـ حِكمةٌ فِي الدُّخَّان ومضرَّاته[١]

كثيرًا ما يُشاهِدُ المرءُ أمورًا يراها في نظرِه الضئيل طفيفةً، غيرَ مُكترِثٍ[٢] بها، ولا ناظر إليها نظرةَ مُحقِّق؛ بل يغفُلُ عمَّا وراءَها من المنافع والمضار، وضَمَّ إلى ذٰلك بعضَ مَن أخذ منهم الغلوُّ مأخذًا عظيمًا، فاعتقدَ بعضَ الأشياءِ المضرَّةِ بالجسم المُنهِكةِ للقوى نافعةً جدًّا، شأنَ كلِّ منِ استَحكمت فيه العادة، وتمكَّنت منه باستحسانٍ وانجذابٍ نفسانيٍّ؛ حتى أفضى حبُّه إلى قلب الأعيان ظَهرًا لبطن، ولا بِدْعَ[٣]؛ فـ«حُبُّكَ الشيءَ يُعمي ويُصِمُّ»[٤].

ومما يَجري هٰذا المَجرَى ـ في استحكام العادة وتَهافُتِ النفوس بكلِّيتها عليه ـ مع اعترافِ الكثير بمضرَّاتِه ـ هو الدُّخَّان؛ فقد ثبت لدى الباحثينَ المحقِّقينَ من الأطباء مضرَّاتُه العديدة، ومن ذٰلك:

ـ تأثيرُه على الفمِ والمعِدةِ؛ بتهييج الأصلِ الفعَّال فيه «الغشاء المخاطي الفمي»؛ فيَحدُثُ[٥] من ذٰلك: التهابُ اللسان، وقروحُ الحَلْق، والتهابُ اللَّوزتين، وتكديرُ الإفرازِ اللُّعابي، واصفرارُ الأسنان، وتعريضُها للسوس.

ـ وتأثيرُه على الدم؛ لأنه يُذيبُ بعضَ الكُراتِ الحمراء، ويُغيِّرُ شكلَ البعض الآخر، ويُذهِبُ كثيرًا من قوةِ جذبِها للجوهر المحيون «أُوكْسُجين»،

---

(١) راجع ـ غير مأمور ـ كتاب: «البرهان في شأن الدخان»، للعلَّامة مَرْعي الكَرْمي الحنبلي، بتحقيق الشيخ مشهور حسن آل سلمان ـ ط: دار ابن حزم.

(٢) مكترِث: مهتم.

(٣) لا بدع: لا عجب.

(٤) أي: إذا أحببتَ الشيء أعماك حبُّه عن رؤيةِ مساوئِهِ وسماعِها. وقد ورد هٰذا الكلام منسوبًا للنبي ﷺ في «مسند الإمام أحمد» (٥/ ١٩٤)، وإسناده ضعيف كما قال الشيخ شعيب الأرنؤوط في «تحقيق المسند»، لٰكنه صحيح من كلام أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٥) في المطبوع: «لما يحدث»، ولم أتبينها.

وتأثيره على الإفرازاتِ لمُرورِه في الدَّورة [الدموية] بأسرع من خمسِ ثوانٍ.

- وتَهييجُ القليلِ منه عرقًا وتَهيئتُها للأمراض.

- وتعريضُ الجلدِ للأمراض الجلدية.

- وتأثيرُه على المجموع العصَبي والعضلي؛ فقد يُحدِثُ تكدُّرًا وخُمودًا في الأعصاب، ورِعشةً عصبيةً عظيمةً في البصر، وخُمودًا واهتزازًا عضليًّا.

إلى غير ذٰلك من المَضرَّات التي ملأت بطونَ المجلَّداتِ الطبية، وطَفحت بها المجلَّاتُ العلمية.

ثم هل يَخفَى على القارئ - بعدَ المضرَّات الصحيةِ التي تُخِلُّ بنظام الجسم - المضراتُ الماديةُ التي تُخِلُّ - أيضًا - بالحياةِ الاجتماعية والإدارةِ الشخصية[١]؛ بما تلتهمُه من الدراهم والدنانير، وتجعلُها عُرضةً للهلاك والدمار؟!.

○ كما قال بعضهم: «فهٰذه النَّارجِيلةُ[٢]؛ كم أهلكتْ من مال! وأحدثتْ من داء! وأدخلتْ في عبودية! فلو أن شخصًا تصدَّى لجمع ما أنفقتْه وتُنفقُه «سوريا» وحدها في سبيل النارجيلة لرأى أمام عينيه جبلَ ذهب، ولو أنه عُنِيَ بعدِّ مَن قَضى[٣] بسبب النارجيلة مصدورًا[٤] لتمثَّل شُهداءَها جَمْعًا كثيفًا.

وأما أنها أُدخِلَتْ في العبودية: فهٰؤلاء محتكرو التِّنْباك[٥] لا يأتمِرُون في تسعيرِه إلا بأوامر الطمع، فيرفعُون سِعرَه، ويُغلُون ثَمنَه كما يشاؤون، وما من

(١) يعني أن الشخصَ لا يستطيعُ إدارة أمورِه الشخصيةِ بسبب ما ينفقه عليها.

(٢) تحرفت في المطبوعتين إلى «النار جلية» - كذا - ككلمتين! وهي كلمةٌ واحدة - كما أثبتُّها، وكما ذكرها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالته: «الشاي والقهوة والدخان» -، و«النارجيلة» هي التي تسمى في عصرنا: «الشيشة» أو «الجوزة»، نعوذ باللّٰهِ منها.

(٣) قضى: مات.

(٤) مصدورًا: بأمراض الصدر.

(٥) التِّنباك: التبغ.

داعيةٍ لهٰذا الغلاء ـ الذي دخل في باب الغلوِّ ـ إلا طمعُ المحتكِرين».

نحن لا ننكرُ أن بعضًا من الأطباء قد ذكر له منافع[1]، لٰكن أين هي مِن مضارِّه التي تربُو عليها؛ بل ليست تلك المنافعُ ـ أمامَ تلك المضارِّ ـ شيئًا مذكورًا؛ على أن أكثرَ تلك المنافع التي ذُكِرتْ ليست من أصلٍ طبِّي؛ بل أغلبُها وُضع لترويحِ النفوس وتنشيطِ الأفكار والعضلات على العمل العقلي واليدوي[2].

○ فقد قال أحدهم: «إن استعمالَ التبغِ ـ في بعض الظروف ـ نافع؛ لأنه يُخمِدُ الانفعالاتِ النفسانية، ويُريح الإنسانَ من الأتعابِ العقليةِ والجسدية». قال: «إن الصانعَ الذي أنْهَكَ قواه الجسديةَ بالأتعاب الشاقة مُدَّةَ نهاره؛ يجدُ مساءً في غُليونِهِ[3] نوعًا من الراحة، وتعويضًا عمَّا فَقَد من قُواهُ الطبيعية، ومِثلُهُ العالِمُ الذي يكون نهارَه في التبحُّرِ في المسائلِ الدقيقة، واحْدَوْدَبَ[4] ظَهرُه، وتَقَعَّر[5] صَدرُه من الانصبابِ على التأليف والتسطير؛ يصادفُ راحةً في ظِلِّ سحابةِ غُليونه الزرقاء، والمُسافرُ ـ الذي يخوضُ البحار ويَطوي القِفارَ ـ يصادفُ في دخان غليونه ما يدفعُ عنه أذى الأَهْوِيةِ[6] المفسدة والأبخرةِ السامَّة والمياه المختلفة».

فانظر إلى تلك المضارِّ الآنِفةِ الذِّكر، ثم قابِلْ بينها وبين هٰذه المنافع! ألست ترى بينهما بَوْنًا كبيرًا؟! أليستْ وُضعت له للتحريض على العمل والحضِّ على الإقلاعِ عن الكسل.

---

(١) وكلها منافع مزعومة لا أصل لها، كما سيأتي قريبًا.
(٢) ومن تأمل أحوال المدخنين رأها لا تساعد على هٰذا أصلًا.
(٣) الغُليون: يسمى عندنا في مصر: «البايب».
(٤) احدَوْدَب: تقوَّس.
(٥) تقعَّر: تقوَّس ـ أيضًا ـ.
(٦) الأَهْوية: جمع «هواء».

تلك مضارٌّ أصبحتْ اليومَ من البديهيَّات، وهٰذه[١] أشبهُ شيءٍ بالخيالات الشِّعرِية الوهمية، وما أبعدَ ما بين الحقيقةِ والخيال!!.

هٰذا؛ ومَن أراد الوقوفَ على مضارِّه بتمامها، وحَدَا به الشوقُ إلى الاطلاع عليها؛ فيُراجع رسالة «الشاي والقهوة والدُّخان»[٢]، ولو لم نقتصر في هٰذه الرسالة[٣] على الآداب المهمةِ اللازمة ـ بدون إسهابٍ مُمِلٍّ ـ لسرَدْنا هنا ضُروبًا من أضرارها، وسوَّدْنا هٰذه الصفحاتِ بنتائجِها وآثارها.

*

(١) أي: المنافع المزعومة.

(٢) للمؤلف (القاسمي).

(٣) يعني هٰذا الكتاب «جوامع الآداب».

١٠ ـ أدبُ الرِّياضة

١ ـ ترويحُ الفِكرِ بالرياضةِ ـ من تجوُّلٍ، وتحريكِ أعضاء، أو تأمُّلٍ في منظرٍ بَهيج ـ مفيدٌ للجسم فائدةً كبرى، سيَّما لذَوِي الأشغالِ العقلية ـ كالتصنيف والمُطالعةِ والتدبُّرِ في المعاني والنَّظْم والنَّثر ـ ؛ فإن الدأبَ[1] على شُغلٍ واحد موجبٌ للضجر وضِيقِ الصدر.

٢ ـ وأنفعُ الرياضات في حفظِ الصحة: ما يتحرَّكُ بها كلُّ العضلاتِ حركةً معتدلة، فإنها تُنمِّيها وتقوِّيها وتُحلِّلُ فضولها، وتجعلُ البَدَنَ خفيفًا نشيطًا بسبب تكوينِ الحرارةِ الغريزيـة؛ لأنه كلمـا زاد سَيَـلانُ الدم في الجسم؛ زاد ـ أيضًا ـ رسوبُ دقائقَ جديدةٍ في الأنسجة، ونَزعُ الدقائقِ التالفة، ولذٰلك ترتفعُ درجةُ حرارة المتحرِّكِ أكثرَ من الساكن.

٣ ـ وأحسنُ أوقات الرياضةِ الصباح؛ لأن الهواءَ ـ وقتَئذٍ ـ جافٌّ ونقيٌّ، وقُوَى الجسم أشد.

٤ ـ ويجبُ تجنُّبُ الرياضةِ الشاقةِ قبلَ أكْلةٍ مستوفاةٍ ـ أو على أثَرها ـ .

٥ ـ ولابد أن تكونَ الرياضةُ في الهواء النقي، وفي نورِ الشمس؛ فإن تأثيرَه في الإنسان مِثلُه في النبات ـ سيَّما لدارِس العلم ـ ؛ فإنه يتأكدُ له رياضةٌ في النهار ـ لا في المساء[2] ـ .

❊❊❊

(١) الدَّأَب: المداومة.

(٢) وأعلم كثيرًا من طلبة العلم يضحُّون بمثل هٰذه الرياضات المفيدة حرصًا على أوقاتِهم من الضياع؛ والعاقل هنا يغلِّب الأهم والأنفع؛ فإن اتسع وقته وكان متفرِّغًا للعلم بالكلية، مكفيًّا همَّ الدنيا، فالأولى أن يقتطع جزءً من وقته لمثل تلك الرياضات المفيدة، أما إن كان جزءٌ كبيرٌ من وقته ضائعًا في جلب القوت له ولعياله، فالأولى اغتنام ما بقي من وقتٍ في التحصيل العلمي، واللّٰهُ أعلم.

١١ ـ الألعابُ الرِّياضيَّة[١]

○ يقول بعضُهم: «إن الرياضةَ الجسديَّةَ ـ في الألعاب الرياضية ـ صحِّيَّةٌ أخلاقية، إذ يُستعانُ [بها] على صرفِ أهواءِ الشُّبَّانِ عما يضرُّهم، والأخذِ بها إلى ما يُفيدهم؛ فإنَّ في النفس ميولًا متعددةً وأهواءً متباينةً كامنة، فما استُعمل منها ونُشِّط نما وتغلَّب على مُبايِنِه، وأصبح مَلَكةً راسخةً، ولذٰلك يجبُ أن يُعدَلَ مَيلُ الشُّبَّان، ويُصرَفوا عن الضارِّ إلى النافع، ويُستعانَ بالألعاب الرياضية على ذٰلك»[٢].

والألعابُ الرياضية متعددة، وليست كلُّها نافعة؛ فعلينا أن نختارَ الأنفع منها للصحَّة، ونصرفَ النظرَ عما لا يُقصدُ به إلا إلفاتُ نظرِ متفرِّجٍ جلْبًا للدِّرهم مما لا طائلَ تحته[٣].

---

(١) لِينتبهِ القارئُ الكريم إلى أن الرياضةَ الجائزةَ هي التي لا يُنال عليها أموال؛ فإنه قد انعقد إجماعُ العلماء على تحريم أخذِ المال على اللهوِ واللعب؛ خلافًا لما هو منتشرٌ في أرجاء العالَم؛ لا سيَّما البلادِ الإسلامية، واللّٰهُ المستعان.

(٢) نعم، كلامٌ جيد؛ لٰكن كلُّ هٰذا بالضوابط الشرعية.

(٣) وعلى رأس ذٰلك كرة القدم ـ بنُظُمها المعاصرة ـ، ومن خير ما كتب عنها: «حقيقة كرة القدم»، للشيخ ذياب الغامدي، و«كرة القدم»، للعلامة مشهور حسن آل سلمان.
وكذٰلك هناك رياضاتٌ هدفُها الرئيس ليس نفعَ الجسد، وإنما تدميرُ العقولِ والأديان، وعلى رأس ذٰلك الألعابُ النسائية ـ خاصةً ـ، مما فيها من إثارةِ الفتن وإشعالِ الشهوات ـ كالسباحة و«التِّنس» والكرةِ الشاطئية ـ ونحو هٰذا مما عمل على تدميرِ البقيةِ الباقيةِ من الأخلاق في قلوب الناس.
وقد يسأل سائل: هل ممارسةُ الرياضة للنساء في الأصل حرام؟!.
والجواب: أن الأصل في الرياضةِ للنساء الحِلُّ؛ لٰكن بشروط، أهمها:
١ ـ أن تكون رياضةً تحافظ على تكوين المرأةِ الخِلْقي؛ فلا تؤدِّي بها إلى التشبُّه بالرجال؛ وهٰذا كرفعِ الأثقال، وكرة القدم، والملاكمة، والمصارعة... ونحو ذٰلك؛ فإن مثلَ هٰذه الرياضات تُخرجُ المرأةَ عن طبيعتها، وكثيرًا مَن تجعلُها مخنَّثةً ـ بين الرجال والنساء ـ، =

وما نؤثِرُه(١) حَريٌّ أن ننظرَ فيه من وجهين:

أحدهما: النفعُ الصحي.

وثانيهما: ضرورةُ الاحتياج إليه في وقتٍ ما(٢).

فإن الحياةَ عُرضةٌ للأخطار.

كما تَمسُّ الحاجةُ إلى معرفةِ السِّباحةِ والعَدْوِ؛ تحفُّظًا من الغرقِ وأهوالِ الحَرْب، وقد أَثبت التحقيقُ أن من جُملةِ ما أعان على انتصارِ بعض الدولِ

= لا سيَّما مع امتلاء العضلات وخشونتِها والتطبع بالشراسة، وغير ذٰلك مما هو معلوم.
٢ ـ أن تكون هٰذه الرياضةُ في مكانٍ خفيٍّ؛ بحيث لا يراها فيه مَن لا يحلُّ له رؤيتها.
٣ ـ ألا تكون هٰذه الرياضةُ على حسابِ ما هو أهمُّ من مراعاةِ أبويها وزَوجها وأولادها وبيتِها، ونحو ذٰلك.
٤ ـ أن ترتديَ ثيابًا ساترةً لجسدها ـ ولو كانت وحدها ـ ، فإنه لا يؤمَنُ أن يطَّلعَ عليها أحدٌ بصورةٍ غيرِ مقصودةٍ فيرى منها ما لا ينبغي.
٥ ـ أن تكون هٰذه الرياضةُ بعيدًا عن الاختلاطِ بالرجال؛ ولعلَّ هٰذا فُهم مما سلف، لٰكن أردنا التأكيد عليه لأهميته.
٦ ـ إذا كانت المرأةُ تمارسُ الرياضةَ أمام محارمها ـ غير الزوج ـ ؛ فلا تقومُ بحركاتٍ أو تُصدرُ أصواتًا خليعةً أو مثيرة؛ فإن الغرائزَ قد تشتعلُ من رؤية وسماع مثل تلك الأمور، وقد انتشر ـ في الآونة الأخيرة ـ زنا المحارم ـ نعوذ باللّٰهِ من سخطه ـ لمَّا تفلَّتت النساء والرجالُ من قيود الشرع المطهَّر، واتبعوا أهواءَهم بغير هدًى من اللّٰه؛ فترى الفتاةَ ـ في أعنف مراحل الشباب ـ تجلسُ أمام أبيها وأخيها بما يسمَّى «الشورت»، أو بالثياب اللصيقةِ المجسِّمة لجسدها «البَدِي والإستريتش» وغير ذٰلك؛ كل هٰذا بحجة أنهم أقربُ الناس إليها وليسوا غرباء!! وكلُّ هٰذا من خِداع إبليس وتلاعبه بالعقول الخالية من الدين النظيف والحياء الشريف، واللّٰهُ الواقي من الفتن.

(١) أي: ما نفضله من الألعاب.

(٢) نعم؛ فالرياضة ـ بالضوابط الشرعية ـ مكمِّل للحياة، وليست أصلًا فيها؛ كحال الفارغين الذين امتهنوا الألعابَ الرياضيـة، وصـارت هي وظيفتَهم الرئيسـةَ في حياة الامتحان القصيرة؛ وحسبهم قبحًا أنهم يذهبون لربِّهم ﷻ وإذا سألهم عن عملهم الأول في الحياة قالوا: كنا لاعبين!! فنسأله تعالى أن يحفظ علينا ديننا وعقولنا.

في المواقع البرِّيَّةِ كونَ بلادِهم جَبَلية، وهم مُروَّضُون على الصعودِ والنزول فيها.

والذي يُهِمُّنا الآن من ضروبِ الرياضة هٰذه الأنواع:

١ ـ العَدْوُ على اختلافِ ضروبه من حيث السرعة.

٢ ـ حَملُ الأثقالِ الخفيفة(١).

٣ ـ القَفزُ، ويدخلُ في عِدادِ أنواعه ـ وربما كان أنفعَها ـ القفزُ على الحبل المتداوَلُ في المَدارس(٢).

٤ ـ المصارعة.

٥ ـ الملاكمة(٣).

٦ ـ كرة القدم(٤).

---

(١) أما التفاخر برياضة حَمل الأثقال الكبيرة ـ كالتي تقام في الدورات الدولية ـ فهي مرفوضة ـ تحريمًا أو كراهةً ـ ؛ لما فيها من التغرير بالنفس والمخاطرة بها، وكم قُصم ظهر إنسان أو كسرت يده أو رجله أو عموده الفَقَري لمَّا حَمَل ما لم يستطع!.

(٢) وكذا قال المختصُّون: إن القفز على الحبل مفيد جدًّا للجسم.

(٣) إنما قصد الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ المصارعة والملاكمة التي تعتمد على تنمية العضلات، لا على إيذاء الخصم، فالمصارعة المباحة ما كان فيها دفعٌ وجذب ونحو ذٰلك، وليس ما يسمى «المصارعة الحرة»، والتي فيها الضربُ بكل الأشكال والألوان، أو «المصارعة الدموية»، التي لابد لأحد الخصمين أن يُسيل دم صاحبه؛ فكل هٰذه الأمور منكرات في الشريعة، والتي صارت فخرًا وأمنيةً لطائفةٍ من أتباع ملَّتِنا.
وكذا الملاكمة؛ فإن الإمام يقصد أن يلاكم الإنسان كتلةً من الجلد المحشو ـ كالذي يكون في صالات التدريب ـ ، أو نحو ذٰلك مما ينمِّي عضلات اليد؛ ولم يقصد أبدًا ـ ولا أظنه يخفى عليه ـ الملاكمة العصرية بما فيها من ضرب للوجه وكسر للفك وقطع للحاجب وإسالة للدماء؛ فكل هٰذا من المحرمات التي لا تخفى على عاقل؛ فضلًا عن عالِم كبيرٍ مثل المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٤) وهٰذا كأن يجتمع بعض الأصدقاء، ويلعبون لمدة ساعة أو ساعتين في الأسبوع مباراة وديَّة في بعض الأماكن؛ دون كشف للعورات وأكلٍ للأموال... ونحو ذٰلك.

٧ ـ المتوازِيَين.

٨ ـ السِّباحة[1].

٩ ـ الجَرُّ الخفيفُ في الأثقال والكاوتشوك.

ولابدَّ للمعلِّم ـ في اختيارِ نوعِ الرياضةِ لتلميذه ـ منَ النظر في تناسُبِ أعضائه قبلَ كلِّ شيء، واختيار النوعِ من الرياضةِ الذي يسبِّبُ اشتغالَ تلك المحالِّ الضعيفة، كي يتناسَبَ الجسم:

مثلًا: إذا كان موضعُ عدم التناسب في الصَّدر ـ كأن يكونَ الصَّدرُ ضيقًا ـ، فإنه يُشيرُ باستعمالِ آلةِ الصـدر، أو كان موضـعُ الدمامـةِ وسوءِ التناسب في الرِّجلينِ ـ مثلًا ـ؛ فإنه يرشـدُ إلى استعمـالِ كرةِ القـدمِ الإنكليـزية، وما قام مقامها.

وثَمَّةَ طريقةٌ تَفضُلُ غيرَها، وهي ـ وإن كانت لا يمكن تلقينُها كتابةً؛ إذ لا يتأتَّى تعليمُها وتعلُّمُهـا إلا بواسطـةِ معلِّميهـا الأخصَّـاء[2] ـ؛ إلا أنه يكفي الإشارةُ إليها والتذكيرُ بها، وهي ـ مع قُربها ـ عجيبـةُ النفع، يصبحُ مستعمِلُها ـ بعدَ ثلاثةِ أشهر ـ قويًّا وضخمًا ـ مهما كان في باديءِ أمره نحيفًا ودميمًا ـ، واستعمالُها بواسطةِ أُكَرٍ حديديةٍ صغيرةٍ ثُقلُها من الكيلوغرامِ إلى الأربعة أو الخمسة كيلوغرامات ـ حسبَ حالاتِ التلامذةِ المختلفة سِنًّا واستعدادًا ـ، ولذٰلك هي مقدَّرةٌ بدرجاتٍ معدودةٍ «مُنَمَّرة»، وهٰذا الترتيبُ العجيبُ يتكفَّلُ بتحريكِ كلِّ عضوٍ على حِدَتِه، وتتفرقُ الفائدة، وتتصلُ بكل محلٍّ في الجسم، فينجحُ التلميذُ نجاحًا عامًّا، وهي عبارة عن (٢٨) حركةً عند الاختصاصيِّين، وتزيدُ عِدَّتُها وتنقصُ وتختلفُ اختلافًا متقاربًا عند بعض المعلِّمين الآخَرين

(١) سبق الكلام على حال النساء مع السباحة، وأذكُر هنا بحال الرجال، فلا يحلُّ لهم أن يظهروا بملابسَ مثيرةٍ فاتنةٍ للنساء ـ كالمايوهات والشورتات القصيرة ـ.

(٢) الأخصَّاء: المتخصصين.

حسبَ آرائهم.

ولا يَحمِلُ النُّحَفاءَ[١] اليأسُ وتوهُّمُهم عدمُ قبولهم للنموِّ على تركِ الاجتهاد والتمرُّن؛ فقد أثبتت تجاربُ أحدِ كبارِ المُعلِّمين نتائجَ تُفرِحُهم وتُخفِّفُ من يأسِهم وقنوطهم، وقد حَدَّث أقوى أقوياءِ بعض الممالكِ أنه نال تلك المَقدرةَ العظيمةَ بفضل اجتهادِه ومثابرته، فصارت قوَّتُه مكتسبةً، وكان قبلُ نحيفًا هزيلًا للغاية، وما ذٰلك إلا لعنايتِه وبمعرفته الأسبابَ والتمسُّكِ بها.

وهٰكذا ينبغي أن يهتم النساءُ مثلَ اهتمام الرِّجالِ بالرياضةِ الجسديةِ ـ أو أعظم[٢] ـ ؛ كي تتضاعفَ الفوائد، وتشتركَ بين الجنسين، وتكونَ الأجِنَّةُ أقوياءَ قوةً مضاعفةً، وهٰذا درس أوَّليٌّ نُهديه للشبيبةِ العزيزة» اهـ ملخصًا.

ೞೞ

(١) النُّحفاء: جمع «نحيف»، عكس «السَّمين».

(٢) كل هٰذا بالضوابط الشرعية ـ للنساء خاصةً ـ كما سلف قريبًا.

١٢ ـ أدبُ السِّباحة

○ كتب بعضُهم ـ في ذٰلك ـ ما مثاله: «كان الأقدمون يهتمُّون بأمر السباحةِ اهتمامًا عظيمًا[1]؛ لأنها تقوِّي العضلاتِ وتُنشِّطُها دونَ أن تُتعب البدنَ تَعبًا شديدًا، وهٰذا الفنُّ هو ـ بدون شك ـ مِن أقوى المروِّضاتِ البدَنية، فالسباحةُ تجمعُ بين الرياضةِ والنظافة؛ فضلًا عن أنها تجعلُ الاستحمامَ بالماء البارد مقبولًا عند الأطفال ـ حتى وعنـدَ الكبـار الذيـن لا يُحسنونها ـ ، ولا شيءَ يُنشِّطُ القوى العضليـةَ، ويُسكِّـنُ الجهـازَ العصبي، ويَزيـدُ في خِفَّـةِ ومرونةِ الأنسجةِ مثلُ رياضةِ السباحة، وهي ـ فضلًا عن ذٰلك ـ تُهيِّجُ القابلية، وتساعدُ على الهضم، وتحسِّنُ تغذيةَ البدن، وتُعدِّل وظائفَ الرِّئتين والقلب، وتزيدُ في الصفاتِ العقلية قوةً ونشاطًا».

○ قال حكيمٌ: «يَخشى بعضُ الناس مِن غَرق الأولاد؛ على أني لا أرى للآباء عُذرًا على هٰذا الخوف؛ لأن الولدَ إذا غَرِق وهو يتعلمُ السباحة، أو غرق لكونِه لا يُحسِنُها فاللومُ في الحالتين عائدٌ على ذَوِيهِ، لأنهم لم يُراقبوه وقتَ تعليمه، أو لأنهم أهملُوا تعليمَه».

ولا ريب أن السباحة هي من أقوى العوامل التي تُعوِّدُ الصغارَ على احتمال تغيُّراتِ الطقس من حرٍّ إلى برْد، وتُقوِّي أجسامَهم، فلا يصابون بالهُزال، ولا يكونون معرَّضين لاعوِجاجِ العمود الفَقَري؛ ذٰلك لأن السباحةَ تُنشِّطُ البَدنَ بوجهِ العمـوم، فتُكسِبُ الجِلْـدَ صلابـةً، ويتَّسـعُ بهـا الصـدرُ؛ لأنها تقوِّي

---

(١) وكذا حضَّ عليها ديننا العظيم؛ فقد ثبت عند الطبراني في «الكبير» (٢/ ١٩٣)، والبيهقي في «الكبرى» (٥/ ٣٠٢)، عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**كلُّ شيءٍ ليس من ذكر الله ﷻ فهو لَهوٌ أو سهوٌ؛ إلا أربعَ خصال: مشيُ الرجل بين الغَرَضَين، وتأديبَه فرسَه، وملاعبتَه أهله، وتعليمَ السباحة**»، قال الحافظ المنذري في «الترغيب»: «إسناده جيد»، وصحَّحه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب» (١٢٨٢).

العضلاتِ المُمِدَّةَ له، وليس علمُ السباحة بالأمر الصعب، فلا يَلزمُ للإنسان سوى بعضِ الحركةِ الخفيفة ليبقى عائمًا على وجهِ الماء.

وفوائدُ السباحة كثيرة؛ منها:

أولًا: انتعاشُ البدنِ ببُرودةِ الماء؛ لا سيَّما في فصلِ الصيف بسببِ ما يفقِدُه الجسمُ من الحرارةِ وقتَ الاستحمام.

ثانيًا: ترويضُ الأعضاءِ بسبب ضغطِ الماء على الجسم وتمَوُّجِه.

ثالثًا: تنبيهُ الجِلدِ، وتنظيفُه، وانفتاحُ مسامِّه، وزيادةُ مُرونته.

وكلُّ هٰذه المفاعيل تُحسِّنُ الصحة، وتُكسِبُ الأنسجةَ الضعيفةَ صلابةً تساعد الجِلدَ على القيام بوظيفتِه المهمة، وهي إفرازُ بعض الفضولِ السامةِ مع العَرق.

فالسباحةُ ـ والحالةُ هٰذه ـ تُفيدُ المَهزُولين وأصحابَ المِعَى[١] الضعيفةِ والمصابينَ بالأمراض العَصَبية، وتَرُدُّ النومَ لأجفانِ المَصابين بالأرَق، وتُنعِشُ قُوى الجسم بوجهِ العموم، حتى لا تَعودَ تغيُّراتُ الطقس تؤثِّرُ فيه ـ ولا سيَّما فِعلَ البرد ـ، وتَقيهِ النزَلاتِ الصَّدْرية.

ولكي يُحسِنَ الإنسانُ السباحةَ لابد له من الابتداءِ بتعلُّمِها منذ حداثةِ سِنِّه، وعلى السابح أن يتنفَّسَ بكل هدوءٍ وسكينةٍ، ويتصورَ أن الماء مستنَدٌ طبيعي، وأن يتركَ الوهْمَ والخوفَ جانبًا، ولا يلزمُه أن يُصلِبَ أعضاءه ـ كما يفعلُ الكثيرون عندما يحاولون السباحةَ لأولِ مرة ـ، بل يلزمُه أن يتراخَى ويحرِّكَ ساقيه ويديهِ بكل تأنٍّ وبلا عـزم[٢]؛ لأن إجهـادَ القُـوى لا يفيدُ شيئًا، ولٰكنْ مُضِرٌّ يُتعبُ السابح.

---

(١) المِعَى: الأمعاء.

(٢) يقصد: بلا تشنُّج وعصبية.

هٰذه هي أهمُّ الأمـور التي يجبُ على الإنسـان أن يعرِفَها إذا أراد تَعلُّمَ السباحة.

وإذا اتَّبع السابحُ النصائحَ التي ذكرناها ـ ولا سيَّما عدمَ إجهادِ قُواه ـ يبلغُ منَ الإتقان شأوًا بعيدًا[1]؛ لأن ما ذُكر من قواعدِ السباحة مأخوذٌ عن عوَّامٍ شهيرٍ قَطع البحرَ سباحةً بين فرنسا وإنكلترا «خليج المانش»، وذٰلك غايةُ ما وَصل إليه الإنسانُ من إتقانِ فنِّ السباحة.

وما أحرى القاطِنينَ[2] على سواحلِ البحر وشواطئِ الأنْهُر ومَن يقضي فصلَ الصيف على السـواحل: أن يهتمُّـوا بتعليـم أولادِهم السبـاحة، وأن يتعلَّموا معهم ـ إذا كانوا لا يحسنونها ـ ؛ لأنها تفيدُ أجسامَهم ـ كما ذكَرْنا ـ ، وربما كانت سببَ نجاتِهم من مخالبِ الموت.

○ وفي المَثَل الدَّارج[3]: «الذي يُحسِنُ السباحةَ له عُمْرانِ».

꧁꧂

(١) الشأو: السَّبْق.

(٢) القاطنين: الساكنين.

(٣) الدارج: كثير الاستعمال والاعتياد.

١٣ ـ أدبُ المريض

١ ـ يَلزمُهُ حُسنُ الصبر، وقِلَّةُ الشكوى والضجر.

٢ ـ واستشارةُ طبيبٍ حاذقٍ عالِمٍ بأصول نواميسِ الصحة؛ دارسٍ لقواعدِ الطب.

٣ ـ و[يلزمُه] التَّداوي بما يُشيرُ به وقوفًا مع الأسباب التي وضعها المولى جلَّ شأنُه، ثم التوكل بعدها في الشفاء عليه سبحانه.

٤ ـ ويَلزمُ في كلِّ الأمراض الراحةُ ـ جسدًا وعقلًا ـ ؛ فيَسكُنُ عن الدُّروس والمصالح التجارية.

٥ ـ ويلزمُ أن تكونَ غُرفةُ المريض غيرَ معرَّضةٍ للأصوات؛ لئلَّا تُزعِجَ المجموعَ العصَبي، وأن تكونَ نظيفةً يَشرحُ الصدرَ منظرُها؛ فإن منظرَ الكريهِ يُزعجُ المريض، ويزيدُ في ألَمِه.

٦ ـ ويلزمُ أن تكونَ غرفةُ المريض واسعةً يدخلُها هواءٌ كافٍ، وأن يكونَ أثاثُها قليلًا لئلَّا ينحبسَ فيها هواءٌ فاسد، وألَّا يكونَ نورُها قويًّا لئلَّا يُهيِّجَ دَورانَ الدم في الدماغ، وأن يساعدَ على تهويتها دائمًا؛ ليتنفَّسَ المريضُ نقيَّ الهواء، فيدورُ الدمُ في الجسم نقيًّا، فيَقوَى فتشتدُّ قوةُ المِزاج على مُدافعةِ المرض؛ لأن الهواءَ الفاسدَ في غرفةِ المريض يُطيلُ الداء، وقد يُميتُ العليلَ تدريجيًّا.

٧ ـ ويؤخِّرُ فراشَه شيئًا ما عن نافذةِ الهواء، وتُهوَّى أمتعتُه وفراشُه يوميًّا.

٨ ـ وألَّا يتناولَ دواءً ويذوقَـه إلَّا بإشـارةِ طبيبٍ ماهرٍ ـ كما قدمنا ـ ، فلا يُصغي لمن يصفُ [له] دواءً وهو غيرُ طبيب؛ إذ لا يجوزُ لغير حكيمٍ وصفُ دواء.

⁂

١٤ ـ أدبُ الطبيب

○ قال الحكيم داودُ الأنطاكي في مقدمة «تذكرته»: «يجبُ على الطبيبِ إتقانُ العلوم التي تتوقفُ الإصابةُ في العلاج عليها، وأن يكونَ متينًا في دينه، متمسِّكًا بشريعته، دائرًا معها حيثما دارت، نسبتُه إلى الناس بالسواء[١]؛ خَلِيَّ القلب منَ الهوى، لا يقبلُ الارتشاء، ولا يفعلُ ما يَشاء، ليؤمَنَ معه الخطأ، وتستريحَ إليه النفوسُ من العناء.

وهاك صورةَ العهد الذي كان يأخذُه أبُقراط ـ رئيس هٰذه الصناعة ـ على متعاطِي الطب؛ كان يقول له: قلْ: برئتُ من قابض أنفُسِ الحكماء[٢]، وفيَّاضِ عقول العقلاء، ورافعِ أوْجِ السماء[٣]، مزكِّي النفوسِ الكلية، وفاطِرِ الحركاتِ العليَّة، إن خبأتُ نُصحًا، أو بذلتُ ضُرًّا، أو كلَّفتُ شرًّا، أو تدلَّستُ[٤] بما يَغُمُّ النفوسَ وَقعُه، أو قَدَّمتُ ما يَقِلُّ عملُه ـ إذا عرفتُ ما يَعظُمُ نفعُه[٥] ـ.

وعليك بحُسن الخُلُق؛ بحيثُ تَسَعُ الناس، ولا تُعظِّمُ مرضًا عند صاحبِه، ولا تُسِرَّ إلى أحدٍ عند مريض[٦]، ولا تَجِسَّ نبْضًا وأنت عابس، ولا تُخبِرْ بمكروه، ولا تطالِبْ بأجر، وقدِّمْ نفعَ الناس على نفعِك، واستفرِغْ ـ لمن ألقى إليك زمامَه ـ ما في وُسعِك، فإنْ ضيَّعتَه فأنت ضائع، وكلٌّ منكما مشترٍ وبائع، واللَّهُ الشاهدُ عليَّ وعليك في المحسوسِ والمعقول، والناظرُ إليَّ

---

(١) أي: الناس جميعًا يرونه بصورةٍ واحدةٍ من محبة الخير لهم والحنوِّ عليهم، وليس كحال كثيرٍ من أطباء زمانِنا يعاملون بالحسنى وكل جميل من يدفع لهم أكثر.

(٢) المقصود من هٰذا ـ وما بعده ـ رب العالمين ﷻ.

(٣) الأوْج: العالي. وأصل الكلمة: الصعود.

(٤) لعل المراد: أخبرتُ، وإلا فلم أتبيَّنْها؛ فإن ما في كتب اللغة لا يناسب السياق.

(٥) أي: إذا وصفت دواءً ذا نفعٍ ضعيف، وأنا أعلم ما هو أنفعُ منه وأجدى.

(٦) أي: لا تكلِّم أحدًا عند المريض سرًّا؛ فإن المريض يقلق ويشك أنك تكتمُ عنه شيئًا.

وإليك، والسامعُ لمَا نقول؛ فمَن نكث عهدَه فقد استُهدِفَ لقضائه[١]؛ إلَّا أن يخرجَ عن أرضه وسمائه، وذٰلك من أمحلِ المُحال، فيَسلُكُ المؤمنُ سبيلَ الاعتدال».

○ قال الحكيمُ داود: «قد كانت اليونانُ تتخذ هٰذا العهد دَرسًا، والحكماءُ مُطلقًا تجعله مصحفًا».

ﮩﮪﮫﮬ

---

(١) أي: عرَّض نفسه لعقاب اللّٰهِ تعالى.

١٥ ـ أدبُ العيادة

١ ـ خِفَّةُ الجَلْسة.

٢ ـ وقلَّةُ السؤال.

٣ ـ وإظهارُ الرِّقَّة.

٤ ـ والدعاءُ بالعافية.

٥ ـ وغضُّ النظر عن عوراتِ الموضع.

٦ ـ والأحسنُ في العيادة: أن يَستخبر من أهله، أو يجتمعَ بهم وحدَهم، أو يُهدي إليه السلام.

○ فقد قال بعض الأطباء: «لا يجوزُ إزعاجُ المريض بالعيادة ـ ولو كانت قصيرة ـ ؛ لأن التنبيهَ الناشئَ من زيارته يؤذيه ويزيدُ في مرضه؛ سيَّما بعيادة الثقلاء ومَن لا يُعرِضُ عن اللغو»[1].

٧ ـ وألَّا تُسمَعَ الأصواتُ في غرفته، ولكي يتمَّ ذٰلك فلا يجوزُ أن يَبقَى فيها أشخاصٌ أكثرُ ممن يلزمُ لخِدمةِ المريض.

٨ ـ وأن تكون حركاتُ خدمتِه برفقٍ وبلا صوت.

٩ ـ ويُحترزُ عن إغلاق الأبوابِ بعنف، وعن صريرِ المفصَّلات[2]، وعن النجوى إذا كانت كثرتُها تُضيِّقُ صدرَ المريض.

---

(١) أوافقُ هٰذا القائلَ على منْع دخولِ الثقلاءِ وأمثالهم على المرضى، لٰكنْ تركُ العيادة بالكلية فيه نظرٌ لا يخفى، وليس كلُّ مرضٍ يحسُنُ معه تركُ العيادة، ولا كلُّ أحدٍ يحسُنُ ألَّا يزورَ أخاه المريض؛ بل زيارةُ الأحبةِ المقرَّبين، والوقوفُ عند الضوابط الشرعية والعُرفية الحكيمةِ في الزيارة مما يُسعِدُ المريض ويقوِّي نفسه ـ بإذن اللّٰه تعالى ـ.

(٢) يقصد التي تكون في الأبواب، والتي تُصدِرُ أصواتًا عند فتح الباب وإغلاقه.

١٠ ـ ولا يجوزُ إخبارُه بما يُكدِّرُه، ولا الإشارةُ إلى خَطَر مَرَضه[١].

ﮧﮧﮧﮧ

(١) قرأتُ في بعض المراجع التي تحدَّثت عن الحضارة الإسلامية في عصورها الزاهية: أن دُورَ الشفاء ـ المشافي ـ قديمًا كان لها نظامٌ جميلٌ مع المرضى؛ إذ كان منَ العاملين فيها أشخاصٌ دَورُهم أن يأتوا بجوارِ حُجرات المرضى، ويتكلَّمون بصوتٍ يسمعُه المريض من أن حالتَه طيِّبة، وأنه على وشك الشفاء ـ بإذن اللّٰه ـ ، وأنه بخير، ومرضُه ليس خطيرًا، ونحو هٰذا من العباراتِ الطيِّبة، فكان المريضُ إذا سمع مثلَ هٰذا تنشرحُ نفسه، ويبتهجُ قلبه، وتَقوَى نفسُه على تقبُّل العلاج.

١٦ ـ أدبُ تشييع الجنازة

١ ـ لزومُ الخُشوع.
٢ ـ وتركُ الحديث[١].
٣ ـ وملاحظةُ الميِّت.
٤ ـ والتفكُّرُ في الموتِ، والاستعدادُ له.
٤ ـ وألَّا يَذكُرَ الميتَ إلا بالجميل المعروفِ منه[٢].

(١) فضلًا عن الضحك والمُزاح الذي صرنا نراه في الجنازات، ورضي اللَّهُ عن ابن مسعود حينما كان في جنازة فرأى رجلًا يضحك، فقال له: «أتضحك في الجنازة؟!! واللَّهِ لا أكلِّمك أبدًا». «إتحاف السادة المتقين»، للإمام الزَّبيدي (١٤/ ٢٤٣)، و«الهجر في الكتاب والسنة» للشيخ مشهور حسن آل سلمان (١٧٦).

(٢) ومن منكرات عصرنا ـ في الجنازات أيضًا ـ شربُ السجائر أثناء التشييع، وكأنهم خرجوا للنزهة في حديقةٍ عامة!! فأين العظة والاعتبار؟!.

١٧ ـ أدبُ المُعَزِّي ـ بكسر الزاي ـ

١ ـ التوجُّعُ للمصاب والتحزُّن(١).

٢ ـ والدعاءُ له.

٣ ـ وتسليتُه بما يخفِّفُ أَلَمَه؛ لا بما يُهيِّجُ أشجانه(٢).

٤ ـ وقلةُ الحديث.

٥ ـ وتركُ التبسُّم والمُجُون(٣).

---

(١) أي: إظهارُ ذلك ـ وإن كنتَ لا تشعرُ به حقيقةً ـ ؛ وهٰذا ليس من الكذب؛ بل مِن حُسنِ المعاملةِ وجميلِ المواساة.

(٢) من أجمل الكلمات التي سمعتها من بعض المعزِّين أنه لمَّا رأى شدة حزن قريب المتوفَّى قال له: «مما يصبِّرك على موت حبيبك أن تعلم أن الذي قبض روحه هو اللّٰهُ تعالى مالك الروح، وليس لنا أن نسأل اللّٰهَ تعالى: لِمَ فعلتَ ذٰلك؟! ولو كان أحدٌ آخرُ غير اللّٰهِ تعالى هو الذي سلب الروح لَمَا تركناه، فهوِّن عليك؛ وقابل أمره تعالى بالتسليم».

(٣) المُجون: الخلاعة.

١٨ ـ أدبُ المُعزَّى ـ بفتح الزاي ـ

١ ـ التجلُّدُ والصَّبرُ والتصبُّر والتسليمُ لأمرِه تعالى.

٢ ـ والتذكُّرُ بأن ما أصابه هو سُنةُ اللَّه في خَلْقه.

○ قال حكيمٌ: «مَن عَلِم أن أحدًا مِن الناس لم يأخذ على اللَّهِ عهدًا بدوام النِّعَم والسلامةِ من الآفات، وأنَّ ما في أيدينا ـ من مالٍ وولدٍ وعزٍّ وجاهٍ ـ إنما هو عاريةٌ[١] أعارَنا اللَّهُ إياها ـ ولو شاء مَنَعها فلم يُعطِها ـ : كان حَرِيًّا أن يتوقَّعَ استردادَها في كلِّ حين، وزوالَها في كل يوم، فإذا زالت لا يَرِدُ على النفس ما يُزعِجُها، ولا يفاجئُه ما لم يكن يترقَّبُه، ومَن نظر في أمر هٰذه الحياة وخَبِر شؤونَها وتصرفاتِها، وقَتلَها علمًا وتجربةً؛ علم أنها معتركٌ هائلٌ يموجُ بالرَّزايا موجًا، وأن الإنسان فيها بمثابةِ المُخاطِرِ في معتركِ الحرب؛ إنْ فاتته ضربةُ سيف لا تفوتُه طعنةُ رُمحٍ أو رَميةُ سهم؛ غيرَ أن لكل طبقةٍ من الناس بلايا خاصةً ومصائبَ تُغايِرُ مصائبَ الطبقات الأخرى، وإن كان أثرُها في الكلِّ واحدًا.

فمَن أراد ـ بعد هٰذا ـ مِن حياته صفاءً لا يشوبُه كَدَر، وسعادةً لا يخالطُها شقاءٌ، فلْيَعِشْ في عالَمٍ غيرِ هٰذا العالَم، ولْيَطلبْ حياةً غيرَ هٰذه الحياة، ذاتَ نظام غير هٰذا النظام، وسُنةٍ غيرِ هٰذه السُّنن ـ إن استطاع إليها سبيلًا ـ ؛ ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٦٢﴾ [الأحزاب]».

---

(١) العارية: السُّلفة المؤقَّتة.

١٩ ـ أدبُ زيارة القبور

١ ـ تُستحبُّ زيارةُ القبور للرِّجال، وتُكرهُ للنساء؛ إلَّا أن يقع منهن محظورٌ فتَحرُمُ عليهن[(١)].

٢ ـ فالزائرُ يقفُ أمامَ القبر، ويَقرُبُ منه، ويُسلِّمُ على صاحبه، ويدعُو له.

٣ ـ ولا يتمسَّحُ بالقبر[(٢)].

٤ ـ ولا يصلِّي عنده؛ لثبوت النَّهي عن ذٰلك في المأثور عن النبي ﷺ[(٣)].

٥ ـ ويقولُ ـ إذا دخل المقبرة ـ : **«السلامُ عليكم ـ دارَ قومٍ مؤمنين ـ ، وإنا ـ إن شاء اللَّهُ ـ بكم لاحِقون[(٤)]، يرحمُ اللَّهُ المُستقدِمِينَ منَّا ومنكم والمُستأخِرين،**

---

(١) الراجحُ ـ الذي اختاره طائفةٌ من العلماء ـ أن زيارة النساء للقبور مستحبةٌ ـ إذا كانت بالضوابط الشرعية ـ ، والأدلةُ التي فيها النهيُ عن زيارتِهنَّ للمقابر ما بين ضعيفٍ لا يصح، وما بين منسوخٍ أو مؤوَّل، والأدلةُ الآمرةُ بزيارة القبور عامةٌ للرجال والنساء، ولٰكن ـ كما قلت ـ لابد أن تكون بالضوابط الشرعية، وعلى رأس هٰذا ارتداءُ الحجاب الشرعي «النقاب» ـ وهو فرضٌ في أصح الأقوال ـ ، وعدمُ الاختلاط بالرجال، وعدمُ الجزع والتسخُّط على قضاء اللَّه وقدَره، وبمخالفة هٰذه الضوابط يدخلُ الأمر بين التحريم والكراهة، واللَّهُ تعالى أعلى وأعلم.

(٢) هٰذا فضلًا عن دعاءِ المَقبور بجلب الأرزاق، وتفريج الهموم والكرُبات، وشفاءِ الأمراض، فكلُّ هٰذا من «الشرك الأكبر» المُخرِجِ من الملَّة، ويجبُ على الدعاةِ كثرةُ التنبيهِ على هٰذه الأمور حتى لا يَهلِكَ بسببها العوام.

(٣) ومن ذٰلك ما ثبت عنه ﷺ أنه قال: **«الأرض كلُّها مسجدٌ إلا المقبرةَ والحَمَّام»، صحيح:** رواه أحمد (٣/ ٨٣)، وأبو داود (٤٩٢)، الترمذي (٣١٧)، وابن ماجه (٧٤٥)، وابن حِبَّان (١٦٩٩)، وصحَّحه الشيخ شعيب الأرنؤوط، والعلَّامة الألباني.

* وراجع حكم المسألة بتوسع في كتاب: «أحكام المقابر في الشريعة الإسلامية»، للشيخ عبداللَّه بن عمر السحيباني (٣٣١ ـ ط: دار ابن الجوزي ـ الدمام).

(٤) الاستثناء يرجع للُحوقِ بوصف الإيمان. اهـ (القاسمي).

نسألُ اللَّهَ لنا ولكم العافية، اللهمَّ لا تَحْرِمْنا أجْرَهم[١]، ولا تفتِنَّا بعدَهم، واغفِرْ لنا ولهم»[٢][٣].

○ «والقصدُ من الزيارة: الدعاءُ للميت، والاعتبارُ به، وترقيقُ القلب، وتذكُّرُ الآخرة، وإنما يحصلُ له الاعتبارُ بأن يصوِّرَ في قلبه الميتَ كيف تفرَّقت أجزاؤه، وكيف يُبعث من قبره، وأنه على القُرب سيَلحقُ به»[٤].

(١) أي: لا تحرمنا أجرَ الصبر على المصيبةِ بموتهم.

(٢) من «الإقناع» و«شرحه». (القاسمي).

(٣) صحيح: رواه أحمد (٦/ ٢٢١)، ومسلم (٩٧٤)، والنسائي (٢٠٣٧).

(٤) للإمام الغزَّالي. (القاسمي).

٢٠ ـ أدبُ زيارة النبيِّ ﷺ[(١)]

١ ـ مَن أقبَلَ على المدينةِ المنوَّرة[(٢)]، فلْيُكثِرْ من الصلاةِ والسلام على النبي ـ صلواتُ اللَّه عليه وسلامه ـ.

٢ ـ ولْيَغتسلْ قبلَ الدخول إليها، ولْيتطيَّبْ، ولْيَلبس أنظفَ ثيابه.

---

(١) لم يثبُتْ في صحيح السُّنة النبوية المطهَّرة أيُّ حديثٍ في فضل زيارة «قبره» الشريف ﷺ، وإنما الثابت هو فضل زيارة «مسجده» ﷺ؛ ومعلومٌ أن قبرَه ﷺ لم يكن داخل المسجد أصالةً لمَّا انتقل للرفيق الأعلى ـ بأبي هو وأمي ﷺ ـ ؛ وعليه فالذي يريد الذهابَ للمدينة فلتكن نيَّتُه زيارةَ مسجده الشريف ﷺ، وعندما يكون هناك يتشرفُ بالسلام على الحبيب المصطفى ﷺ.

(٢) سُئل فضيلة الشيخ العلَّامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما حكم قول: «المدينة المنورة»؟ وما العلَّة في ذلك؟.

فأجاب: «المدينة المنورة» هذا اسمٌ حادث، ما كان معروفًا عند السلف، وهم يقولون: «إنها منورة لأنها استنارت بالدين الإسلامي؛ لأن الدين الإسلامي ينوِّرُ البلاد»! ولا أدري قد يكونُ أولُ من وضعها يعتقد أنها نورٌ إلى الآن، أو أنها تنوَّرت بوجود الرسول ﷺ، لا ندري ما نيَّته، ولكن خيرٌ من هذه التسمية أن نقول: «المدينة النبوية»، فـ«المدينة النبوية» أفضلُ من «المدينة المنورة» ـ وإن كان ليس بلازم أيضًا ـ ؛ لو قلت: «المدينة» كفى، ولهذا تجد عبارات السلف: «ذهب إلى المدينة، رجع إلى المدينة، سكن المدينة»، والرسول ﷺ يقول: «المدينةُ خيرٌ لهم» [رواه مسلم (١٣٨١)]، ولم يقل: «المنورة» ولا «النبوية»؛ لكن إذا كان لابد من وصفها فإن «النبوية» خيرٌ من «المنورة»؛ لأن تميُّزَها بالنبوَّة أخصُّ من تميزها بالمنورة؛ إذ أننا إذا قلنا: «المنورة» ـ يعني التي استنارت بالإسلام ـ صار ذلك شاملًا لكل بلدٍ إسلامي؛ فهو منورٌ بالإسلام، فإذا كان لابد من أن تصفَها بشيءٍ، فصِفْها بـ(النبويَّة)».

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في موضع آخر: «لا يقال: «المنورة»؛ لأن كل بلد دخله الإسلام فهو منورٌ بالإسلام؛ ولأن ذلكَ لم يكن معروفًا عند السلف، وكذلك جاء اسمُها في القرآن بـ«المدينة» فقط، لكن لو قيل: «المدينة النبوية» لحاجةِ تمييزها فلا بأس». «مجموع فتاوى ورسائل العلَّامة محمد بن صالح العثيمين» (٢٣/ ٤٢٣ ـ ٤٢٤)؛ نقلًا عن «المستدرك على معجم المناهي اللفظية»، للشيخ الفاضل سليمان بن صالح الخراشي (٢٢٥، ٢٢٦ ـ ط: دار طيبة).

٣ ـ ثم يقصدُ المسجدَ النبوي، ويصلِّي فيه بجنبِ المنبرِ ركعتين.

٤ ـ ثم يأتي قبرَ النبي ﷺ، فيقفُ عند وجهِه الكريم، وذٰلك بأن يستدبرَ القبلة، ويستقبلَ جدارَ القبر الأعطر على نحوٍ من أربعةِ أذرُع، ولا يمَسَّ الجدار، ولا يُقبِّلُه؛ بل يتأدبُ في الوقوف من بُعدٍ، ويقول: «السلامُ عليك ـ يا رسول اللَّه ـ ، السلامُ عليك ـ يا نبيَّ اللَّه ـ ، السلامُ عليك ـ يا حبيبَ اللَّه ـ ، السلام عليك ـ يا خِيرةَ اللَّه من خلقه ـ ، السلامُ عليك ـ يا أكرمَ الخلقِ على ربِّه ـ ، السلامُ عليك ـ يا إمامَ المتقين ـ ، السلامُ عليك ـ يا خاتمَ النبيين ـ ، السلام عليك ـ يا فاتحَ البَر ـ ، السلامُ عليك ـ يا نبيَّ الرحمة ـ ، السلام عليك وعلى أهل بيتِك الذين أذهب اللَّهُ عنهم الرجسَ، وطهَّرهم تطهيرًا، السلامُ عليك وعلى أصحابك الطيِّبين، وعلى أزواجِك الطاهراتِ أمهاتِ المؤمنين، جزاك اللَّهُ عنا أفضلَ ما جزى نبيًّا عن قومه، ورسولًا عن أمَّته، وصلَّى عليك أفضلَ وأكملَ وأعلى ما صلَّى على أحدٍ من خلقه، كما استنقَذَنا بك من الضلالة، وبصَّرَنا بك من العماية، وهدانا بك من الجهالة، أشهدُ ألَّا إلٰهَ إلا اللَّه، وأشهدُ أنك عبدُه ورسوله، وأمينُه وصفيُّه، وأشهدُ أنك قد بلَّغتَ الرسالة، وأدَّيتَ الأمانة، ونصحتَ الأمة، وجاهدت عدوَّك، وهَديتَ أمتك[١]، وعبدتَ ربَّك حتى أتاك اليقين[٢]، فصلَّى اللَّهُ عليك وعلى أهلِ بيتك الطيِّبين وسلَّم تسليمًا».

٥ ـ ثم يتأخَّرُ قدْرَ ذِراعٍ ويُسلِّمُ على أبي بكرٍ الصَّديق رضي الله عنه، ثم يتأخرُ قدر ذراعٍ ويسلِّمُ على الفاروقِ عمر رضي الله عنه، ويقول: «السلامُ عليكما ـ يا وَزيرَيْ رسول اللَّه ﷺ، والمعاونَينِ له على القيام بالدين ما دام حيًّا، والقائمينِ في أمته بعدَه بأمر الدين، تتَّبعانِ في ذٰلك آثارَه، وتَعمَلان بسُنَّته، فجزاكما اللَّهُ خيرَ ما جزى وَزِيرَيْ نبيٍّ عن دينه»[٣].

❊❊❊

(١) أي: أرشدتَهم إلى طريق الحق، أما هداية التوفيق لقبول هٰذا الحق، فهي للَّهِ تعالى وحده.
(٢) اليقين: الموت.
(٣) من «الإحياء» للغزالي ملخَّصًا. (القاسمي).

٢١ ـ وصيةٌ في التشييع وما بَعدَه[١]

يَعجَبُ العاقلُ من بِدَعٍ عمَّ ضررُها وفشا بلاؤها، واستَحكمَتْ جُرثومتُها في نفوس كثيرين؛ حتى أصبح طرحُها بدعةً، والتمسُّكُ بها سنةً.

هٰذا هو تشييعُ الجنازةِ اليوم؛ قد حَوى منَ البدع المُضرَّةِ ما لا تَتسعُ لبيانه هٰذه الوريقاتُ، يعلمُ ذٰلك مَن رَجع إلى أمَّهاتِ السُّنةِ وكتبِ الفقه.

ولئلَّا أُخْلِيَ القرَّاء منَ الفائدة، أُوردُ لهم هٰذه الوصية ـ الوصيةَ في التشييع وما يَعقُبُه ـ لأحد الفضلاء؛ عِبرةً لقوم أُشربت قلوبُهم حبَّ الظهور أو التظاهر؛ بل الفخر أو التفاخُر، لعلَّهم يتذكَّرون، أو تنفعَهم الذِّكرى، وهاكَها بنصِّها الفائق:

○ قال: «وصيَّتي لأقربائي، وأصحابي وأصدقائي: إذا نُعيتُ إليكم[٢]، ونزل خبرُ انتقالي عليكم، فاجتمِعوا لتشييعي، وقُوموا بسُنةِ توديعي، ولٰكنْ أُحذِّرُكم أن تَسمَحوا لنادبة، أو تسمعوا لصاخبة، أو أن ترضَوا لفاطمة[٣] أن تكون لاطمة، أو تأذنوا لنائحة، وأن تُنصِتوا لصائحة، أو تفتحوا بابًا للمؤبِّنات[٤]؛ هٰؤلاء اللاتي اشتُهرن بـ«المُعدِّدات».

ثم اعلَموا أنَّ الحُزنَ إنما هو في القلوب، لا بلطمِ الخُدود، ولا بشَقِّ الجُيوب، فأنهاكم أن تأتوا شيئًا من هٰذه المعائب، وأن تحمِلوا أوزارَكم على ظهوركم بِهٰذه المثالب.

فالنبيُّ ﷺ لمَّا فُجع بولده وفلْذةِ كبِدِه قال: «إنَّ العينَ لتَدمَع، وإنَّ القلبَ

---

(١) من كتاب «آداب الفتى». (القاسمي).

(٢) أي: جاءكم خبرُ موتي.

(٣) الفَطْم: القطع. فيكون المقصود ـ واللّٰهُ أعلم ـ قاطعة الثياب، أو لعله اسم زوجته.

(٤) التأبين: مدح الرجل سواء كان حيًّا أو ميتًا، وقال بعضهم: هو خاصٌّ بالميت فقط.

لَيَخشَع، وإنَّا بك ـ يا إبراهيمَ ـ لمَحزُونون، إنا للّٰهِ وإنا إليه راجعُون»[(١)].

ولذٰلك لا تخرجُ وراءَ النعشِ قريبةٌ ولا جارَة، ولا صاحبةٌ ولا نَسِيبة[(٢)]، لا راكباتٍ ولا راجلات[(٣)]، ولا مُبرقَعاتٍ ولا سافرات[(٤)]، ولا أُختي ولا زوجتي، ولا بنتُ أختي ولا بِنتي، وقد نَهَى عن ذٰلك سيدُ الكائنات[(٥)] بقوله: **«ارجِعْنَ مأزُوراتٍ[(٦)] غيرَ مأجوراتٍ»**[(٧)].

وإياكم وخروجَ النساء إلى القبر، فذٰلك عيبٌ لا يُستطاعُ عليه الصبر[(٨)]، أما أنتم فإذا زُرتُمُ المقابر فلْيَكُنْ للعِظة، ولكم في ذٰلك ذِكرى وموعظة، تنظرون إلى الموتى في حضرتكم نَظَرَ الذي سيَلحقُ بهم في ليلةِ زَوْرتِهم[(٩)]، وتتفكَّرون في من ضَمَّت هٰذه المقابرُ منَ الأكابر والأصاغر، ومِن ملِكٍ ومملوك، وأميرٍ وصُعلوك، وكيف حلَّ بهم الموت، فجعلهم ـ أجمعَ ـ لا ينتظرون غيرَ عفوِ ربِّهم؛ لا شيءٍ مما اقتنَوا، ولا قصرٍ مما بنَوا، ولا مالٍ ولا بنين، ولا أملٍ في غير ربِّ العالمين، فيَظهرُ لكم بأجلَى برهانٍ قُدرةُ الواحد الديَّان، وكيف أننا بعدَ الحياة ميِّتون، وبعد الموت منتشِرون.

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٣/ ١٩٤)، والبخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥)، وأبو داود (٣١٢٦).

(٢) صاحبة: زوجة. نَسِيبة: امرأة قريبة مني في النسب.

(٣) راجلات: على أرجلهن.

(٤) مُبرقَعات: منتقبات. سافرات: كاشفاتٍ وجوهَهن، وهو حرامٌ ـ كما سبقت إشارة ـ.

(٥) في هٰذا الوصف نظرٌ؛ فإن النبيَّ ﷺ لم يَرِد عنه أنه وَصف نفسه به، وسيدُ الكائنات هو ربُّ العالمين، وهٰذا الوصفُ أشبهُ بالأوصاف التي يُطلقُها الصوفيةُ عليه ﷺ فلْيُحذَرْ.

(٦) مأزورات: آثمات عاصيات.

(٧) ضعيف: رواه ابن ماجه (١٥٧٨)، والبزار (٦٥٣)، والبيهقي في «السنن» (٤/ ٧٧)، وضعَّفه الإمام البوصيري، والشيخ شعيب الأرنؤوط، والشيخ الألباني.

(٨) سبق التنبيه على هٰذه المسألة ص (١٩٥).

(٩) الزَّوْرة: الزيارة.

وكذٰلك اجتنِبوا السَّـرَفَ في النفقـات، والنُّقوشَ في الحِجارة[1]؛ فذٰلك عملٌ لا يفيدُ ساكنَ القبر، وفي التباهي به وِزرٌ على وِزر.

وبالجملة: آمرُكم أن تكونوا عندَ حدِّ الشرعِ الطاهر، ولا تقرَبوا شيئًا من تلك المَظاهر، وأن تحارِبوا تلك البدعَ بعِدَّتكم وعُدَّتكم، وتُجاهِدوا لإزالةِ تلك المنكرات بجميع قوَّتِكم، لتطهِّروا بيتَ العِلم من مثلِ هٰذا الإثم؛ لأنه إذا كانت بيوتُ العلماءِ ميدانًا لهٰذا البلاء، ومآتمُ الكبار تشتملُ على مثل هٰذا العار، فكيف يُرجى لنا الصَّلاح، أو تتعلق آمالُنا في النجاح؟!.

كنتُ في الحياة أَظهرُ بأجملِ رونق، بثيابٍ من سندسٍ وإستبرق، وأنا إلى البِلَى اليومَ صائر، فمـا معنى هٰـذه المفـاخر؟ هل لتُجِلَّني الأشلاء[2] ـ كما يفعل الأحياء ـ ؟! أم تَخشَـون أن تَحقِـرَني أهـلُ الدار الآخـرة، فتُدثِّرُوني[3] بحَنُوطِكُمُ الفاخرة، وتزِفُّوني بحفلاتكم الباهرة؟ أم ليتَ شِعري[4] ما الذي يدعُوكم لركوب هٰذه الآفات، واحتمالِ هٰذه النفقات؟!.

ذٰلك ـ لَعَمْرُ الحقِّ[5] ـ لا ينفع، وما تقدِّمونه لي من هٰذا المُبتدَع لا يَشفع؛ فاللَّهُ ـ الذي وَعَـد المتقيـن خيـرًا في الـدار الآخرة ـ يقول: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة].

فمَن سَلك سبيل الطاعات يُحمَدُ منه السُّرَى[6]، فقد قال تعالى: ﴿وَأَن

(١) أي: الكتابات التي تُكتب على القبور، وقد نَهى عنها رسول اللّٰه ﷺ.
(٢) أي: هل فعلتم هٰذا لتعظِّمَني الموتى الذين صاروا أشلاءً؟!.
(٣) تدثروني: تغطوني وتكفنوني.
(٤) ليت شعري: ليتني أعلم.
(٥) هٰذا قسمٌ بحياةِ رب العالمين، وحياتُه من صفاته ﷻ، فهو قسمٌ جائزٌ بالإجماع.
(٦) السُّرى: السير ليلًا، وهو مثلٌ سائر؛ يقال فيه: «عند الصباح يَحمَدُ القومُ السُّرى»، أي: عند بزوغ الفجر يَسعَدُ المجتهدون بالليل ـ الذين قطعوا السفرَ ولم يناموا مع النائمين ـ ببلوغ غايتهم. والمقصود من كلام المصنف: أن المجتهدين في الطاعات يَفرحون يوم =

لَيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النجم]، ومَن ضل عن الصراط السَّوِي، ولم يتبيَّنْ له الرُّشدُ من الغَي، فبشِّرْه بالعذاب الأليم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾﴾ [المائدة].

فيا قوم، كِتابُكم[1] وَعَدكم بالثواب على الحسنات، وأوعَدَكم بالعِقاب على السيئات، واللَّهُ لا يخلفُ الميعاد، ولا يُمنَعُ ما أراد[2]، فاعمَلوا بأوامره، واجتنِبوا نواهيَه، تكونوا من الفائزين».

قال الكاتب: «فهٰذه وصيَّتي بكتابي لجميع الذين يحضُرونه، ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ [البقرة: ١٨١]» اهـ ملخَّصًا.

= القدوم على مولاهم بما قدَّموا لأُخراهم.

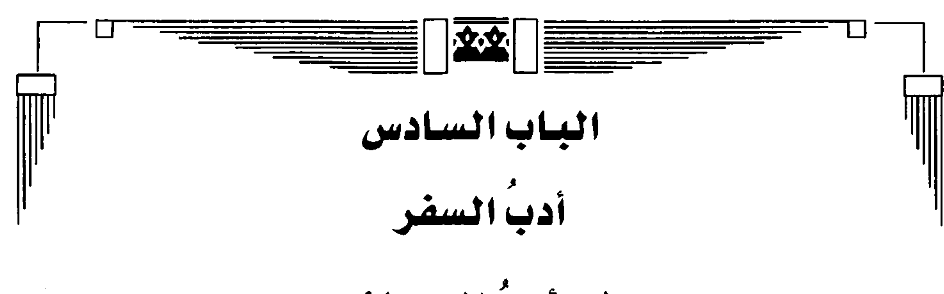
(١) يعني القرآن العظيم.

(٢) أي: ما يريده اللَّهُ تعالى لا يمنعه أحدٌ.



الباب السادس

أدبُ السَّفر



الباب السادس

أدبُ السفر

١ ـ أدبُ المسافر

١ ـ أن يبتدئَ بِرَدِّ المَظالِم وقضاءِ الديون، وإعدادِ النفقةِ لمن تلزمُه نفقتُه، و رَدِّ الودائع ـ إن كانت عنده ـ .

٢ ـ وأن يُطيِّبَ زادَه(١)، ويَطعَمَ منه.

٣ ـ وأن يأخذَ ما يوسِّعُ فيه على رُفقائه.

٤ ـ وأن يُطيِّبَ كلامه، ويُظهِرَ مكارمَ الأخلاق، ويُحسِنَ إلى المُكارِي(٢).

٥ ـ ويُعينَ الرُّفقةَ بكل ممكن، ويداعبَهم، ويُطايبَهم ـ من غير فحشٍ ومعصية ـ ؛ ليكون ذٰلك شفاءً لضَجَر السفر.

٦ ـ وأن يقصدَ من سفره زيادةَ علمٍ أو أدبٍ، أو تبصرةً من تجربة، أو تعرُّفِ آياته تعالى(٣).

ﮩﮩﮨﮨ

---

(١) أي: يكون من الحلال الطيب.

(٢) المُكاري: مؤجِّر الدواب.

(٣) كما ستراه في «كلمة السياحة». (القاسمي).
قلت: ستأتي قريبًا.

٢ ـ أدبُ الركوب في القِطار[١]

١ ـ إذا عزمتَ على السفر فتعرَّفْ مواعيدَ حركةِ القطار.

٢ ـ وعليك أن تذهبَ قبل الميعاد بنصفِ ساعةٍ لأخذِ بطاقةِ الركوب.

٣ ـ واحذَرْ من النشَّالينَ في موقفِ بَيع البطاقات.

٤ ـ وأن تبتعدَ عن الزِّحامِ بقدرِ الإمكان.

٥ ـ وضعْ أمتعتَك في مكانِ ركوبك بترتيب.

٦ ـ واجلس غيرَ مزاحِمٍ لرُفقائك؛ وكنْ معهم في أدبٍ وإيثار، ولا تُسِئْ أحدًا منهم، وشارِكْهم في الحديث إذا رغِبوا.

٧ ـ وإذا وقف القطارُ فلا تُسرِعْ في النزول، وانتظر تمامَ وقوفِه، ونزولَ المُزاحِمين.

٨ ـ وسلِّم أمتعتَك للحَمَّال بالعَدَد، وخُذ عَدَده «نِمرَته»، ثم اركبْ إلى منزلِكَ بسلام.

---

(١) ويدخل فيه ـ بالطبع ـ وسائلُ المواصلات الشبيهة.

٣ ـ كلمةٌ في السياحة[١]

○ قال حكيمٌ: «السياحةُ تَزيدُ في سَعةِ المَدارك، وتُشرِفُ بالإنسان على أسرارِ العالَم، وعلى نواميسِ[٢] العُمرانِ والخرابِ في الأمم، وعلى أسباب المدَنيةِ والوحشيةِ في الشعوب، وتجعلُ للإنسان فِكرةً عامةً على معنى الحياة الإنسانية الصحيحة.

والنظرُ في الكون نتيجتُه توسيعُ نطاق السلطة للعقل الإنساني على الإدراك والسَّرَيانِ في ضمائر الكون[٣]، والوقوفِ بالتصوُّرِ والفكر على المواقفِ التي هما[٤] جديرانِ بها من هٰذا العالَم البديع، وتخويلُ القوةِ البشريةِ خاصيةَ استخدام قُوى الكائنات في تحسين الحياة الإنسانيةِ وتهذيبها بما يُفتح للعقل من مُنغَلَقِ المساتير[٥]، ومؤصَدِ الأسرار[٦].

وهٰذا كلُّه ـ كما لا يخفى ـ يعلو بالعقل والفكر، ويَسمو بهما درجاتٍ متوالية، فيحصل ما يسمُّونه: الترقِّي في الهيئةِ الاجتماعية».



(١) راجع عن السياحة الكتاب القيم: «أحكام السياحة»، للشيخ هاشم بن محمد بن حسين ناقور ـ ط: دار ابن الجوزي ـ الدمَّام، ورسالة «حراسة السياحة»، للشيخ عليِّ بن أحمد الأحمد ـ ط: دار العاصمة.

(٢) **النواميس**: الأنظمة.

(٣) **الضمائر**: الأسرار.

(٤) أي: التصور والفكر.

(٥) **المساتير** ـ جمع «مستور» ـ، وهي: الخبايا.

(٦) **المؤصد**: المغلق.



الباب السابع

آدابُ النفقات، ومتفرِّقات



الباب السابع

آدابُ النفقات، ومتفرِّقات

١ ـ آدابُ النَّفقةِ المنزليَّة

إن عمادَ هٰذه ـ أعني النفقةَ المنزلية ـ الاعتدالُ، والقصدُ[١] بين التبذير والتقتير.

○ يقول ناصحٌ: «وشَرْطُه أن يكون الإنفاقُ أقلَّ من الدَّخْل ـ ولو زَهيدًا جدًّا ـ ؛ بحيث تُجمَعُ ثروةٌ من الموفَّرات مع الزمان، فإن للثروةِ المجموعة من الموفَّرات الزهيدةِ فائدتين عظيمتين:

أوَّلُهما: أنها تكونُ مالًا احتياطيًّا يُلجأ إليه عند مسيسِ الحاجة في حالةِ مرضٍ أوعجزٍ أو عُسرٍ لوقوف العمل؛ إلى أن يأتي الفرج.

وثانيهما: تكون قوةً إضافيةً تُثمَّرُ في تجارةٍ أو صناعة؛ بحيث تكون ذاتَ رِيعٍ[٢] لتنموَ وتتكاثرَ من نفسها مع الزمان.

وما يتذرَّعُ[٣] به البعضُ لتثميرِ أموالاهم من طريق الربا، فإنه ذريعةُ المقتِ الإلٰهي والعذاب الأبدي[٤].

ولعلَّك تقول: ما سرُّ تحريم الرِّبا في جميع الأديانِ السماوية[٥]، ولَعْنِ

---

(١) القصد: التوسُّط.

(٢) الرِّيع: الربح.

(٣) يتذرَّع: يتوصل.

(٤) إن قَصَدَ الخالدَ أبدًا، فيكونُ في مستحلِّ الربا، فإنَّ آكلَ الربا العالِمَ بتحريمه لا يكفر، إلا إذا استحله، أي: قال: «إنه حلال»؛ وهٰذا بعدَ قيام الحُجةِ عليه بأدلة التحريم.

(٥) في هٰذا التعبير نظر؛ والأولى أن يُقال: «الشرائع الربانية»؛ فإن الدينَ السماويَّ عند اللّٰهِ =

فاعِلِه في الكتب الإلٰهية؟.

فتُجاب: بأن ذٰلك لا يَخفَى على نَبيهٍ، وهل يُلفَى[١] محرَّمٌ إلا وآثارُ فسادِه جليَّة؟ هٰذا الرِّبا إنما حرُم لنتائجه الهادمة لبني الإنسان؛ فإن فيه إضرارَ المُحتاج، وتعريضَه للفقر الدائمِ والدَّينِ اللازم الذي لا ينفكُّ عنه، وتَوَلُّدُ ذٰلك وزيادتُه تجتاحُه، فتَسلبُه متاعَه وأثاثه، كما هو الواقعُ في الواقع.

فالرِّبا أخو القِمارِ الذي يجعل المقمورَ حزينًا محسورًا، فمن تمامِ حكمة الشريعة المنتظِمةِ لصلاح العباد تحريمُه، وتحريمُ الذرائعِ الموصِّلةِ إليه».

ﮋﮊﮉﮈ

= تعالى واحد؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، بينما الشرائعُ قد تتعدَّد من رسولٍ لرسول، كما قال أحكمُ الحاكمين: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

(١) يُلفَى: يوجد.

٢ ـ النفقةُ على البُؤساء

إنَّ من أعظمِ الآدابِ التي يجبُ رعايتها: «الزكاةُ» التي أوجبتها الشرائع، وفرضَتْها على كلِّ مُتموِّل[(١)] موسِرٍ، وذٰلك لما فيها من الفوائدِ الجَمَّةِ التي منها:

١ ـ سَدُّ حاجةِ المعدوم.

٢ ـ ورفعُ أحقادِ أهلِ الفاقةِ على من فُضِّلوا عليهم في الرِّزق.

٣ ـ وإشعارُ قلوبِ الأغنياءِ محبَّـةَ الفقراء، وسَوقُ الرحمةِ من أولٰئك على هٰؤلاء.

فتستقرُّ بذٰلك الطمأنينةُ في نفوس الناس، ولا دواءَ لأمراض الاجتماع أنجعُ من هٰذا ـ كما قال حكيمٌ إمام ـ .

فإذا كانت الزكاةُ بِهٰذه المثابة، وَجب رعايتُها وحفظها بآدابِها؛ فمن أهم تلك الآداب:

١ ـ تأديتُها بأوقاتِها للبائس الفقير، ومواساتُه بها بدونِ تمهُّل.

٢ ـ وأن يكونَ ذٰلك بصورةٍ سريةٍ خفيةٍ؛ بدون أن يَشعُرَ بها أحد.

وهناك حقٌّ آخرُ أُودِعَ في أموال الأغنياء عدا الزكاة، وهو إيتاءُ المال حيث تَعرِضُ الحاجةُ إلى بَذْلِه في غيرِ وقتِ أداء الزكاة[(٢)].

❊❊❊❊

(١) المُتموِّل: صاحب المال.

(٢) وقد ذكر هٰذا الإمام أبو حامد الغزَّالي رَحِمَهُ اللَّهُ في «الإحياء»، كتاب: «الزكاة» (٢/ ٣٣ ـ ط: دار المنهاج).

٣ ـ النفقةُ على العِلمِ والتَّرْبية

ما أجدرَ الأغنياءَ بإنفاقِ أموالهم على معاهدِ العلم والتربية[١]! وما أحقَّ الموسرينَ ـ بعد أن يَسُدُّوا عَوَزَ الفقراء المُدقِعين[٢] ـ أن يُحيُوا مَلَكاتِهم العقليةَ والفكرية، وأن يَملؤوا أدمغتَهم منَ العلوم العصرية التي عليها مدارُ رُقيِّ الأمم.

لا يجهلُ ـ مَن له أدنى مُسكةٍ من العقل ـ أن أهمَّ أسبابِ ذٰلك الارتقاء هو إنشاءُ المدارس وتشييدُ الكليَّات[٣]؛ وذٰلك لا يتأتَّى إلا بالتعاونِ والتعاضُد، وبذلِ المتموِّلينَ من الناس الدنانيرَ في هٰذا السبيل ـ سبيلِ العلمِ والتربية ـ ، ومَن وَقَف على سِيرةِ السلفِ الصالح يرى أنهم مهَّدوا لنا تلكَ السُّبلَ ـ قولًا وفعلًا ـ ، كما وُجد في هٰذا العصر كثيرون من أربابِ هٰذه النهضة[٤].

(١) يقصد المعاهِدَ الشرعيةَ ـ دون العلمانية أو المبتدعة ـ ، أو معاهدَ العلوم الدنيوية النافعة للأمة المسلمة.

(٢) العَوَز: الحاجة. المُدقِعين: الأذلَّاء، وأصل الكلمة من «التراب»! وكأن الفقيرَ مِن شدةِ فقرِه التصق بالتراب الذي لا يجدُ سواه.

(٣) وكلُّ هٰذا لابد أن يتمَّ بالضوابط الشرعية؛ فمخالفةُ الشرع شؤمٌ وضياع، وعلى رأس المهماتِ الواجبة حالَ إنشاء الكليات والمدارس: فصلُ الجنسين كلاهما عن الآخر، فإن الاختلاطَ نذيرُ شؤم ودمارٍ عليهم خاصةً، وعلى أُمَّتهم عامةً.

(٤) تلهج الجرائدُ الأوروبية كثيرًا في أمر النفقات الطائلة التي يؤدِّيها الأغنياءُ الأمريكيون مساعدةً لأنديةِ العلم والمدارس الكلية والمكاتب العامة، من ذٰلك أن كليةَ «برلستون» تلقَّت هباتٍ كثيرةً، منها قطعةُ أرض مساحتها (١٤٠) هكتارًا، وهِبَةً أخرى ذاتَ دخلٍ سنويٍّ يبلغ (٥٠٠) ألف فرنك، وخُصَّت في وصيةٍ بمبلغ قدرُه مليونَ ونصفٌ من الفرنكات، ومِن ذٰلك أن جامعة مدينة «يال» أُهديت إليها أرضٌ قيمتها مليونان ونصف من الفرنكات، ووُهبت كلية «فرجينيا» خمسةَ ملايين من الفرنكات منحتْها إياها أمريكية، وقالت في هبتها: إنها تريدُ أن يُنفَقَ ثمنها على شراء كتبٍ لتلك المدرسة، فلا تعجب بعد هٰذا للارتقاء العلمي عندهم! هٰذه هي الأعمالُ الخيريةُ الجاريةُ عندهم مجرى =

ولقد عثَرنا على خطابٍ بليغٍ لأحد الأساتذة المشاهير؛ افتتح به بافتتاح مدرسةٍ أنشأتْها إحدى الجمعياتِ الخيرية.

○ قال ما ملخَّصُه: «لا نريدُ أن نخاطبَ الموسرينَ الذين أغْوَتْهم شِرَّةُ الغِنى، وأسكرتْهُم خَمرةُ الشباب، فقدِموا بأموالهم في هُوَّةِ الضياع، وصَرفوا الطارفَ والتليد(١) فيما يضرُّ ولا يُفيد، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وإنما نقصدُ العقلاءَ من الأغنياء، فنقول: إذا كنتم تقصِدون لتوفِّروا من مالكم ما تتركون لأولادكم؛ حتى لا يكونوا فقراءَ تُعساء، فقد سعيتم في طريقٍ محمودٍ مهَّده الإسلامُ، ودعا إليه النبيُّ عليه الصلاة والسلام، وإنَّ ما تَصرِفون في سبيلِ العلم والتربيةِ هو من هٰذا القبيل ـ أيضًا ـ، لأنه توفيرٌ لسعادة الأبناء؛ بل لا سعادةَ بالمال إن لم تَصحَبْه تربيةٌ نافعةٌ وعلمٌ صحيح يَهتدي بهما المتموِّلُ إلى كيفية الانتفاع؛ بل لا يكونُ الإنسانُ سعيدًا إلَّا إذا كان عائشًا مع مُهذَّبين سعداء، هَبْ أنك تركتَ لولدك ما ينبغي من الثروة، وهو في موطنٍ خيَّمت عليه الجهالة، واستَحوَذت عليه الضلالة، أتُراه يعيشُ سعيدًا بين الأشقياء، ويَحيا غنيًّا بين الفقراء، ولا تمتدُّ إليه يدُ الغواية، وتغلبُ عليه طبائعُ السفهاء، وتستهويهِ شياطينُ الأهواء؟ كلا؛ إن المرءَ بقرينه، ورجلُ الخير بين أبناءِ

= السيول، قد كان يُحاكيها في الشرق إشادةُ المدارس التي لم تزَلْ رسومُها شاخصة، وقد وُقف لها من الأماكن التي لو بقيت دارَّةً ولم تتلاعب بها أيدي أعداءِ التقوى والعلم لأحيَتْ ملايين، وسَمت بهم إلى مكانٍ مكين. (القاسمي).

قلت: ومن أهمِّ ما يجبُ على الأغنياء الملتزمين ـ خاصةً ـ والمسلمين ـ عامةً ـ أنْ يهتمُّوا بطلاب العلم النابهين، بأن يكفُلوهم، ويوفِّروا لهم حياةً كريمةً ليجاهدوا في سبيل الدعوة ونشرِ العلم؛ وهٰذا من أعظم من تُنفَقُ فيه الزكَواتُ والصدقات.

وأمرٌ آخرُ ـ لا يقلُّ أهميةً ـ وهو الاهتمامُ بالمعاهد الشرعيةِ القائمةِ على نهج الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، فهي من أهمِّ المهمات في هٰذا الزمان الذي تخلَّى فيه أكثر الخلق عن دينِهم وإحيائِه والدعوة إليه.

(١) الطارف: الجديد. التليد: القديم.

الشُّرورِ على خطر، فمَن أنفقَ مِن ماله على العلم والتربية، فهو الذي يُوطِّئُ[1] لذريَّتِهِ أكنافَ[2] السعادة، ويوطِّدُ[3] لهم دعائمَ العِيشةِ الرَّاضية؛ لأنه يُصلِحُ لهم مَباءةً[4] يَعيشون في ظلالها آمنين» اهـ.

ﻉﻉﻍﻍ

(١) يوطِّئ: يمهِّد.
(٢) أكناف: نواحي.
(٣) يوطِّد: يثبِّت ويرسِّخ.
(٤) المباءة: ما يرجعون إليه عند الحاجة.

٤ ـ حُبُّ الوَطَن[١]

عَدَّ الحكماءُ مِن أمهاتِ الفضائلِ فضيلةَ حُبِّ الوطن، والمرادُ بها أن يَبذُلَ المرءُ ما يَقدِرُ عليه ـ مما أعطاه اللَّهُ منَ العلم والمال والخبرةِ والنُّصحِ في عامة الأحوال والأزمان ـ لمنفعةِ وطنِه ومُواطنيه، فيستقيمُ في وظيفته، وينصحُ في تجارته، ولا يَغِشُّ في حِرفته، ويبذُلُ جَهدَه في تحسين حالته؛ ولو بالسفر إلى الممالكِ البعيدة لتحصيل علمٍ يُفيدُ به قومه، أو صَنعةٍ يَنتفع بها في وطنه، أو تجارةٍ يجلبُ منها لبلاده ما تمَسُّ إليه الحاجة، ونحو ذٰلك من المقاصدِ الصحيحة؛ فليس مُحِبُّ الأوطان مَن لا يخرُجُ عن الحيطان، والقاعدُ فيه قعودَ العجائز، ومُلازمُه ملازمةَ العاجز.

ومما يجبُ ـ في حبِّ الوطن ـ : أن يدافعَ العدوَّ الذي يحاولُ اغتصابَه واحتلالَه[٢]، وأن يجاهِدَ دونَه بالأموال والأنفُس؛ احتفاظًا بما لأهلِه في وطنِهم من إقامةِ شعائر دينهم، وتقلُّبِهم في أملاكهم، وصَونِ حريمِهم وتصرُّفِهم في معايشهم، والقيامِ على تربيةِ أولادِهم وذريَّتهم الذي يحاولُ العدوُّ أن يَحُولَ بينَ هٰذه الأمور وبين أربابهـا، فيَقضي على شـرفِ دينِهم، وينهبُ أموالَهم ومقتنياتِهم، ويَهتِكُ حُرُمَهم، ويمحُو تاريخ مَجدِهم، ويُفني لُغتَهم وعلومهم في رطانتِه[٣] وعوائده.

كلُّ هٰذا مما يَنويهِ العدوُّ الغاصبُ للوطن تلقاءَ أهله، ولذا وجب الجهادُ

---

(١) ولننتبه إلى أن ما ينسب إلى النبي ﷺ من قول: «حبُّ الوطن من الإيمان»؛ لا أصل له عنه ﷺ.

(٢) ومن مكر أعدائنا أنهم سمَّوا هٰذا «الاحتلال» الذي ذاقته البلاد المسلمة: «الاستعمار»!! وفرقٌ كبير بين الكلمتين، فالأخيرة تدل على التعمير ونشر الرخاء، وهٰذا ما لم يكن في نية «الاحتلال» وأعوانِه يومًا ما.

(٣) الرَّطانة: الحديث بغير العربية.

دونَه[١] لوجهِ اللَّه وفي سبيله.

وبِهٰذه المناسبة نأثِرُ[٢] ما قاله بعضُ الفضلاء[٣] مِن أن كلمة «الجهاد» أضحت ولها مَعنيان: معنًى شرعي، ومعنًى أوروبي.

○ قال: «أما معنى الجهادِ الشرعي، فهو: «بذلُ الجَهد والطاقةِ في مدافعة العدوِّ عن البلاد»؛ كما يبذل أبناءُ وطنٍ جَهدَهم في الدفاع عن وطنهم، فإذا نادَيْنا بالجهاد في المسلمين كان المرادُ استنفارَهم[٤] للدفاع عن وطنهم من أيِّ ملَّةٍ كانوا[٥]، وليس معناه حضَّ المسلمين على مقاتلةِ غيرهم ممن لم يكن على دينهم، ولو كان من أبناءِ وطنهم المكلَّفين معهم في الدفاع عنه[٦].

وأما معنى الجهاد ـ الذي دعوناه أُوروبيًّا ـ ، فهو: أن أهلَ أوروبا وبعض المواطنين مِن أهل الكتاب يَفهمون من إطلاق كلمة «الجهاد» أنه «عبارةٌ عن تَهييج عامةِ المسلمين على المخالِفين لهم في الدين ـ أيًّا كانوا ـ ، وحضِّهم على الهجوم عليهم مِن كلِّ صَوب، وإعمالِ السَّيف فيهم»! وهو معنًى يبرأ المسلمون ودينُهم الطاهرُ إلى اللَّه منه؛ فإنَّ الجهادَ في هٰذا المعنى مِن صَنيع مَن لا يُقيمُ للدين وزنًا، ولا يَفهمُ للاجتماع الإنساني معنًى، وهو منافٍ لتعاليم الإسلام وأوامرِ القرآن الكريم في مِثل قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة].

فلْيَفقَهْ هٰذا مَن يظنُّ أن الإسلامَ يحُضُّ على مقاومةِ سائر مَن لم يكن على

---

(١) دونه: عنه، أي: عن الوطن.

(٢) نأثر: نروي ونحكي.

(٣) الأستاذ المغربي في جريدة «البرهان» (عدد ١٢٦). (القاسمي).

(٤) الاستنفار: طلب الخروج.

(٥) لعله يقصد بِهٰذه الكلمة جميعَ الفِرَق المنتمية للإسلام ـ ولو من المبتدعة ـ ! فهٰذا أقرب المعاني لقوله: «من أي ملةٍ كانوا»!! وإلا فكيف يصفُهم في السطر السابق بأنهم «مسلمون»، ثم يقول: «من أي ملةٍ كانوا»!! وهٰذا لا ينفي أن أهل الذمة واجبٌ عليهم الدفاع عن الأرض التي تحميهم.

(٦) انظر التعليق ـ الآتي قريبًا ـ على آخر هٰذه الكلمة.

دينِه من متعصِّبةِ الإفرنج؛ إذ ليس بعدَ مِثلِ هٰذه الآيةِ الكريمةِ موضعٌ للريب والاشتباه في طهارةِ الإسلام وبراءتِه مما يَصِمُونه به[١].

وليس «الجهاد» ـ بمعناه الشرعيِّ القرآنيِّ ـ غريبًا عن أصولِ مدَنيةِ أوروبا التي تُربِّي أبناءها على حبِّ الوطن والدفاعِ عنه إلى حدِّ الاستماتةِ في سبيله، فكيف تكونُ استماتةُ الغربيِّين في الدفاع عن وطنهم كرامةً وشرفًا وفخرًا لهم، وتكونُ استماتتُنا ـ معشرَ المسلمين ـ في الدفاع عن وطننا هَمَجيةً وتوحُّشًا وعارًا علينا؟! أذٰلك لأننا نسمِّي هٰذه الاستماتة «جهادًا»؟! وهي كلمةٌ عربيةٌ فصيحةٌ مؤدَّاها بذلُ الجَهدِ والطاقةِ في الدفاع عن الوطن، وما يتبعُه مما فسَّرناهُ به»[٢].

---

(١) يَصِمونه: يعيبونه ويشنِّعون عليه.

(٢) الكلام السابقُ فيه مغالطاتٌ وأخطاءُ قد تَخفى على الكثير من المؤمنين؛ ولا سيَّما مع حسن عباراته ولطافة سياقه! والقارئُ الواعي ـ دومًا ـ ينظرُ إلى المضامين، ولا يغترُّ بالألفاظ، وهٰذه المغالطاتُ نوجزُها فيما يلي:
أولًا: واضحٌ بجِلاء أن صاحب هٰذا الكلام قَصَر الجهاد في الإسلام على «الدفاع عن الوطن فقط»!! وهٰذا خطأٌ فادح لا يقعُ فيه طالبُ علم ـ فضلًا عن عالِم ـ ! إذ قد عَلم كل من يطالعُ كتب الفقهِ السلفية ـ بأدلتها الشرعية ـ أن الجهاد نوعان:
١ ـ جهادُ الطلب: وهو الذي نبدأُ فيه بمقاتلةِ المشركين ـ ولو لم يقاتِلونا ـ إذا رَفضوا الحلولَ السلمية الأخرى: «الإسلام أو الجزية»، فإنهم إذا أصرُّوا على البقاء على كفرهم، ورفضوا هٰذين الحلَّين؛ فإننا نستعينُ باللّٰهِ تعالى ونقاتِلُهم، وقتالُنا لهم في هٰذا النوع إنما هو لإرضاء ربِّنا، ونشرِ الإسلام، ورفع راية «لا إلٰه إلا اللّٰه محمدٌ رسول اللّٰه»، وبمعنًى أخصر: لتكون كلمةُ اللّٰهِ هي العليا، وهو حقُّ اللّٰهِ تعالى الأول على عباده أجمعين.
ومِن الأدلة الدالة على هٰذا النوع «جهاد الطلب» قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝٢٤٤﴾ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝١٢٣﴾ [التوبة]، وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ [الأنفال: ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ =

= ﴿ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ۝٢٩﴾ [التوبة]، والنبيُّ ﷺ قد أرسل كثيرًا من السرايا ـ ابتداءً ـ للكفار ليقبلوا حلًّا من حلول الإسلام ويخضعوا لأحكامه، ومن هٰذا ما ثبت عن بُريدة ﵁ قال: كان رسول اللّٰه ﷺ إذا أمَّر أميرًا على جيشٍ ـ أو سَرِيَّةٍ ـ أوصاه في خاصَّته بتقوى اللّٰه، ومَن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: «اغزُوا باسم اللّٰهِ في سبيل اللّٰه، قاتِلوا مَن كَفَر باللّٰه، اغزُوا، ولا تَغُلُّوا، ولا تَغدِرُوا، ولا تُمثِّلُوا، ولا تقتلُوا وليدًا. وإذا لقيتَ عدوَّك منَ المشركين فادعُهم إلى إحدى ثلاثِ خِصالٍ؛ فأيَّتَهُنَّ ما أجابوك إليها فاقبَلْ منهم وكُفَّ عنهم، ثم ادعُهم إلى التحوُّلِ مِن دارهم إلى دارِ المهاجرين، وأخبِرْهم ـ إن هم فعلوا ـ أنَّ لهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، وإن هم أبَوا أن يتحوَّلوا منها، فأخبِرهم أنهم يكونونَ كأعراب المسلمين؛ يَجرى عليهم حُكمُ اللّٰه الذي يَجرى على المسلمين، ولا يكون لهم في الغَنيمة والفَيءِ شيءٌ؛ إلا أن يُجاهِدوا مع المسلمين؛ فإن هم أبَوا فَسَلْهُمُ الجزيةَ؛ فإن هم أجابوك، فاْقبَلْ منهم وكُفَّ عنهم، وإن هم أبوا فاستعِن باللّٰهِ وقاتِلهم...» الحديث؛ رواه أحمد (٥/ ٣٥٨)، ومسلم (١٧٣١). وهٰذا كما ترون في ابتداء الهجوم عليهم؛ لا في مجرد الدفاع ـ كما زعم صاحب المقال ـ، والأدلةُ غير هٰذا كثيرة.

٢ ـ جهادُ الدفاع: وهو الذي يكون لصدِّ المعتدين على ديارِ الإسلام؛ ففي هٰذه الحالةِ يجبُ على أبناء البلد الخروجُ لمواجهة هٰذا العدوِّ الغادر الذي يريد بهم شرًّا، ومن الأدلةِ على هٰذا النوع قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝١٩٠﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩١﴾ [البقرة]. والأدلة غير هٰذا كثيرة.

وصاحبُ الكلام المذكور ـ كما نرى ـ قَصَر مهمة الجهاد في الإسلام على الدفاع، ولم يُشِرْ أدنى إشارةٍ إلى النوع «الأهم» ـ وهو جهادُ الطلب ـ ! بل إنه بطريق غير مباشر ـ إحسانًا للظن به ـ استنكر جهادِ الطلب، وأخرجه من الإسلام بالكلية، وهٰذا بقوله: «وليس معناه (أي: الجهاد) حضَّ المسلمين على مقاتلةِ غيرهم ممن لم يكن على دينهم، ولو كان من أبناءِ وطنِهم المكلَّفين معهم في الدفاع عنه»!.

ومن التهور ما قاله ـ أيضًا ـ عن «جهاد الطلب»: «إن الجهادَ في هٰذا المعنى مِن صنيع مَن لا يُقيم للدين وزنًا، ولا يفهمُ للاجتماع الإنساني معنًى، وهو منافٍ لتعاليم الإسلام وأوامر القرآن»!! وكأنَّ الأدلةَ التي أوردناها عن «جهاد الطلب» ليست ثابتةً في الشرع المطهر!!! وكأنَّ اللّٰهَ تعالى سَمَح للكفار الذين يعيشون معنا في ديارنا ـ أو غيرها ـ أن يُتركوا على دينهم دون الانضواء تحت حكم الإسلام ـ ولو بدفع الجزية ـ !! وقد اختار صاحبُ المقال آيةً من القرآن الكريم تدلُّ على النوع الثاني ـ فقط ـ من أنواع الجهاد =

= ـ جهاد الدفاع ـ ليؤكدَ وجهةَ نظره في تعريف الجهاد، وترك بقيةَ الآيات ـ كالتي ذكرناها ـ مما تشير إلى النوع الآخر!.
ثانيًا: خَلَط صاحبُ المقال خَلْطًا سيئًا حين ادَّعى أن الجهاد في الإسلام ـ بالمعنى الذي اختاره هو ـ يتوافقُ مع النظرة الأوروبية للجهاد ـ كما زعم ـ ! حيث إن أوروبا تسمي هٰذا الجهاد «استماتةً في الدفاع عن الوطن»، بينما في الإسلام نسميه نحن «جهادًا»!! فالفارق ـ عنده ـ فقط في التسمية لا في الحقيقة!!.
وهٰذا الكلام فيه نظر؛ فإننا ـ حتى لو قصَرنا الجهادَ في الإسلام على جهادِ الدفاع فقط حسب مذهبه ـ نسأل سؤالًا: هل أوروبا تدافعُ عن أوطانِها لتكون كلمةُ اللّٰهِ هي العليا ـ كما هي العلةُ الأصيلةُ من تشريعِ الجهاد في الإسلام بنوعيه ـ ؟! أم أنهم يدافعون عن أراضيهم لتكونَ كلمةُ الكفر هي العليا؟! وهل إذا جاهدهم المسلمونَ لنشرِ الإسلام في أرضهم ستُسمِّي دفاعهم هٰذا جهادًا وتضحيةً، أم زيادةً في الكفر وطغيانًا؟!.
ثالثًا: واضحٌ أن صاحب المقال أراد «دفعَ التهمة» عن الإسلام بنفي «جهاد الطلب» عنه، حتى لا يُتَّهم بالهَمجية والوحشية وسفكِ الدماء!! لٰكنه ـ غفر اللّٰه له ـ نسي أن الإسلامَ لا يطلبُ القتال ابتداءً ـ كما مرَّ قريبًا في حديث بُريدة ـ ؛ وإنما يأمرُ بقتال من أبى الانضواء تحت حكم الإسلام ـ بالدخول فيه أو بدفع الجزية ـ كما سلف، وكلُّ هٰذا حتى يكونَ الإسلام هو العالي ـ كما يريدُه ربُّ العالمين ـ على سائر المِلل، ويكونَ الشرعُ هو الحاكم على جَميع الخلْق، ولا يكونُ للشركِ والكفرِ قيادةٌ للبشرية ـ كما هو الحال في عصورنا النكدة هٰذه ـ ؛ فهل من حقِّ الكفار المجرمين ـ يا صاحب المقال ـ أن يعيشوا هانِئين سعداءَ في أرض اللّٰه ـ التي تُسمَّى «أرضهم» مجازًا ـ ؛ دون أن يحاول الإسلامُ إخضاعَهم لحُكم خالقهم ورازقهم ـ ولو بطريقةٍ سِلمية ـ ؟! واللّٰهِ هٰذا ما لا يحلُّ لنا أن نفعلَه معهم، ولا يُسمحُ للأمة ـ ما دامت قادرةً ـ على تركِ الكفر يحيا كيفما يشاء، ويمرحُ في الدنيا ويلهو أنَّى يريد، بل تركُ الجهاد ـ بنوعيه ـ نذيرُ شؤمٍ وذلٍّ وضياعٍ للأمة المسلمة وغضبٍ من اللّٰهِ تعالى عليها ـ كما هو حالُها الواقعي في هٰذه العصورِ المظلمة ـ !!.
ولا أدري ـ بعد كلِّ هٰذا البيان المعلوم ـ كيف خفي هٰذا على العلَّامة القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ فلم يعلِّق عليه ولو بكلمة!! لٰكنَّ الكمالَ عزيز، ولم يكتب لغير الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ العصمة، واللّٰهُ المستعان، وعليه التكلان، وتتمة الكلام على هٰذا كلِّه في كتب «الجهاد» في الفقه الإسلامي السلفي، ولا تنسَ مقدمات سور «آل عمران، والأنفال، والتوبة» ومواضع الجهاد من تفسير الأستاذ الكبير سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ؛ ففيها نفائسُ لا ينبغي أن تفوتك، وكذا تفسير سورة «آل عمران»، للعلامة العثيمين، والحمد للّٰهِ رب العالمين.

٥ ـ أدبُ النائب في مجلس المَبعوثين عنِ الوطن[١]

تُعرَفُ الرجالُ من أقوالهم وأفعالِهم وإحسانِهم واستعدادِهم وتفانيهم في عملِ النافع وحُبِّ الإنسانيـة، وعَضُدِ[٢] المشروعـاتِ الخيريَّـة، فالنائب لا يُطلَبُ بين خزائن النقود حيث يكون مَحجوبًا، ولا من وراءِ سُجُوفِ[٣] النِّعمةِ ورَغَدِ العيش حيث يتوارى عن عينك؛ فإنَّ مَن ترفَّع عنك لا يهبطُ إليك، ومَن ابتعد عنك لا يتبعُك ـ إذا مَشيتَ ـ إلى خير، ولا يمتزجُ بين أفرادِك في ضِيقِك، ولا يقودُك في حاجتك إلى الهداية؛ فهٰذا ليس هو؛ إنما نائبُ الوطن مَن كان له في سرَّائه وضرَّائه[٤]، ومن يُضحِّي بنفعِه لينفعَه، ومَن يضعُ نفسه ليرفعه، ومَن يرصُدُ معارفَه وقوَّتَه وأوقاتَه له.

النائبُ مشرِّعٌ للقوانيـن[٥]، أولُ مـا تجبُ عليـه معرفتُـه: أن يُحسِنَ علم الحقوق[٦]، ويعرفَ حركةَ المجالس النيابية عندَ الأمم الرَّاقية، ويُحسِنَ تاريخَ أمَّتِه واجتماعَها، ويَعرفَ ما يُدلِّيهـا[٧] ويرفعُهـا، ويُدرِكُ علائقَ[٨] حكومتنا بحكوماتِ أوروبا، وما تمَّ بيننـا وبينهـا مـن المعاهدات، وما نالوه منَّا من الامتيازات، ويكونُ قادرًا على الاستخراج من كُتب السياسةِ والإدارةِ والقضاءِ

(١) كالسفراء ونحوهم.

(٢) عضد: إعانة.

(٣) السُّجوف: الستائر.

(٤) السرَّاء: الخير. الضرَّاء: الشدة.

(٥) يقصدُ القوانينَ الدنيويةَ التي يُباحُ للناس تقنينها، وإن كانوا لا يستقلُّون بالكلية بهٰذا التقنين؛ لأن شرعَنا السامي وضعَ الخطوطَ العريضةَ والأصولَ العامة لكل معاملةٍ على وجه الأرض؛ فللّٰهِ الحمدُ والمِنة.

(٦) يقصد الحقوق السياسية.

(٧) يُدلِّيها: يسقطها.

(٨) علائق: علاقات.

بإحدى اللغات الأجنبية.

فإذا توسَّم الشعبُ جميعَ هٰذا في شخصٍ جَمَع بين العلم، وعلوِّ الهمة، وحُسن الإدارة، والتنزُّهِ عن التحزُّبِ والأغراض: فعليه أن يلتمس رآستَه ـ ولو كان الكوخُ مسكنَه، أو كانت الدَّسْكَرةُ[١] موطنَه ـ، فإنَّ هٰذا مَن تطلبُه الوظيفة ـ وإن كان هو لا يطلبُها ـ.

ومَن لم تكن له هٰذه الصفاتُ فليس هو ـ ولو أعجبَتْك وُعودُه وأقوالُه ـ؛ لأنه ليس كلُّ مَن قال تتحققُ فيه الآمال.

○ وقال بعضُ الفضلاء: «إنَّ وظيفةَ النائب ـ الذي يصبحُ بنَواله النيابةَ حائزًا على الوَكالةِ المطلَقة عن الشعب، ويغدُو ذا حقٍّ واسعٍ في المراقبةِ التشريعيَّةِ والماليَّة، وذا سلطةٍ كبيرةٍ بالهَيمنة على مصالح الأمة وصَونِها، وبنقدِ أعمالِ ذوي الوظائف الخطيرة ـ: لا يكفيها ـ أي: وظيفتَه ـ حبُّ الوطن، أو الوجاهةُ في القوم، أو الثراءُ، أو الجراءة؛ بل تستلزمُ اطلاعًا واسعًا، ووقوفًا تامًّا[٢]، وفكرًا ثاقبًا، وعقلًا مثقفًا، ولا تقاسُ بالوظائف التي دُونَها؛ فإن النائب ليس قد قُلِّد مقاليدَ الألوف التي انتخبته، ووُكِّل شؤونَ الإقليم الذي أنابه، لا؛ بل مقاليدَ الملايين التي تقطُنُ في جميع أرجاءِ الوطن الواسع، ليتصرفَ بها تصرُّفًا اجتهاديًّا واستقلاليًّا؛ من حيثُ سَنِّ الشرائع الجديدة[٣]، وتشذيبِ[٤] الموجودِ منها بما يلائمُ الحاجياتِ العصريةَ والعُنصرية، ومِن حيث تنظيمِ القوة ـ التي يرتكزُ عليها شرفُ الأمةِ السامي ـ تنظيمًا يَحفظُ الحَوزة[٥]، وينفي عن الوطن التسلُّطَ والتحكُّمَ الأجنبي، ومن حيث التشبُّثِ

(١) الدَّسْكرة ـ بفتح الدال ـ: بناءٌ كالقصر.
(٢) أي: على الأحوال السياسية.
(٣) يعني الدنيوية المباحة ـ كما سلف ـ.
(٤) تشذيب: تصفية.
(٥) الحَوْزة: الناحية.

بالأمورِ الاقتصادية والنافعةِ التي هي مبدأُ سعادة الشعوب في كل حينٍ وآن.

* وعلى هٰذا يجب أن يكون النائب:

أولًا: متضلِّعًا بالقوانين القضائيةِ والإدارية والجَزائية الموضوعة تضلُّعًا واسعًا؛ يستطيع أن ينقُدَ بها حسَنها من منقودها، ويكونُ عارفًا بمواضع خللِها ونقصِها وصعبِها وسهلِها؛ ليتمكَّنَ من تعديل ما يجبُ تعديلُه، وتشذيبِ ما يلزمُ تشذيبُه، وردِّ ما يكون محظورًا، وقبولِ ما يكون مصيبًا؛ ليكونَ كلٌّ منها قريبَ المأخذ سهلَ التطبيق، فتحصلُ الفائدةُ المطلوبة من كلمة «النظام».

ثانيًا: أن يكون مطَّلِعًا على قوانينِ الأمم الراقية التي سارت عليها، فوصلت إلى غايتِها ومأمنِها من الخير والمكانة؛ لكي يقدِرَ أن يَقيسَها مع حاجاتنا، فيَنقُلَ ـ أو يُقلِّدَ ـ منها ما يراه موافقًا.

ثالثًا: أن يكونَ دارسًا نظرياتِ أرباب الحقوقِ والإدارة، واقفًا على آرائهم ومطالعاتِهم؛ ليكونَ بعيدَ مرامي النظر فيما يرتئيه، لا يقترحُ أمرًا، ولا يعزِمُ على تنقيحٍ ـ أو إدخالٍ ـ شيءٍ إلا وهو مُدَعَّمٌ بثاقبِ الفكر، مبنيٌّ على أساسٍ متين وركنٍ ركين.

رابعًا: أن يكون آخِذًا بقسطٍ وافرٍ من الفنون الاقتصادية ـ نظريًّا وتطبيقيًّا ـ ، واقفًا على أسبابِ النهضاتِ الاقتصاديةِ في البلاد الراقية، واقفًا على دواعي الانحطاطِ الاقتصادي في بلادنا، ليستطيعَ على التفكُّرِ في إحيائها بعد موتِها، ويتشبَّثَ في المشاريع العمومية؛ وخصوصًا ليتمكَّنَ من اتخاذِ التدبيراتِ المحتَّمةِ التي تُرقِّي الزراعة في أقاليمِنا.

خامسًا: أن يكونَ دارسًا علمَ حقوقِ الدولِ العمومية والخصوصية، مطَّلِعًا على المعاهَدات والعقودِ الدولية، واقفًا على تواريخِ الأممِ السياسية؛ من حيثُ أطوارِها التي تطوَّرت بها حتى وصلت إلى ما عليه الآن؛ لأجل أن يكونَ ذا بصيرةٍ في الحقوقِ المتقابلةِ والمناسباتِ الموجودةِ بين كلٍّ مِن

دولتنا والدول الأخرى، وبين كلِّ دولةٍ وأخرى.

سادسًا: أن يكونَ متتبِّعًا سَيرَ الحوادثِ الكونية من سياساتٍ ونَهضاتٍ واكتشافات، وما يطرأُ من الطوارئ والأحوال؛ وذٰلك بمطالعتِه الصحفَ والمجلَّات؛ لئلَّا يكون غافلًا عما يجري في المجتمع العام، وجاهلًا بشؤونه المتحوِّلة وتطوُّراتِه المستجدَّة.

سابعًا: أن يكون دارسًا ـ حقَّ الدرس ـ فنَّ تقويمِ البلدان «الجُغرافيا» الطبيعيَّ والسياسيَّ والاقتصادي، ليكونَ ذا خبرةٍ بمواقعها ومواهبِها وقابليَّتِها واحتياجاتِها.

ثامنًا: أن يكونَ واقفًا ـ تمامَ الوقوف ـ على احتياجاتِ الوطن من الشرائع والمنافع، وعلى أخلاق الشعب مِن حيث نزعاتِه وميولِه، وعلى ما تقتضيهِ مشاربُ وأمزجةُ كلِّ إقليمٍ على حِدَتِه، وعلى الأخصِّ ما يؤمِّنُ حقوق العناصر المختلفةِ المجتمعةِ تحتَ لواءٍ واحدٍ لتعيشَ مع بعضِها بكل صفاءٍ وتضامن، وتظهرَ أمامَ عدوِّها الخارجيِّ بكل قوةٍ وارتباط.

تاسعًا: أن يكون ذا حزمٍ في فِطرته، وعزمٍ في هِمَّتِه، ودماثةٍ في أخلاقه، ورصانةٍ في أفكاه، ومثابرةٍ في تشبُّثاته؛ لا بالأهوجِ ولا بالأرعن، وأن يكونَ قويَّ الحُجة، قويَّ العارِضة، قويَّ الجَنان، قادرًا على الخَطابة في ذٰلك المَحفَل العظيمِ بجراءةٍ واسترسال؛ ليستطيعَ أن يؤيد اجتهاداتِه، ويدعِّمَ اقتراحاتِه ومُطالَباته التي يتشبَّثُ بها، سعيًا وراء سعادةِ موكِّليهِ في حياتِهم الاجتماعية.

هٰذه أهمُّ صفاتِ النائب العلميةِ والأخلاقية؛ التي تؤهِّلُه لأن يُهيمنَ على حقوق الوطن، ويجاهدَ في سبيل سعادته» اهـ ما كتبه بعضُ علماء الاجتماع في هٰذا.

❊❊❊

٦ ـ أدبُ إعارةِ الكتب واستعارتِها

الكتبُ موضوعُها وثمرتُها: أن تُتبادل وتُتداول ليَعُمَّ النفع بها، وتُجتنى فوائدُها، فيَلزمُ إعارتُها، واجتنابُ الضَّنِّ بها[١]، ومَن ضنَّ بها فقد اجترم إثمًا كبيرًا، وكان كمن كتم علمًا، «**ومَن كَتَم عِلمًا ألجَمَه اللَّهُ بلجامٍ مِن نار**[٢]»[٣].

ولٰكنْ على المُعير والمستعير آدابٌ يتحتَّمُ مراعاتُها:

١ ـ فيَلزمُ المعيرَ ضربُ مدةٍ لمراجعته.

٢ ـ وتخيُّرُ أهلِ المروءة والكمال للإعارةِ بدقيقةِ التفرُّس.

٣ ـ وعلى المستعير ردُّه في الميعادِ المضروب، وحِفظُه من الابتذال[٤]، وصونُه مما يُعرِّضُه للاتساخ والامتهان.

٤ ـ ووضعُه ـ بعد المطالعة ـ في الخِزانة، وإبعادُ المَحبرةِ عن ورَقِه.

٥ ـ والشُّكرُ لمُعيره، والتبرعُ بتجليده ـ إذا كان يسمحُ صاحبُه ويرضى به ـ ، والسعيُ بطبعه ـ إذا كان مما يعُمُّ النفعُ به ـ .

ولمَّا كان الأكثرُ لا يراعي هٰذه الآدابَ ضنَّ الناسُ بما لديهم ـ والحقُّ لهم ـ ، ولذا كان منَ الحسناتِ الجليلةِ إقامةُ مكتباتٍ عامة، وإرصادُ الموقوفاتِ فيها[٥]؛ صونًا لها من تلاعُب مَن لا ذِمَّةَ لهم ولا دِينَ مِن مستعيريها الخائنين.

ꕥꕥꕥ

(١) الضَّنُّ: البخل.

(٢) اللِّجام: ما يوضع في فم الدابة.

(٣) صحيح: رواه أحمد (٢/ ٢٦٣)، وأبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٣٦٢٤)، وابن حِبَّان (٩٥) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورواه ابن ماجه (٢٦٤) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسَّنه الإمام الترمذي، وصحَّحه الشيخ شعيب الأرنؤوط، والشيخ الألباني.

(٤) الابتذال: الامتهان والفساد.

(٥) أي: تكون وقفًا فيها لا يأخذها القارئ معه.

٧ ـ المكتبات

○ «إشادةُ المكتبات، وفتحُ أبوابِها للقاصدين حسنةٌ كبرى، وبابُ سعادةٍ عظمى لمن يدخُل منه، وبمقدارِ الإقبال عليها تكونُ الحياةُ في الأمم؛ ولٰكن من المُحزِنِ الغريب أنْ ليس لنا من هٰذا نصيب.

كان ينبغي أن يسأمَ منَّا موظفُو المكتبات لكثرةِ تردُّدِنا وكثرةِ ما نطلبُه من الكتب، وكان ينبغي أن ننتظرَ الفُرص بكلِّ تشوُّف، وننتهزَها لزيارة المكتبات ـ وما هي إلا الجنَّاتُ لو كانوا يعلمون ـ، ولٰكن بَلَغ بنا القصورُ أننا لا نقصِدُها؛ بل ولا يخطُرُ ببالنا أن نقصِدَها يومًا من الأيام للاستفادةِ بما فيها من غرائبِ الكتب ونفائسِ العلم، وقد تركها الأوَّلون لنا ميراثًا يورِّثُ سعادةَ الأبد، وكم يبحثُ باحثون عن مثلها، فأصبحوا أئمةَ العلم وأربابَ الحكمةِ والفهم؛ فما علينا إلا البحثُ والتنقيب، وإحرازُ أوفرِ نصيب»[1].

❊❊❊❊

(١) عن «العلم والعلماء». (القاسمي).

٨ ـ انتخابُ الكتب للمُطالعة

انتقاءُ الكتب كانتقاء الأصحاب:

١ ـ فعليك أن تَنتخبَ منها أعظمَ ما ترتاحُ إليه النفس.

٢ ـ وأن تكونَ مطالعتُها لتقويم الفِكر؛ لا لضياع الزمَن.

٣ ـ وأن تُنقِّبَ عن أحاسنِ المؤلفات؛ سيَّما المؤلفاتُ الحديثة؛ فإنَّ في كثيرٍ منها تحقيقًا وتسهيلًا واستدراكًا وتكميلًا يَرقى إلى ذُروةٍ عالية.

٤ ـ ولْيحترزْ مِن قراءة كتب المُجون ودفاتر المَضاحك وسَفِين[1] نوادرِ الهذيان؛ فإنها مُفسدةٌ للأخلاق، مُميتةٌ للوقت الثمين، مُخرجةٌ لناقلها من زمرة الحكماء، مسجِّلةٌ عليه بكمال السخافة، أو عَدِّه مَسخرةً من المساخر.

وجَليٌّ أن ساعاتِ المطالعة أسعدُ أوقاتِ الحياة، وما يُطلب من السرور في غيرها هو ظلُّ ما يُستخلَصُ من لذيذ مسرَّاتِها.

ولا ينبغي لِمَن كبِر سنُّهم أن يقتصروا على الأشغال اليدوية، ويضيِّعوا كل أوقاتِهم فيها؛ بل عليهم تخصيصُ أوقاتٍ للمطالعة والأشغالِ العقلية لإنماء مدارِكهم ونفعِ الناس بمعلوماتِهم.

○ يقول حكيمٌ: «لو خُيِّرتُ بين أن أكونَ أكبرَ ملِكٍ في الأرض ولي جميلُ القصور والبساتين ولذيذُ المآكل والمشارب وثمينُ العجلات وفاخرُ الثياب ومئاتُ الخدم، واشتُرط في ذٰلك ألَّا يكون عندي كتابٌ؛ لرفضتُ ذٰلك المُلكَ بغير مطالعة، وقبلتُ أن أكون فقيرًا في كوخ ومعي كثيرٌ من الكتب».

٭٭٭

(١) لم أتبينها، ولعل المراد مثل الكتب.

٩ - كلمةٌ في التاريخ

إن مِن أهمِّ ما تجبُ العنايةُ بمطالعته تاريخَ السلفِ الصالح، وما أُوتوا من جليلِ الأعمال؛ فإن للتاريخ تأثيرًا غريبًا في الأخلاق، والوجداناتِ النفسية، والميولِ الشريفة، وإعدادِ النفس للحياة الاجتماعية، وتعلُّم سَير النظام الكوني في سُنته من ارتباطِ الأسباب بالمسبَّبات، والنتائج بالمقدِّمات، فيُتخذ الماضي مثالًا للحاضر، ويُتبصَّرُ فيما كان يتَّخذُه الأقدمون من الأسباب لارتقائهم، وفيما يَهبطُ بالأمم من ذُرَى وَحْيِهم.

○ يقول حكيمٌ: «بقراءةِ فنِّ التاريخ يَرى الإنسانُ كيف كانت أسلافُه تُريقُ من دمائها في الدفاعِ عن بَيضةِ وطنها، وكيف كانت تفعلُ أفاضلُ الرجال في تأييد جامعتها وتأسيس ممالكها».

ماذا يُفيدُك مثلُ السِّيرة النبوية وتاريخِ الخلفاء من بعده - إذا قرأته بتمعُّنٍ وتفكُّر - ؟ أليس يُمثِّلُ لك الخطواتِ التي كانوا يسلكونها أمامَهم من المصاعب الجَمَّة؛ لتجدَ بينها الدعوةَ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة ولِينِ القلب والجانب، كما أنك تجدُ في مقدِّمتها الصبرَ وصدقَ العزيمة.

وجديرٌ بمن عَرف مقدارَ ما تكبَّد السلفُ في تأسيس آثارهم الشاخصةِ من المصاعب، ومِقدارَ ما مُنحوا من عزيزِ الأنفُس لدى أعتابِ أسوارها: ألَّا تكونَ له يدٌ عاملةٌ في نقضِها، أو روحٌ لا تتفانى في حمايتها وصونها.

٭٭٭

١٠ ـ آدابُ التجارة

للتجارة آدابٌ تجبُ مراعاتُها؛ وذٰلك لاستجلابِ قلوبِ الناس، وبثِّ المحبةِ في ضمائرها؛ فإنَّ قِوامَ المصالح بالمحبةِ ودَرْءِ الإحَن[1] ـ مهما أمكن ـ ، ومتى تولَّدت الشحناءُ والبغضاءُ في قومٍ وقفت حركتُهم، وساد السكونُ على مصالحهم، ونشأت مفاسدُ أخرى، لهٰذا وَجب التمسُّك بآدابِها.

* ومن الآداب المهمَّة بالإجمال:

١ ـ العدلُ في معاملةِ الناس؛ بأن يجتنبَ مضرَّتَهم، ويُحبَّ لهم ما يحبُّ لنفسه؛ فكلُّ ما يُعامَلُ به ويَشُقُّ عليه ينبغي ألَّا يعامِلَ غيرَه به؛ فعليه إذن ألَّا يُثنيَ على السلعةِ ـ البضائعِ المتَّجَرِ بها ـ بما ليس فيها.

٢ ـ وألَّا يكتمَ مِن عيبها شيئًا أصلًا.

٣ ـ وألَّا يكتمَ مِن وزنها ومقدارِها شيئًا؛ لأن ذٰلك كذبٌ وتلبيسٌ وظلمٌ وخيانةٌ ودناءةٌ وإسقاطُ مروءة، وأكلٌ لأموال الناس بالباطل.

٤ ـ وعليه أن يُحسِنَ في المعاملةِ ويتساهلَ فيها.

٥ ـ وأن يتقاضى دَينَه برِفق، وأن يحُطَّ منه لفقير.

٦ ـ وأن يتقبَّلَ مَن يستقيلُه، أي: يَرضى بردِّ بضاعته عليه إذا لم يَرْضَها المشتري.

○ ومِن وصيةِ حكيمٍ لابنٍ له تاجر: «يا بُني، إذا انتبهتَ مِن نومك، وعملتَ بما أمرتْك به العلماء، وصلَّيتَ الواجبَ عليك، ومضيتَ متوجهًا إلى دكَّانك لطلب المعاش، وفتحتَ الدكَّان: فسَمِّ اللّهَ تعالى، فإذا انتصبتَ في مكانك فأخرِجِ الميزان، وامسح كِفَّتَيها مما علاها من الوسَخ، وحرِّرْها ليكون

---

(١) الإحَن: الضغائن.

صحيحًا، وامسَحْ الصَّنْجات[١]، واعتبِرْها رأسَ كل شهر، وإن كان كلَّ أسبوع كان أصلح؛ وإذا جاءك إنسانٌ فأكرِمْه على حسبِ مِقدارِه ـ بل أزيد ـ، واكظِمْ غيظَك، وغُضَّ بصرَك عن جارِك، واقنَعْ في كسبِك، واقتصِدْ في نفقتك، وبادِرْ بالصدقة، وشرِّفْ نفسَك عن الاندلاق على الزِّبون؛ فإنه يَستنذِلُك[٢]، واتكِلْ على اللَّه؛ فما كان لك سيصلُك، ولا تتهاونْ في طلب الرزق، ولا تُكثر منه؛ فإن الإهمالَ يوجبُ الفقر، والإكثارَ يوجبُ الذِّلةَ والتَّعب.

ولا تَخرُجْ من بيتك إلَّا وأهلُ بيتِك راضون عنك داعُونَ لك، ولا تُعادِ[٣] أحدًا من خَلْق اللَّه، وإنِ اتُّفِق بغيرِ اختيارِك معاداةُ أحدٍ فتلافاه[٤]، ودارِ بمالِكَ عن عِرْضِك وأنت تعلم، وسالِمِ الأيامَ والناسَ تسلَمْ، ولا تَمُدَّنَّ عينيك إلى النساء، وإذا نظرتَ فلا تُفكِّرْ، ولا تضحَكْ في وجهِهنَّ فيَطمَعنَ، ويتوهَّمْن أمرًا آخرَ أنت بريءٌ منه[٥]، وخالِطِ الأخيارَ تُدْعى خيِّرًا، وتكتسبَ من حركاتِهم، ولا تعاشِرِ الأشرار فتتعلَّمَ منهم؛ كما قيل:

وقارِنْ إذا قارَنتَ حُرًّا فإنما ... يَزينُ ويُزرِي بالفتى قُرناؤُهُ

واجعَلْ القرناءَ غِلمانَك بالعطاء، وأصدقاءَك بالهدية، وأقاربَك بالتودُّد، ولا تُكثِرِ الكلامَ في البيعِ والشراء، وزِنْ[٦] كلامَك قبل أن يخرجَ من فيك، وافتقِدِ[٧] الأوعيةَ والدكَّانَ في كلِّ شهرٍ مرةً أو مرتين ـ إن قدرتَ ـ ، فإنَّ

---

(١) الصَّنْجات: كفات الميزان.

(٢) الاندلاق: الاندفاع، كما في القاموس، والزِّبون: مساوم السلعة ـ في عرف العامة ـ ، وقوله: يستنذِلُك: أي: يَعُدُّك نَذلًا، والنذلُ: الخسيسُ والمحتقَر؛ كما في «القاموس». (القاسمي).

(٣) من العداوة.

(٤) تلافاه: تجنَّبْه وأعرض عنه.

(٥) وقد قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «المرأةُ إذا أظهرتَ لها بياضَ أسنانك، أظهرَتْ لك ما هنالك»!! «إغاثة اللهفان» (١/ ١٢٠) ـ بلفظٍ مقارب ـ ، واللَّهُ المستعان.

(٦) من الوزن.

(٧) أي: تفقَّد وتابع.

افتقادَ التاجر دكّانَه كمُطالَعةِ العالِم كتابَه؛ فكما أن المطالعةَ تُذكِّرُ الإنسانَ بما سهى عنه، كذلك الافتقادُ يُظهِرُ للإنســان حاجـةً كانت غائبـةً عنه، أو فسادَ شيءٍ فيُصلِحه».

وأهمُّ ما يوصَى به التاجرُ ويؤكَّدُ عليه به: هو اجتنابُ الغِش، ويَكفي في كونه معصيـةً كبيـرةً حديث: «مَن غشَّنا فليس منَّا»[1]. وأمَّـا أضـرارُه ونتائجُه السيئة فلا تُحصى.

○ جاء في «الدُّرُوس الحُكْمية»[2] ما نصُّه: «إن الغشَّ الذميم مرضٌ يُنهك قُوى المجتمعات، ويَذهبُ بحياةِ الشعوب، وذلك أنَّ مَن غَشَّ ببخسِ الوزن، أو غيَّر الصِّنفَ بأدنى منه، أو دفع الثمنَ نقودًا زائفةً؛ فقد تعمَّد تنقيصَ العِوَضِ المستحَقِّ قِبَلَه، ومَن تعمَّد ذلك فهو ظالِمٌ غاشٌّ؛ بل سارقٌ محتال ـ وربما كان أضلَّ وأشقى ـ ؛ فإن مرتكبَ جنايةِ السرقة قد يدفعُه فقرٌ وحاجة، وذاك مرتكبُ جنايةٍ لم يدفعه إليها سوى طمعِ النفس وحبِّها للظلم، فكان أظلمَ وأحقَّ بالملامة والذمِّ، وعملُه هادمٌ لأعظمِ ركنٍ من أركانِ الاجتماع المدني؛ وهو الثقةُ التي يتوقفُ عليها نظامُ سَيرِ المعاملات الدنيوية، وبفَقدها وقوفُ دُولابِ[3] التجارة، فتبورُ الصنائع، وتَقِلُّ المكاسب، فيحتالُ الناسُ على أسباب المَعيشة، ويتهالكـون على تحصيلِ القـوت مِـن غير طُرقِهِ الشرعية، فتَفسُدُ أخلاقُ الأمَّةِ وتنحطُّ لقلةِ العمل بمداركها، وينتهي ذلك بضَعفِ قوَّتِها وتفريق مجتمعِها.

فالمُقدِمُ على الغشِّ يضرُّ بأبناء جنسِه بما شرحنا، وبنفسه ـ أيضًا ـ ؛ لِما أنَّ ثروةَ الفرد في كلِّ مجتمع إنما ترتبطُ بثروةِ الباقين؛ فمتى قلَّت الثروةُ عند

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٢/ ٥٠، ٢٤٢، ٤١٧)، ومسلم (١٠١، ١٠٢)، وأبو داود (٣٤٥٢)، والترمذي (١٣١٥).

(٢) لصديقنا الفاضل رفيق بك العظم. (القاسمي).

(٣) الدولاب: كالساقية الدائرة.

المجموع؛ فإنها تقلُّ ـ طبْعًا ـ عند الفرد، وأحسنُ دواءٍ له محاسبةُ المرء نفسَه في معاملته مع الناس، ومراقبتُه للَّهِ تعالى في ذٰلك؛ بحيثُ يكون له من نفسِه داعٍ يدعوه إلى تقوى اللَّه ومعاملةِ خَلْقِه بالعدل».

ﮋﮊﮉﮈ

١١ ـ أدبُ الزِّراعة

لا أحدٌ يجهلُ ما للزراعة من المنافع لأبناء النوع الإنساني، وذٰلك باستحصالِ[١] ما أُودع في كَبِدِ الغَبراء[٢] منَ الأسرار الطبيعيةِ التي أوجدها مدبِّرُ الكائنات ليعُمَّ بها النفع، وتتبادلَها الأفراد، وتقومَ المصالح، وتسيرَ الأممُ سَيرًا حسنًا بما تسلكُه من سبيل الجِدِّ والاجتهاد.

ما رَقَتِ الزراعةُ في أمةٍ إلا ورَتَعت في ظلٍّ ظليلٍ من العيش، وتوكَّأت على أرائِك السعادة، وأصبحت في أمانٍ واطمئنانٍ من العوارض، فلا تنتابُها أيدي الضَّنك والضيق، اللهمَّ إلا ما جرى بالسُّنةِ الكونية، كيف لا! ولا تَرى حاجةً من الحاجياتِ الجِسميةِ ـ من مأكلٍ وملبس ـ إلا ولها علاقةٌ بالزراعة؛ بل لا حياةَ لهٰذا المجتمع ولا قِوامَ له إلَّا بما يَهدي إليه نورُ العقل لاستخراج مكنوناتِ هٰذه الطبيعة.

انظرْ إلى هٰذه المنسوجاتِ ـ من صوفٍ وحريرٍ وقطنٍ وغير ذٰلك ـ، ثم ابحَثْ عن مَنشئِها بدقةٍ وإمعان؛ ألستَ تراها من محصولِ الأرض التي استنتجَتْها الزراعةُ واستخرجَتْها لنا؟ أليستْ تلك الفوائدُ والأسرارُ من الزراعة بواسطةِ صَرف العقل فيما خُلق له؟!.

إذن إذا رَقَتِ الزراعة ونَمَتْ وآتت مِن كلِّ زوجٍ بَهيج؛ رَقِينا ونمت أمَّتُنا، وإذا كانت بِهٰذه المثابة، فما السببُ الذي يُصلح أحوالها؟!.

لا مشاحَّةَ[٣] في أنه إذا درَسْنا فنونَها وسلَكْنا سبيلَ قوانينها ونظامِها علميًّا، ثم رجَعْنا لأنفسها وطبَّقنا العلم على العمل ـ والزراعةُ علمٌ عملي ـ نجَحْنا في أمورِنا، وسمَونا كما سَمت جاراتُنا من الأمم التي فازت بالقِدح المُعلَّى

(١) الاستحصال: إخراج المحاصيل.
(٢) الغَبراء: الأرض.
(٣) المُشاحَّة: المنازعة.

في سائر أنواع الزراعة.

نعم؛ إن بين ظَهرانَينا تلك القوانينَ والعلوم والفنون، ولٰكنْ أمامَنا عقباتٌ حالت دون أن نُلِمَّ بمجموعها ونفوزَ منها بالمقصود؛ وذٰلك لأسبابٍ شتَّى؛ أهمُّها: جَهلُ بعض أُناسٍ اتَّخذوا هٰذه الكلمة: «القديمُ على قِدَمه» دستورًا لأحوالِهم الاجتماعية، وقاعدةً في جميعِ خصوصياتِهم، وطَرحوا ما يدْعو إليه هٰذا العصرُ منَ النظر في العلوم والفنون لتدبير شؤونِهم، وعُوِّدوا على ما توارثوه من كيفية الحِراثةِ والفلاحةِ ومعرفةِ التراب والأشجار وما يتعلقُ بها؛ في حين أن الزراعةَ اليوم بلغت من الرُّقيِّ مبلغًا عظيمًا.

أما من عُني بدرس الزراعة، وطبَّق العلمَ على العمل، فاستَجلب الأدواتِ المهمة؛ فقد يؤمِّل من وراء سعيِهِ هٰذا أن يَربح ربحًا وفيرًا، وأصبح رجلًا خبيرًا ذا معرفةٍ بأراضيه مما نتج له فوائدُ متعددة.

خذْ لك مثالًا سهلَ التناول، وهو أن الأرضَ التي تُستحصلُ مرةً واحدةً في السَّنة يُمكن لك ـ بواسطة ما قدَّمْنا ـ أن تستثمرها ثانيةً، وتجنيَ أثمارها الشهيَّةَ التي ما كانت تخطُرُ لك على بال.

وإليك مثالًا آخر: ربَّما توجدُ أرضٌ مهملةٌ متروكةٌ سنينَ وأعوامًا؛ يظنُّها مَن ليس له اطلاعٌ على فنون الزراعة أنها عقيمةٌ لا تُثمر أبدًا؛ في حين أنه إذا كان له أدنى خبرةٍ بإصلاح الأرض يمكنُ أن يجعلَها قابلةً للفلاحةِ والحِراثةِ في أقربِ وقت.

وقد تَعرِضُ لبعضِ النباتات والأشجار عوارضُ من الأمراض ـ جراثيمُ تعلُقُ وتَثبُتُ في غصُون تلك الغصون ـ يَخالُها[1] مَن قَصُرَ نظرُه وعوَّل على الوراثة: أنها ستَتلف ولا تُتلافى، ويَدَعُها على طبيعتها حتى تستحكمَ فيها الأمراض، وآنئذٍ تَتلَفُ حقيقةً؛ فلو أنه اعتنى بدَرْس طبائع النباتات فاتخذَ لها

(١) يخالها: يظنُّها.

من الأسباب ما يحفظُها؛ لهلكت تلك الجراثيمُ قبلَ أن تتأصل، ودُرِئَتِ[1] الأمراضُ قبل أن تتمكن.

وقِس على ذلك بقيةَ الأمور الزراعية؛ التي متى رُوعيت آدابُها بدَرسِ فنونِها، نَمَت وثبتت وغدَا أصلها ثابتًا وفرعُها في السماء، فعلى من يشتغلُ بالزراعة والذي ليس له إلمامٌ: أن يستدعيَ رجلًا مُخَرَّجًا من إحدى المدارس الزراعية المهمَّة، ويعملَ بما يشيرُ عليه؛ لتكثُرَ المحصولات، وتنتشرَ بين العالَم، وتزدادَ حسنُ الفوائدِ والعوائد، وباللَّهِ التوفيق.

ﮌﮋﮊﮉ

(١) دُرِئَت: دُفعت.

١٢ ـ أدبُ الصِّناعة

○ يقول بعض النُّصَحاء: «إن صناعتَنا في الوقتِ الحاضر لا يُعْوِزُها إلا أن تمُتَّ بصِلةٍ إلى النهضةِ العامةِ الحاضرة، وتخضعَ لنواميسِ التجرِبة ومصادمةِ الحوادثِ وجهًا لوجه؛ فإن تأثُّرَها بها ـ خسارةً وربحًا وانحطاطًا ورقيًّا ـ أقربُ الطرُقِ لوصولِها إلى النجاح المنشود من سدِّ حاجةِ البلدِ وحَلِّ مسألتها نهائيًّا؛ لذٰلك أرى منَ الصواب وَضعَ البذور الأولى لرُقيِّ الصناعةِ الوطنيةِ بتنبيهِ الجمهور إلى ما في الصناعةِ الوطنيةِ الموجودةِ الآن من جمالٍ خاصٍّ بها، وإتقانٍ لا سبيلَ لإنكار درجتِه العاليةِ من الاعتبار، كما أرى أن الكتابةَ على صفحاتِ الجرائد في هٰذا الباب لا تكفي وحدَها للوصولِ إلى الغرضِ المطلوب من حمايةِ صناعتنا أولًا، وتشجيع صانعيها ثانيًا؛ بل أرى أولى من ذٰلك أن تكون النهضةُ فعليَّةً؛ وذٰلك لا يتمُّ إلا بتوجيهِ نظرِ الأصدقاء وأصدقاءِ الأصدقاء إلى وجوب دعوةِ الجمهور ـ بطريقِ المجالس العامَّةِ والخاصَّةِ والمؤتمرات ـ إلى ذٰلك الواجبِ الوطنيِّ الكبير: واجب تعضيدِ الصناعةِ الوطنية بقَصْر الشِّراءِ عليها فيما تقومُ به أنواعُها الموجودةُ الآن من حاجاتنا الضرورية والكمالية.

إن تأخُّرَ صناعتِنا عن مُساواةِ الصناعةِ الأجنبيةِ راجعٌ باللوم علينا:

أولًا: لإهمالنا إيَّاها كلَّ الإهمال.

وثانيًا: لتفضيلنا ـ في كثيرٍ من الأحيان ـ ما لا يَفضُلُها في الجَودة والجمال الفنيِّ من المصنوعاتِ الأجنبية عليها لمجردِ أنها أجنبية.

وثالثًا: لأن البيوتَ المشتغِلةَ الآن بالصناعة الوطنيةِ لا يمكن اعتبارُها بيوتًا كبيرةً تُرهِقُ السوقَ بكثرة محصولها؛ فإنها صغيرةٌ جدًّا، ومصنوعاتُها لا تكادُ تَظهرُ من بين أكداسِ البضائع الأجنبية؛ إلا كما تَظهَرُ حبةُ الرَّمْل في تلٍّ عالٍ.

رابعًا: لأن مصنوعاتِنا رخيصةٌ ـ لعلوِّ درجتِها في الإتقان، وقِلَّةِ ثمنِها

بالنسبة للبضائع الأجنبية ـ ، فمِن السهل احتمالُها بما لا يُرهِقُ السُّوق، ولا جَيبَ المشتري، كما تتمُّ بتوجيهِ نظر الصُّنَّاعِ أنفسِهم إلى أنه منَ العبث جُمودُهم على ما وَرِثوا من أسرارِ صناعتهم عن الآباء والجُدود؛ في الوقتِ الذي يتقدمُ فيه كلُّ شيءٍ بقَدَمٍ ثابتةٍ في سبيل الرُّقي؛ فإن ذٰلك لا يؤولُ إلا بالقضاءِ الأخير على مصنوعاتنا؛ فمِن الواجب عليهم ـ إذَن ـ أن يبحثُوا عن أسباب الرُّقيِّ وإدخالِ التحسينات بعد عملِ التجارب المُنتجة».

ومِن رأي ناصحٍ آخَرَ أن الصناعة في البلاد الشرقية تحتاجُ لترقيتها إلى أمور:

أولًا: حمايةُ الصناعةِ الوطنيةِ ـ ما أمكن الحماية ـ مِن مُزاحَمةِ الصناعات الأجنبية.

ثانيًا: ترغيبُ الشركاتِ الغنيةِ بالعلم والمال في تعدينِ المعادنِ وإنشاء المَزارع الواسعة لإنبات القطن والكتَّان؛ وغير ذٰلك من حاجاتِ الصناعة.

ثالثًا: أن يكون كبارُ الحُكَّامِ قدوةً في استعمالِ المصنوعاتِ الوطنية للباس وفَرْش المنازل، فيَقتدي بهم الأهالي، وترُوجُ ـ إذ ذاك ـ الصناعةُ الوطنيةُ، ويَرغبُ بها الصُّنَّاع، وإذا وجدوا[1] أن مكاسبَهم توفرت تفنَّنوا في إتقانها وتحسينِها وترقيتِها.

رابعًا: أن تَهتمَّ الحكومةُ وبلدياتُ المُدن الكبرى بانتقاءِ أفرادٍ قلائلَ يُنتخَبون ـ ممن امتازوا بالذكاءِ والثباتِ والمَيل الطبيعي إلى أحدِ الصناعات ـ ، فيُرسَلُ هٰؤلاء المنتخَبون إلى أشهرِ مدارس الصناعة في أوروبا؛ حتى إذا أحرَزوا نصيبًا وافرًا عادُوا إلى البلاد، وتولَّوا هم تدريبَ الشعب؛ سواءٌ في مدارسَ صناعيةٍ تُنشئُها الحكومةُ أو الشعبُ، أو في معاملَ يُشيِّدُها شركاتٌ من الأغنياء الموسرين. اهـ.

(١) في المطبوع: «وجد»، ولعلَّ الأصحَّ ما أثبتُّه.

١٣ ـ أدبُ المسجد

١ ـ على داخِلِه أن يُلزِمَ نفسَه ذِكرَ اللَّه تعالى، وتسبيحَه، وإقامةَ شعائر دينه.

٢ ـ ويجتنبُ فيه اللغوَ بالباطل، والسجودَ على عتبةِ ضريحٍ فيه، والطوافَ حولَه، وتقبيلَ حيطانه أو عُمُدِه أو مَقاصِيره[١]؛ لأنه لا طوافَ إلا حولَ الكعبة، ولا مُلتمَسَ إلا رُكنُها، ولا مُقبَّلٌ إلا حجرُها الأسودُ الكريم[٢].

٣ ـ وعليه ـ أيضًا ـ إذا رأى حلقةَ عِلمٍ أن يجلسَ إليها، وإذا دَخله للصلاةِ فلْيَجلس في صفوف المتعبِّدين، ويَستنزلْ بتذلُّلِه رحمةَ أرحمِ الراحمين.

٤ ـ وينبغي صَونُه عن وَسَخِ مُخاطٍ، وتقليمِ أظفارٍ، وقصِّ شارب، وحلقِ رأسٍ، وعن رائحةٍ كريهةٍ مِن بصل وثُوم، ولا يَقربُه آكلُ ذٰلك، وكذا متناول كلِّ ما يؤذي ريحُه حتى يذهبَ منه.

٥ ـ ويُحظَرُ فيه البيعُ والشراء، والتكسُّبُ فيه بصنعةٍ ـ كخياطةٍ وغيرها ـ، واتخاذُه مكانًا للمعائش.

٦ ـ ويُصانُ مِن صغيرٍ لا يُميِّز، ومجنونٍ، ولَغَطٍ وخصومة.

٧ ـ ويُمنع فيه اختلاطُ الرجال بالنساء.

٨ ـ وزخرفتُه بما يُلهي المصلِّي.

---

(١) ذكر حُجةُ الإسلام ـ عليه الرحمةُ والرضوان ـ في آخِر كتاب «الحج» ـ قبيل كتاب آداب تلاوة القرآن من «إحيائه» ـ أن المسَّ والتقبيلَ للمَشاهِد عادةُ النصارى واليهود، وذَكر في «آداب زيارة المدينة» ـ كما قدمناه ـ أنه ليس من السنةِ أن يَمسَّ جدارَ الحُجرة، ولا أن يقبِّله. اهـ. فأجدِرْ بغيره. (القاسمي).
قلت: المؤمنُ السنِّي لا يدخلُ أصالةً المساجد التي بُنيت على القبور ـ حاشا مسجده ﷺ الذي اختص عن سواه ـ؛ فإنها مساجدُ مبغوضةٌ لربِّ العالمين.

(٢) ومِن البدع المنكرةِ تسميتُه «الحجر الأسعد»!! وبعضُهم يظن أنه يُحسِنُ بهٰذه التسمية، وأنه يزيدُ الحجرَ أدبًا بها!! وما دَرى أن كلَّ أدبٍ يخالف الشرع فلا قيمةَ له، والذي سماه بهٰذه التسمية آدبُ إنسانٍ على وجهِ الأرض ﷺ، فهل نحن أشدُّ أدبًا منه ﷺ؟!.

٩ ـ ويُكرهُ فيه الخوضُ والفضولُ وحديثُ الدنيا.

١٠ ـ ولمَن أكل فيه أن يجتنبَ تلويثَ حُصُرِه، وأن ينظِّفَ ما لوَّثه.

١١ ـ ولمَن يُعلِّمُ فيه أو يتعلَّم أو يُذكِّر أن يجتنبَ رفعَ الصوت(١).

١٢ ـ وينبغي تعهُّدُهُ بالكَنس، وتجميرُه(٢)، والإيقاد فيه بالمعروف(٣).

١٣ ـ ومما يتعيَّنُ على خَدَمةِ المساجد أن يتعهَّدوها بالنظافةِ وفتحِ نوافذِها وشبابيكها على المَدى؛ فإن الهواءَ الفاسدَ فيها من أنفاس الجُلَّاس يسبب أخطارًا جسيمةً من الصُّداعِ وضيقِ النفَس، وذٰلك لأنه يحتوي على غازاتٍ من أجسادِهم ورئاتِهم؛ وهي موادُّ سامة، فيلزم أن تُفتح الأبوابُ والنوافذ لكي يتجددَ الهواءُ في أطرافها كلِّها، والشقوقُ الموجودةُ في الأبواب لا تكفي لذٰلك، وهٰكذا يقال في كلِّ مجتمَعٍ للناس، وفي كل غرفةٍ صغيرةٍ يسكنُها جماعة، فيجب تجديدُ هوائها في كلِّ برهةٍ.

١٤ ـ ويجبُ على ذَوِي اليسارِ أن يَلُمُّوا شَعَثَ المساجد، ويتعاوَنوا على عمارتِها، ويتفقَّدوها على المَدى.

○ وما أبلغَ ما كتبه شمسُ البلغاء الخُوارزمي إلى فقيهٍ في تعهدِ مسجدٍ، وهو بنصه الفائق: «أحقُّ الأماكن بأن يصانَ ولا يهان، وأَوْلاها بأن يُنحَّى عن مَدْرَجةِ الاختلال، ويُرفعَ عن أن تتناولَه يدُ الابتذال: مكانٌ بُني ليجمعَ شملَ التعبُّد، ويضمَّ نَشرَ التهجُّد، وتُرفعُ منه الحوائجُ إلى مَن لا يَضجَرُ من السؤال، ولا يتبرَّمُ بكثرةِ التساؤل، وهو الكبيرُ المتعال، فإن صيانةَ هٰذا المكانِ صيانةُ الدين؛ بل صيانةُ الإسلام والمسلمين، وكَبتُ الكفر والكافرين.

وما ظنُّك بموضعٍ هو بيتٌ من بيوت اللَّه، ومظنَّةٌ لقراءةِ وَحْي اللَّه، تُصَفُّ

---

(١) إلا في الدُّروس العامة بالطبع.

(٢) التَّجمير: التعطير.

(٣) أي: إيقاد الأضواء؛ فيكون بلا إفراط ولا تفريط.

فيه الأقدامُ بين يدي اللَّه، ويتميَّزُ فيه أولياءُ اللَّه من أعداء اللَّه، وهو من ﴿بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ [النور: ٣٦]، وهو مسكنٌ من مساكن الأبرار ومجلسٌ من مجالس الأخيار، وحصنٌ من حصونِ المسلمين على الكفار، وجسرٌ بين الجنةِ والنار، دخولُه عبادة، والمُقامُ به سَعادة، والاعتكافُ فيه سُنةٌ مستحسَنة؛ لا يأوِي إليه كافر، ولا يَقرَبُه إلَّا طاهر، مَن عَمَره عَمَر طريق الآخرة، ومَن بناه بُني له بيتٌ في الجنة، وبلغني ما أنت فيه من بناءِ مسجدِ مَحِلَّتِك ـ ضاعف اللَّهُ عليك ثوابَك، وأكرم مآبَك[1]، ورَضِيَ عنك، وتقبَّل منك ـ ، فتَوسَّعْ ـ رحِمَك اللَّه ـ في نفقتك؛ فإنما تعامِلُ وتُسلِفُ كريمًا سخيًّا، ولا تحاسِبْ نفسَك على دَخْلِك وخَرْجِك[2]؛ فإنك بصددِ أضعافِ ذٰلك من الثواب، وإنما يُوفَّى المحسِنُ أجرَه بغير حساب، وتذكَّرْ قولَ اللَّه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]».

---

(١) المآب: المرجع، والمقصود: آخرتك.

(٢) أي: لا تحسِبْ ما دفعتَه وأنفقته فيه.

١٤ ـ زمنُ الضياع[١]

يلزمُ في أوقات الفراغ منَ العمل:

١ ـ قراءةُ كتب الآداب والحكم.

٢ ـ ومطالعةُ الصُّحفِ والمجلَّات العصرية.

٣ ـ والمُذاكرةُ في الأندية[٢] بالمباحثِ العلمية والاقتصادية؛ مما يفيدُ تبادلَ الأفكار فيه، وتَلَذُّ المناقشةُ به.

كلُّ ذٰلك ضنًّا على الوقت أن يُبذلَ في سُبل اللهو واللغوِ والأحاديثِ التافهة، وإنهاضًا للفكر ليجولَ في ميادين المُنوِّرات والمُبصِّرات[٣]، ويقتطفَ ثمار المعارفِ اليانعات[٤].

❁ ❁ ❁

(١) يعني الفراغ ـ كما سيأتي ـ.
(٢) **الأندية**: مجامع الناس.
(٣) أي: التي تُنوِّر العقول وتبصِّرها.
(٤) **اليانعات**: المثمِرات.



خاتمة

في تتمَّات



خاتمةٌ في تتمَّات

١ ـ واجباتُ الحريص على الفضائل

إذا كانتِ النفسُ خيِّرةً فاضلةً تحبُّ نيلَ الفضائل، وتحرصُ على إصابتها، وتشتاقُ إلى العلوم الحقيقيةِ والمعارفِ الصحيحة: فيجبُ على صاحبها أن يعاشرَ من يجانسُه، ويطلبَ من يُشاكلُه، ولا يأنسُ بغيرهم، ولا يجالسُ سواهم، ويَحذرُ كلَّ الحذرِ من معاشرةِ أهلِ الشرِّ والمُجون، والمجاهرينَ بركوبِ الفواحش المنهمِكين فيها، ولا يُصغِي إلى أخبارهم مستطيبًا، ولا يَروي أشعارَهم مُستحسِنًا، ولا يحضُرْ مَجالسَهم مُهيَّجًا[1]؛ وذلك أن حضورَ مجلسٍ واحد من مجالسهم وسماعَ خبرٍ واحدٍ من أخبارهم يتعلقُ مِن وَضَرِه ووسَخِه بالنفس ما لا يُغسَلُ عنها إلا بالزمانِ الطويل والعلاجِ الصعب، وربَّما كان سببًا لفسادِ الفاضل المحنَّك.

والعلةُ في ذلك: أن محبةَ اللذاتِ البدَنيةِ والراحاتِ الجِسمية طبيعةٌ للإنسان ـ لأجل النقائص التي فيه ـ ، فهو ـ بالجِبلَّةِ والفطرةِ السابقة ـ يميلُ إليها، ويحرصُ عليها، وإنما يَزِمُّ[2] نفسَه عنها بزِمام العقل حتى يقفَ عند ما يُرسَمُ له، ويقتصرَ على المقدار الضروريِّ منها.

ꙮꙮꙮ

(١) أي: مدفوعًا من قِبَل البعض.

(٢) يزمُّ: يربط ويمنع.

٢ ـ تعهُّد النفس بمراقبتها

معلومٌ أن قُوى النفس الإنسانية مفتقرةٌ دائمًا إلى تعهُّدِها بالتربية والتثقيف؛ فالأرضُ ـ مثلًا ـ لا تُخرِجُ ما في أرحامها إلا بالفلاحة، وهي لا تكونُ إلَّا بآلاتٍ خاصةٍ بها، وأسبابٍ تُهيِّئُها. والكتابةُ لا تكون إلَّا بأدواتٍ خاصةٍ بها ـ كالقلم وتوابعه ـ.

أما هٰذه الأدواتُ في التربية: فهي عبارةٌ عن العلم الصحيح، والمُعلِّمِ الكامل، والأخلاقِ المهذَّبة، وحُسنِ الأُسوةِ من الأهلِ والأقران، وإحكامُ المراقبة التي يكونُ بها اجتنابُ كلِّ ما يُخِلُّ بالأدب والكمال، مع تعهُّدٍ يستمرُّ في تقويمِ الطباع المتأصِّلةِ والعقائدِ الموروثةِ إلى الصَّحيح السالم منها.

وبديهيٌّ أن التربيةَ ـ بِهٰذا المعنى ـ تشملُ الوقوفَ عند حدودِ الأوامر والنواهي الشرعية؛ بعد معرفةِ الحلال والحرام، ومقاومةِ الشهواتِ النفسانية، وصرفِ قُواها إلى صالح الأعمال الكافلةِ لسعادةِ الإنسان في مَعاشِه ومعاده؛ لهٰذا ترى الأممَ العاملةَ على إعلاء مجدها تصرفُ عنايتَها في نشرِ العلومِ النافعة، وبثِّ أفكارها في عقول بَنِيها على يدِ أساتذةٍ كرامٍ من صَفْوتِها أدبًا ودِينًا، وعِلمًا وأخلاقًا؛ ليكونوا أمناءَ على المتعلِّمين.

○ قال بعضُ الحكماءِ لولده: «يا بُني، اعلَمْ أن العزَّ في طاعة اللّٰه، والذلَّ في معصيةِ اللّٰه، والناسُ يتفاضَلون بالعقل، ويتميَّزون بالعلم، ويتفاوتون بالعمل، ويَسُودُونَ بالحلم؛ فعليك في دينِك بالازدياد، وفي دُنياك بالاقتصاد».

○ وقال آخر: «اعلم ـ أيها الناشئ ـ أنك اليوم طفلٌ، وبعدَ مدةٍ تصيرُ رجلًا عليك مدارُ كثيرٍ من الأعمال، ولك أولادٌ وأهلٌ تقومُ بنفقتهم وأرزاقهم، فاحفَظْ ما تتعلمُه في صِغَرِك يَنفَعْك في كِبَرِك، فالولدُ المهذَّبُ هو الذي

يسعى وراءَ ما يعودُ عليه بالفائدة، وعلى أمَّته بما يكفُل لهم السعادة».

ﮩﮩﮩﮩ

٣ ـ وصايا الحكيمِ المُستعصِمي

○ قال الحكيمُ المستعصمي: «يجب على المعتني بإصلاحِ أخلاقه مراعاةُ هٰذه الأمور:

١ ـ أن يغتنمَ الحياةَ التي بها فارَقَ الأمواتَ والجماد، فيصرفَ زمانَه في المُهمِّ دونَ غيره.

٢ ـ أن يحفظَ وقتَه؛ فقد قيل: «إنَّ امرأً ذهبتْ من عمره ساعةٌ؛ لحَريٌّ أن تطولَ حسرتُه عليها».

٣ ـ أن يكونَ متفقِّدًا لجميع أخلاقه، متيقِّظًا لسائر أحواله، متنقِّصًا لمذموم عاداته[(١)].

٤ ـ أن يكونَ ـ أبدًا ـ عاشقًا لصورةِ الكمال[(٢)]، مستلِذًّا محاسنَ الأخلاق ومحمودَها.

٥ ـ أن يعتنيَ بتهذيب نفسه، فلا يستكثرَ ما يَقتنيهِ منَ الفضائل والعلومِ النافعة.

٦ ـ أن يكون مستصغِرًا للتربيةِ العُليا، طالبًا غايتَها بجَهده، جاعلًا غرضَه الإحاطةَ بها.

٧ ـ ألَّا يقفَ عند غايةٍ من العلم إلَّا ويومئُ بطرفِهِ إلى ما فوقها ليزدادَ بصيرةً.

٨ ـ أن يأخذَ نفسَه بأوامر اللَّه ورسوله وأولي الأمر من بعدِه؛ ليؤدبَها بآدابِهم.

٩ ـ أن يُسدِّدَ طَرَفًا من علم اللسان[(٣)]، ويعتنيَ بالبلاغةِ والفصاحة والكتابة

---

(١) أي: كارهًا لأخلاقه السيئة؛ ليعمل على إصلاحها.
(٢) أي: بلوغ معالي الأمور.
(٣) أي: يتقن اللسان العربي الشريف.

والدرس.

١٠ ـ أن يجعلَ لشهواته قانونًا راتبًا يَقصِدُ فيه الاعتدال، ويجتنبُ الإسراف.

١١ ـ أن يقمَعَ أبدًا سَورَةَ[١] القوَّتين الغضَبيةِ والشَّهْوانية، ويستعملَ قوةَ العقل عليهما.

١٢ ـ أن يجتنبَ محاكـاةَ[٢] الغيـرِ بالكـامل، واستعمـالَ السَّفَهِ بالألفاظ القبيحة، ويتركَ الحَلِف.

١٣ ـ وأن يكونَ سهلَ اللقاءِ والبِشرِ والتسليم، سابقًا به، بعيدًا من الأشرار، مستعملًا القصدَ[٣] في كلِّ أموره.

١٤ ـ أن يجتنبَ مخاطبةَ النسـاءِ والصِّبيـانِ والعامَّـةِ والسفهاء، ويلازمَ الصمتَ عما لا ينبغي.

١٥ ـ أن يحترزَ من دخول النقص عليه، ولْيَجتهدْ في بلوغِه غايةَ الكمال.

---

(١) السَّوْرة ـ بفتح السين ـ: الشِّدة والحِدة.

(٢) المحاكاة: التقليد.

(٣) القصد: التوسط والاعتدال.

٤ ـ ثمرةُ التأدُّب بمكارم الأخلاق

○ أَوصى بعضُ الحكماءِ بَنيه؛ فقال: «الأدبُ أكرمُ الجواهر طبيعةً، وأنفسُها قيمةً، يرفعُ الأحسابَ الوضيعة، ويُفيدُ الرغائبَ الجميلة، ويُعِزُّ بلا عَشيرة، ويُكثِّرُ الأنصارَ لغيرِ ذريَّة، فألبِسُوهُ حُلَّةً، وزيِّنوه حليةً يؤنِسْكم في الوحشة، ويجمعْ لكم القلوبَ المختلفة».

○ قال الشاعر:

مـا وَهَـبْ اللّـهُ لامـرئٍ هِـبةً أفـضلَ مـن عَقلِـهِ ومـن أدَبِـهْ
همـا حـياُ الفتـى فـإن فُقِـدا فـإنَّ فَقْـدَ الحـياةِ أحسنُ بـهْ

○ وأوصى آخَرُ ابنه، فقال: «يا بُني، الأدبُ دعامةٌ أيَّد اللّهُ بها الألباب، وحليةٌ زيَّن بها عواطلَ الأحساب[١]، فالعاقلُ لا يستغني ـ وإن صحَّت غريزته ـ عن الأدب المُخرِجِ زَهرتَه[٢]؛ كما لا تَستغني الأرضُ ـ وإن عذُبت تربتُها ـ عن الماء المخرِجِ ثمرتَها».

○ وقال ابنُ المقفَّع[٣]: «ما نحن إلى ما تتقوَّى به حواسُّنا منَ المَطعم والمشربِ بأحوَجَ منا إلى الأدب الذي هو لِقاحُ عقولنا؛ فإن الحَبَّةَ المدفونةَ في الثَّرى لا تقدرُ أن تُطلِعَ زهرتَها ونُضرتَها إلا بالماء الذي يعودُ عليها من مستودَعِها».

○ وقال آخر: «الشرفُ ـ كلُّ الشَّرف ـ والفضلُ ـ كلُّ الفضل ـ أن تفخرَ بعمَلِك الطيب، فهو الذي يجعلُك غُرَّةً في جَبين أُسرتِك، ودُرَّةً في جِيدِ[٤]

(١) أي: جعلها زينةً وجمالًا لمن ليس له حسبٌ شريف.
(٢) أي: الأدب الذي يخرج جمال معدِنِه.
(٣) الأديب الزنديق. ترجَمَه: الشيخ سيد بن حسين العفَّاني في كتابه: «وا محمَّداه».
(٤) الجِيد ـ بكسر الجيم ـ: العنق.

بيئتِك، ويُصيِّرُك نادِرةَ زمانِك، وجوهرةَ أيامك».





مِسكُ الختام

مختارات أبيات

يُعهَدُ إلى المتأدِّب بحفظها

مسكُ الختام

في مختاراتِ أبياتٍ يُعهَدُ إلى المُتأدِّب بحفظها

مِن سُنةِ المؤدِّبين المتقدِّمين أن يأخُذوا على المتأدِّبين حفظَ مختاراتٍ من الشِّعر ـ قصائدَ ومقاطيعَ وشواهد ـ ؛ ولمَّا كان كتابُنا هٰذا لا يتَّسعُ إلا للشواهد التي لا غِنى بالمتأدِّب عنها؛ أورَدْنا منها مختاراتٍ على ترتيب حروفِ الهجاء صدرًا وعجُزًا ثلاثًا ثلاثًا، فيحسُنُ بالمتعلِّمِ أن يستظهرَها[1]، ويدلُّ على فطانتِه بالاستشهاد بها في مواطنها، وعليه ـ بعدَها ـ أن يراجعَ دواوينَ الشعراء، ويستظهرَ أبدعَ ما نسجوه وأبلغَ ما نظموه، فيكمُلُ أدبُه، وتعلو رتبتُه.

***

(١) يستظهرها: يحفظها عن ظهر قلب.

١ ـ حرف الهمزة

ابـدأ بنفـسك فانْهَهَـا عـن غَـيِّها فـإذا انـتهتْ عـنه فأنـتَ حكـيمُ(١)

* * *

احفَـظْ لـسانَك لا تقـولُ فتُبتلَـى إن الـبلاءَ مـوكَّلٌ بالمـنطقِ

* * *

أحـسِنْ إلى الـناسِ تستعبِدْ قلوبَهمُ فطالَمـا اسـتعبدَ الإنـسانَ إحـسانُ

* * *

إذا صـاحبتَ في أيـامِ بـؤسٍ فـلا تـنسَ المـودَّةَ في الـرخاءِ

* * *

وهَبْنـي قلـتُ: هٰـذا الـصبحُ لـيلٌ أيعمَـى العالِمـونَ عـن الـضياءِ!

* * *

إذا مـا الحُـرُّ أجـدَبَ في زمـانٍ فعُدَّتُـهُ لـهُ زادٌ ومـاءُ

---

(١) الغَيُّ: الضلال.

٢ ـ حرف الباء

بــادِرْ إلى الفُرصــةِ وانْهــض لِمَـا   تــريدُ فــيها فهــي لا تلــبثُ

* * *

بالـرِّفقِ مـارِسْ ولايـنْ مَن تُخالطُهُ   تـربَحْ وغـالِظْ إذا لم يَـنفعِ اللـينُ

* * *

بـذا قَـضتِ الأيـامُ مـا بـين أهلهـا   مـصائبُ قـومٍ عـند قـومٍ فـوائدُ

* * *

ولـستَ بمُـستَبْقٍ أخًـا لا تلُمُّـهُ   على شَـعَثٍ أيُّ الرجالِ المُهذَّبُ؟!

* * *

سـعى رجـالٌ فـنالوا قَـدْرَ سَـعيِهِمُ   لم يـأتِ رزقٌ بـلا سـعيٍ ولا طلبِ

* * *

فهـم يُطفِـئُون المجـدَ واللّـهُ واقـدٌ   وهـم يُنقِـصُون الفضلَ واللّهُ واهبُ

❧❧

٣ ـ حرف التاء

تأمَّلْ سطورَ الكائناتِ فإنها ... مِنَ الملإِ الأعلى إليكَ رسائلُ

* * *

تُبدِي عيونُهمُ ما في قلوبِهُمُ ... والعينُ تُظهِرُ ما في القلبِ أو تَصِفُ

* * *

تعلَّمْ فليس المرءُ يولَدُ عالِمًا ... وليس أخو علمٍ كمَن هو جاهلُ

* * *

فلا تسألِ المرءَ عن سِنِّهِ ... ولا مالِهِ واخشَ أن تُعنِّتَا[1]

* * *

نظرتْ إليَّ الأربعون فأصرَخَتْ ... شَيبي وهَزَّت للحُنوِّ قناتي

* * *

ومنَ الأقاربِ مَن يُسَرُّ بمِيتتي ... سَفهًا وعِزُّ حياتِهم بحياتي

ﻌﻌﻌﻌ

(١) تُعنِّت: توقع غيرك في المشقَّة.

٤ ـ حرف الثاء

ثــراءُ المـالِ يَفنـى بعـد حـينٍ وتَبقـى الباقـياتُ الـصالحاتُ

* * *

ثلاثــةٌ لــيس بهــا اشــتراكُ: المُــشطُ والمِــرآةُ والــسِّواكُ

* * *

ثــوبُ الــرياءِ يَــشِفُّ عمَّـا تحـتَه فـإذا اكتَـسيتَ بـه فإنـك عـاري

* * *

مِن أحسَنِ الدهرِ وقتًا ساعةٌ سَلِمَتْ مـن الـشرورِ وفـيها صاحبٌ حدَثُ

* * *

ولــيس يــأمنُ قــومٌ شــرَّ دَهــرِهمُ حتى يَحِلُّوا ببطنِ الأرضِ أجداثا[1]

* * *

بِـئسَ الأخـلاءُ لـيس البِـرُّ شِيمتَهم لـو بَـرَّ مُقـسِمُهُم يـومًا غدًا حَنَثَا[2]

ﮋﮊﮉﮈ

(١) الأجداث: القبور.

(٢) الحِنْث: إسقاط اليمين.

٥ ـ حرف الجيم

جــراحاتُ الــسِّنانِ لهــا التــئامُ ولا يلــتامُ مــا جَــرَح اللــسانُ

* * *

جَــزى اللَّــهُ الــشدائدَ كــلَّ خيــرٍ عــرفتُ بها عــدوِّي مــن صــديقي

* * *

جُــودُ الفَتــى يَكفــيك تــسألُه والعُــدمُ خيــرٌ مــن سـؤالِ البخــيلِ

* * *

وإني لأحْمِــي الجــارَ في كــل ذِلَّــةٍ وأفــرحُ بالــضيفِ المُقــيم وأَبْهَــجُ

* * *

رويــدَكَ فالهمــومُ لهــا رِتــاجُ وعــن كَــثَبٍ يكــونُ لهــا انفــراجُ

* * *

خُــذوا في سبيل العقلِ تَهدُوا بِهَدْيِهِ ولا يَــرجُوَنَّ غيــرَ المُهــيمِنِ راجِ

ജജ൫൫

٦ - حرف الحاء

حُبُّ السلامةِ يَثني عزمَ صاحبِهِ عن المعالي ويُغري المَرءَ بالكسلِ

* * *

حَسبُ الفتى أن يكون ذا حَسَبٍ مِن نفسِه ليس حَسْبُهُ حَسَبُهْ(١)

* * *

حُسنُ الحضارةِ مجلوبٌ بتطريةٍ وفي البداوةِ حُسنٌ غيرُ مجلوبِ

* * *

وأيسَرُ من كفِّي إذا ما مددتُها لنيلِ عطاءٍ مَدُّ عُنُقي لذابحِ

* * *

وإذا رَمَتْك منَ الرجالِ قوارصٌ فسهامُ ذِي القُربى القريبةِ أجرحُ

* * *

أسنَى فِعالِكَ ما أردتَ بفِعلِهِ رُشدًا وخيرُ كلامِكِ التسبيحُ

---

(١) أي: من أراد أن يكون له قيمةٌ حقًّا، فعليه بالسَّعي في طلب المعالي بنفسه، ولا يكفيهِ أن يكونَ صاحبَ نسَبٍ عريقٍ كي يكون ذا قدْرٍ وقيمة، واللَّهُ أعلم.

٧ ـ حرف الخاء

خُلـق اللسانُ لِنُطقِهِ وبيانِهِ ... لا للسكوتِ وذاك حظُّ الأخرسِ

* * *

خليليَّ ليسَ الرأيُ في صدرِ واحدِ ... أشيرا عليَّ اليومَ ما تريانِ

* * *

خليليَّ لا واللَّهِ ما من مُلمَّةٍ ... تدومُ على حَيٍّ وإن هي جلَّتِ[1]

* * *

وهَمِّي وهِمَّتي في دارِ دنيا ... بوضعِ مآثِرٍ تُتلى لناسخِ

* * *

تنسَّكتُ بعدَ الأربعينَ ضرورةً ... ولم يَبقَ إلا أن تقومَ الصَّوارخُ[2]

* * *

أحسِنْ بِهٰذا الشَّرعِ مِن ملَّةٍ ... يَثبُتُ لا يُنسَخُ فيما نُسخ

ꕥꕥꕥꕥ

(١) المُلِمَّة: المصيبة.

(٢) تنسَّكت: تعبَّدتُ وزهدت. الصَّوارخ: الناعيات.

٨ ـ حرف الدال

دَعِ التكاسُلَ في الخيراتِ تطلبُها ... فليس يَسعَدُ بالخيراتِ كسلانُ

* * *

دَع ما يَريبُ لأمرٍ لا ارتيابَ بهِ ... بذاك أوصى البرايا سيدُ البشرِ

* * *

دعاكم إلى خيرِ الأمورِ محمَّدٌ ... وليس العوالي في القَنا كالسَّوافلِ

* * *

أُقلِّدُ وَحدي فليُبرْهِنْ مُفنِدي ... فما أضيَعَ البرهانَ عند المُقلِّدِ[1]!

* * *

إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ ملكتَه ... وإن أنتَ أكرمتَ اللئيمَ تمرَّدَا

* * *

ومَن عاشَ بينَ الناسِ لم يَخْلُ من أذًى ... بما قال واشٍ أو تكلَّمَ حاسدُ

ﮒﮓﮔﮕ

---

(١) المفند: الذي يدعي أنني أحمق.

٩ ـ حرف الذال

ذَرِيني أَنَلْ ما لا يُنال من العُلا
فصَعبُ العلا في الصعبِ والسهلُ في السهلِ

* * *

ذَرِيني فإن البخلَ لا يُخلِّدُ الفتى ... ولا يُهلِكُ المعروفَ مَن هو فاعِلُهْ

* * *

ذِكرُ الفتى عمرُه الثاني وحاجتُهُ ... ما قاتَهُ وفضولُ العَيشِ أشغالُ

* * *

خَلِّ السرورَ لمن يُغَرُّ بهِ ... واعبُدْ إلٰهك واحدًا فذا

* * *

نبذتُمُ الأديانَ مِن خلفكم ... وليس في الحِكمة أن تُنبذَا

* * *

تَرى المرء جبَّارَ الحياةِ وإن دنتْ ... منيَّتُهُ ألفَيتَه وهو مستخذي(١)

---

(١) مستخذي: ذليل.

١٠ ـ حرف الراء

رأيــــتُ العـــزَّ في أدبٍ وعقـــلٍ وفي الجهـــلِ المَذلَّـــةُ والهـــوانُ

* * *

رأيـتُ صـلاحَ المـرءِ يُـصلِحُ أهلَه ويُعديْهمـــو داءُ الفـــسادِ إذا فـــسدْ

* * *

رِضـا الذليل بخَفْضِ العيشَ مَنقصةٌ والعـزُّ عـند رَسيمِ الأينُقِ الذُّلُلِ (١)

* * *

كـأنَّ فـؤادي مِـن تَذَكُّـرِهِ الحِمـى وأهـلَ الحمـى يَهفُـو به ريشُ طائرِ

* * *

سـموتُ إلى العُـلا وعلـوتُ حتـى رأيـتُ الـنجمَ تحتـي وهْـوَ يَجـري

* * *

إني أُواري خَلَّتـــــي فـــــأُرِيهِمُ رِيًّـــا وفي ســـرِّ الفـــؤادِ أُوارُ (٢)

ﮔﮔﮓﮓ

---

(١) الرسيم: نوعٌ من سير الإبل. وله معانٍ أخرى، ولم أفهم الشطر جيدًا.

(٢) الخَلَّة: الحاجة. أوار: لهيب مستعر.

١١ ـ حرف الزاي

زِنِ القـولَ مِـن قـبلِ الكـلام فإنما ... يـدُلُّ على قـدرِ العقـولِ الـتكلُّمُ

❊ ❊ ❊

زيـادةُ المـرءِ في دنـياه نقـصانُ ... ورِبحُـهُ غيـرَ محضِ الخير خُسرانُ

❊ ❊ ❊

زيِّـنْ أخـاكَ بحُسنِ وصفِك فَضلَه ... وأذِعْ لِمَـا يـأتي مـن الحـسناتِ

❊ ❊ ❊

لا تَـرْضَ وعدًا إنْ قَدَرتَ على ندى ... وإذا وعـدتَ فيَـسِّرِ الإنجـازَا

❊ ❊ ❊

ولـيس على الحقائـقِ كـلُّ قولـي ... ولٰكـن فـيه أصـنافُ المجـازِ

❊ ❊ ❊

وعَدَتْـنا الأيـامُ كـلَّ عجـيبٍ ... وتَلَـوْنَ الوعـودَ بالإنجـازِ

ഋഌശ്ശ

١٢ ـ حرف السين

سـاعِدْ صـديقَكَ في أمـرٍ يُحـاوِلُـهُ   فالحـرُّ للحُـرِّ مِعـوانٌ على الـزمنِ

* * *

سـافِرْ تجِـدْ عوضًـا ممـن تفارِقُـهُ   وانصَبْ فإنَّ اكتسابَ المجدِ في النصبِ

* * *

سـيذكُرُني قومـي إذا جَـدَّ جِـدُّهُمُ   وفي اللـيلةِ الظلمـاءِ يُفـتَقَدُ الـبدرُ

* * *

فما كـلُّ مَن يَشري القَنا يطعَنُ العِدا   ولا كلُّ مَن يَلقى الرجالَ بفارسِ(١)

* * *

يَـضيقُ مكـاني عـن سـوايَ لأنـني   على قمـةِ المجدِ المؤثَّلِ جالسُ(٢)

* * *

زُرتُ القـبورَ فما آنَستُ مـن شَبَحٍ   هـيهاتَ أوحَـشَ خِـلٌّ بعـد إيـناسِ

---

(١) القنا: الرماح.
(٢) المؤثَّل: الأصيل العريق.

١٣ ـ حرف الشين

شـاوِرْ سِـواكَ إذا نابَـتْك مـشكلةٌ يـومًا وإنْ كنتَ من أهلِ المشوراتِ

* * *

شَـكَرتُكَ إن الشُّكرَ دَينٌ على الفَتى ومـا كـلُّ مَـن أوليـتَه نعمـةً يَقـضي

* * *

شـهواتُ الإنـسانِ تُكـسِبُهُ الـذُّلَّ وتُلقـيه في الـبلاءِ الطـويلِ

* * *

سَـلِ الليـلَ عنـي هـل أذوقُ رُقـادَهُ وهـلْ لـضُلُوعي مُستقَرٌّ على فَرْشي

* * *

ألقَـى صُـدورَ الخـيلِ وهي عوابسٌ وأنـا ضـحوكٌ نَحـوَها وبَـشوشُ

* * *

أرى حُـسنَ الـبقاءِ لمَـن يَـرجَو فلاحًـا أو بـه رجـلٌ يعـيشُ

١٤ ـ حرف الصاد

صاحبُ البَغيِ ليس يسلمُ منهُ ... وعلى نفسِه بغيُ كلِّ باغِ

* * *

صُحبةُ يومٍ نسبٌ قريبُ ... وذِمَّةٌ يَحفظُها اللبيبُ

* * *

صديقُك مَن يرعاكَ عند شديدةٍ ... فكلٌّ تراهُ في الرَّخاءِ مُراعيا

* * *

تواصَلوا ببذلِ العُرف بل بَعَثَتْهم ... عليه سجاياهم بغيرِ تواصِ

* * *

مَن طال فوقَ منتهى بَسطتِهِ ... أعجَزَه نيلُ الدُّنَى بلْهَ القضا[1]

* * *

لقد حَرَصوا على الدُّنيا فبادُوا ... فلا تكُ في الحياةِ منَ الحِرَاصِ

---

(١) الدُّنَى: جمع «دنيا». بَلْه: فضلًا عن.

١٥ ـ حرف الضاد

ضَجَرُ الفَتى في الحادثاتِ مَذَمَّةٌ والصبرُ أليقُ بالرجالِ وأوفقُ

* * *

ضِدَّانِ لمَّا استجمعا حسُنا والضِّدُّ يُظهِرُ حُسنَه الضِّدُّ

* * *

ضياعُ العُمرِ في عبثٍ ولَهوٍ ضلالٌ لا يشابِهُهُ ضلالُ

* * *

ومُكائِدٍ لي بالمَغيبِ رميتُه بصَريمةٍ كالنَّجم في مَنقضِهِ[١]

* * *

مِن معشرٍ بَذلوا النفوس سماحةً وحَمَوا بيوتَ المجدِ أن تتقوَّضا[٢]

* * *

وخُذ لنفسِكَ مِن عُمرٍ تُضيِّعُهُ جزأً ولا تُرسِلَنَّ الأمرَ تفويضَا

---

(١) المُكائد: الذي يكيد بي. الصَّريمة: القطيعة.

(٢) تتقوَّضا: تتهدَّما.

١٦ ـ حرف الطاء

طَبعُ الفَتى يَصلُحُ بالتطبُّعِ فاعرِفْ طباعَ الصالحين واتَّبعِ

* * *

طلبُ الأماني بالتَّواني خَلَّةٌ لا يَلحقُ العلياءَ باغٍ مُقصِّرُ

* * *

طمعُ الفتى ذُلٌّ وعِفَّةُ نفسِهِ عزٌّ وكم شَرَهٍ يَجُرُّ إلى شَرَكِ[1]!

* * *

كأنَّ دنياك ماءُ حوضٍ آخرُه آجِنٌ خبيطُ[2]

* * *

مَن لك بالمهذَّبِ النَدْبِ الذي لا يَجِدُ العيبَ إليه مُختطِي[3]

* * *

فجُدْ بعُرفٍ ولو بالنَّذْرِ محتسبًا إنَّ القناطيرَ تَحوي بالقراريطِ[4]

(١) الشَّرَه: الطمع. الشَّرَك ـ بفتح الراء ـ الفخ.

(٢) الآجن: المتغير الكدِر. الخَبيط: القليل.

(٣) الندب: الخفيف الحاجة. المختطي: متتبع الحجج، واللَّهُ أعلم.

(٤) النذر: القليل.

١٧ ـ حرف الظاء

ظلموا الرعيةَ واستجازُوا كَيدَها   وعَدَوا مصالحَها وهم أُجراؤها

* * *

ظنَّ الحسودُ بنا الظنونَ وكيدُه   في نَحرِهِ فاللَّهُ خيرٌ حافظَا

* * *

ظهورُ العدلِ يَمحو كلَّ شرٍّ   إذا جاء الصباحُ مَضى الظلامُ

* * *

مِنَ الناس مَن لفظُه لؤلُؤٌ   يُبادِرُهُ اللفظُ إذ يَلفِظُ
وبعضُهم قولُه كالحصا   يقال فيُلغِي ولا يَحفَظُ[1]

* * *

ومِنَ البريَّةِ مَن يَعيبُ بجهلِهِ   أهلَ السِّناتِ وليس بالمتيقِّظِ[2]

---

(١) يلغي: يتكلم بكلام لا قيمة له.
(٢) السِّنات: جمع «سِنة»، وهي الغفلة اليسيرة.

١٨ ـ حرف العين

عـادات هٰـذا الدهـرِ ذمُّ مفـضَّلٍ ومَـلامُ مِقـدامٍ وعـذلُ جَـوادِ[١]

* * *

عَـدوى البليـدِ إلى الجليـدِ سـريعةٌ والجَمرُ يُوضَعُ في الرمادِ فيَخمُدُ[٢]

* * *

على قـدْرِ أهـلِ العـزم تأتي العزائمُ وتـأتي على قـدْرِ الكِـرام المكـارمُ

* * *

وذَكِّـر بالتُّقَـى نَفـرًا غُفُـولًا فلـولا الـسَّقيُ مـا نمـتِ الـزُّروعُ

* * *

كابَـدَ الأهـوالَ في زَورتِـهِ ثـم مـا سَـلَّم حتـى ودَّعـا[٣]

* * *

ظـنُّوا وميـضَ البـرقِ بـارِقَ نَجعـةٍ وما تحتَ كلِّ وميضِ برقٍ مرتعُ[٤]

---

(١) العَذْل: اللوم.

(٢) الجليد: القوي.

(٣) الزَّوْرة: المَرَّة من الزيارة، ويقصد مدةَ حياته القصيرة التي هي أشبه بالزيارة.

(٤) الوميض: الضوء. النجعة: الأرض الواسعة.

١٩ ـ حرف الغين

غضبُ الكريمِ وإن تأجّج نارُهُ ... كدُخانِ عودٍ ليس فيه سوادُ(١)

* * *

غفلةُ المرءِ عن دواعي المعالي ... مِن دواعي تخلُّفِ الآمالِ

* * *

غيرُ مُجدٍّ في ملّتي واعتقادي ... صوتُ باكٍ ولا ترنُّمُ شادِي

* * *

عُدْ عن شاربِ كأسٍ أسكرتْ ... فهو مثلُ الكلب في الرِّجْسِ ولَغْ

* * *

وأَرْوَحُ الرِّزقِ ما وافاك في دَعَةٍ ... حِلًّا وقُسِّم في أيامِهِ بُلَغَا

* * *

لنا في العُلا نفسٌ تَعِزُّ بربِّها ... وقلبٌ بغيرِ الفكرِ والشكرِ فارغُ

---

(١) أي: غضب الكريم ليس فيه حقدٌ وأذًى لأحد، بل يكونُ دومًا في الحقِّ فقط.

٢٠ ـ حرف الفاء

فـأتمِمْ مـا بـدأتَ بـه وأنعِـمِ ... فمـا المعـروفُ إلا بالـتمامِ

* * *

فقُـلْ لمُرجِّـي معالـي الأمـورِ ... بغيـرِ اجـتهادٍ طلـبتَ المُحـالا

* * *

فـؤادُ الفتـى نـصفٌ ونـصفٌ لسانُهُ ... فلـم يَـبقَ إلا صـورةُ اللحـمِ والدمِ

* * *

وإن يَعيـبوا سَـوادًا قـد كُـسِيتُ بـه ... فالـدُّرُّ يـسترُهُ ثـوبٌ مـنَ الـصَّدَفِ

* * *

يُـنجِّمُونَ ومـا يَـدرُونَ لـو سُـئلوا ... عـن البعوضـةِ أنَّـى مـنهمُ تَقـفُ؟

* * *

لـك الخيـرُ قد وَفَّيتَ جُودَكَ فَرضَهُ ... ومَـن بَذَلَ المجهودَ في شُكرِهِ وفَى

ﮋﮊﮉﮈ

٢١ ـ حرف القاف

قـد يُـدرِكُ الـشرفَ الفتـى ورداؤُهُ خَلِـقٌ وجَـيبُ قميـصِهِ مـرقوعُ

* * *

قـد قَضى مـا علـيه مَن بلغ الجهدَ وإن لم يـصِلْ إلى مـا أرادا

* * *

قـيمةُ كـلِّ امـرئٍ تـراهُ مـا يَقتنـيهِ مـنَ العلـومِ

* * *

مـا إنْ رأيـتُ ولا سـمعتُ بمِـثلِهِ دُرًّا يعـودُ مـن الحـياءِ عقـيقًا(١)

* * *

لا أطمـئنُّ ولا أتـوقُ إلى هـوًى ولكـلِّ حـيٍّ في الحـياة مَـتاقُ(٢)

* * *

وسـيَحذَرُ الدَّعـوى اللبـيبَ فـإنها للفـضلِ مَهـبطةٌ وخَطـبٌ مُوبِـقُ(٣)

ﮋﮊﮉﮈ

---

(١) العقيق: الجوهر.

(٢) أتوق: أتشوق.

(٣) مُوبق: مهلك.

٢٢ ـ حرف الكاف

كفى حزنًا أن الجَوادَ مُقتَّرٌ عليهِ ولا معروفَ عندَ بخيلِ[(١)]

* * *

كلُّ امرئٍ راجعٌ يومًا لشيمتِهِ وإن تمتَّع أخلاقًا إلى حِينِ

* * *

كلُّ مَن في الوجودِ يَطلب صيدًا غيرَ أن الشِّباكَ مُختلفاتُ

* * *

كيف السُّلُوُّ وما سمعتُ حَمائمًا يندُبْنَ إلا كنتُ أوَّلَ باكِ!

* * *

والعينُ تُبصِرُ أينَ حَبَّتُها لٰكنَّها تعمَى عن الشَّرَكِ[(٢)]

* * *

جَهِلَ الديانةَ مَن إذا عرضَتْ له أطماعُهُ لم يُلْفَ بالمتماسِكِ[(٣)]

ꕥꕥꕥꕥ

---

(١) مقتَّر: مضيَّق.

(٢) الشَّرَك: الفخ.

(٣) وهٰذه نُهديها لأنفسنا ممن ادَّعوا الالتزام، ويزلُّون عند أدنى طمع.

٢٣ ـ حرف اللام

لَعَمْـــرُكَ مـــا الأيـــامُ إلا مُعـــارَةٌ   فما اسـطعتَ مـن معـروفِها فتـزوَّدِ

* * *

للـــبكاءِ النـــساءُ عـــند الـــرزايا   ولحُـــسنِ العـــزاءِ فـــيها الـــرجالُ

* * *

لهـــا في طَـــرفِها لحظـــاتُ حـــتفٍ   تُمـــيتُ بها وتُحيـــي مـــن تـــريدُ

* * *

ألا أيُّهـــا القلـــبُ اللَّجـــوجُ المُعـــذَّلُ

أفِـقْ عـن طِلابِ البيضِ إن كنت تعقلُ (١)

* * *

ولي في كـــلِّ معـــركةٍ حـــديثٌ   إذا ســـمِعَتْ بـــه الأبطـــالُ زَلُّـــوا

* * *

تجنَّبِ الزهوَ في الدنيا فلو زَهِيَتْ   غُـــرُّ الغَمـــامِ لـــذَلَّ القطـــرُ إذ نـــزَلا

ﮩﮨﮧﮦ

---

(١) البِيض: الفتيات الجميلات.

٢٤ ـ حرف الميم

متى يبلغُ البنيانُ يومًا تمامَهُ ... إذا كنتَ تبنيهِ وغيرُك هادمُ

* * *

مَن لم يقِفْ عند انتهاءِ قَدْرِهِ ... تقاصَرَتْ عنه فسيحاتُ الخُطا

* * *

مَن ضَيَّع الحزمَ جَنَى لنفسه ... ندامةً ألذعَ مِن سَفح الذَّكا(١)

* * *

أرى ألفَ بانٍ لا يقومُ بهادمِ ... فكيف ببانٍ خلفَه ألفُ هادمِ؟!

* * *

وكيف يُطيقُ الصبُّ كتمانَ سِرِّه ... وهل يَكتم الوجدَ امرؤٌ هو مُغرَمُ(٢)

* * *

وما الفضلُ في أهل الشرابيسِ سُبَّةٌ ... وما الفضلُ محصورًا بأهل العمائمِ(٣)

ﮌﮋﮊﮉ

---

(١) ألذع: أشد إيلامًا.

(٢) الصَّبُّ: العاشق. الوَجد: العشق.

(٣) الشَّرابيس: الثياب البالية.

٢٥ ـ حرف النون

نـافِسْ على الخيـراتِ أهـلَ العُـلا　　　فإنمـا الدنـيا أحاديـثُ

*　*　*

نفـسُ عـصامٍ سـوَّدت عـصامًا　　　وعلَّمَـتْه الكَـرَّ والإقـداما

*　*　*

نَهيتُك لا تَعجَلْ بعتبٍ لصاحبٍ　　　لعـلَّ لـه عـذرًا وأنـت تَلـومُ

*　*　*

فكـم يـشكو كـريمٌ مـن لئـيمٍ　　　وكـم يَلقـى هِجـانٌ مـن هجـينِ

*　*　*

لو كانت الخمرُ حِلًّا ما سمَحتُ بها　　　لنفـسيَ الدَّهـرَ لا سِـرًّا ولا علـنَا

*　*　*

يَهـوَى الثـناءَ مبـرِّزٌ ومقـصِّرٌ　　　حـبُّ الثـناءِ طبـيعةُ الإنـسانِ

ﮪﮫﮬﮭ

٢٦ ـ حرف الهاء

هٰـذي الحـياةُ مـسافةٌ فاصـبِرْ لهـا ... كَـيما تَبـينُ وأنـت غيـرُ ملـومِ[١]

* * *

هٰـذا البـياضُ رسـولُ الموتِ يبعثُه ... في كلِّ عصرٍ إلى الأجيالِ والأُممِ[٢]

* * *

هـي الـرَّاحُ أهـلٌ لطـولِ الهجـاءِ ... وإن خـصَّها معـشرٌ بالمـديحِ[٣]

* * *

والليـلُ سـيفُ الفجـرِ في فَـرَقِهِ ... يقـتلُه والـدِّيكُ يَـنعاهُ

* * *

أشـبَهتَ في العُـلاء جَـدَّك أحمـدًا ... إنَّ الأكـارمَ في العـلا أشـباهُ

* * *

أعـوذُ باللّـهِ مـن قـومٍ إذا سـمِعوا ... خيـرًا أسـرُّوه أو شـرًّا أذاعُـوه

---

(١) تَبين: ترحل.
(٢) البياض: الشَّيب.
(٣) الراح: الخمر.

٢٧ ـ حرف الواو

وإذا الكـريم مَـضى وولَّـى عمـرُهُ كُفِـلَ الثـناءُ لـه بعمـرٍ ثـانِ

* * *

وآفـةُ العقـلِ الهـوى فمـن عـلا على هـواهُ عقلُـه فقـد نجـا

* * *

وقَـلَّ مَـن جـدَّ في أمـرٍ يُحاوِلُـهُ واستـصحَبَ الـصبرَ إلا فازَ بالظَّفَرِ

* * *

وجـدتُ الـرفقَ أبلـغَ في الـسُّمُوِّ ولم أرَ كالتواضـعِ في العُلـوِّ

* * *

إذا أَهَلَـتْ ديـارٌ مـن أُنـاسٍ فـسوف يَمَـسُّها مـنهم خُلُـوٌّ(١)

* * *

ومـا أنـا يـائسٌ مـن عفـوِ ربـي على مـا كـان مـن عمـدٍ وسـهوِ

(١) أَهَلَت: عُمِّرت.

٢٨ ـ حرف لام ألف

لا تَجُـدْ بالعطـاءِ في غيـر حـقٍّ ليس في مَنعِ غيرِ ذي الحقِّ بخلُ

* * *

لا تَجعَلِ الهزْلَ دأبًا فهو منقصةٌ والجِدُّ تعلُو به بين الوَرَى القِيَمُ

* * *

لا تَجعَلنَّ دليلَ المرءِ صورتَه كم مَخبَرٍ سمجٍ مِن منظرٍ حسَنِ!

* * *

عركتُ نوائبَ الأيام حتى رأيتُ كثيرَها عندي قليلَا

* * *

وسائلينَ بحالي كيف صُورتُها؟ فقلت: قد نطقتْ حالي لمن عقلَا

* * *

وإذا أذللتَ النفسَ في طلب العلا فلَتَلْقَيَنَّ لمَا ملكتَ مُذيلَا[1]

---

(١) لعل المراد: أنك ستجد لما حصلت عليه زيادة خير وبركة.

٢٩ ـ حرف الياء

يقولـون لي: فـيكَ انقـباضٌ وإنمـا　　　رأَوا رجلًا عن موقفِ الذُّلِّ أحجَمَا

* * *

يأبـى الفَتـى إلا اتـباعَ الهـوى　　　ومـنهجُ الحـقِّ لـه واضـحُ

* * *

يَعيـبون لـوني بالـسَّوادِ جهالـةً　　　ولـولا سـوادُ الليل مـا طلعَ الفجرُ

* * *

تـرومُ شـفاءَ مـا الأقـوامُ فـيهِ!　　　رويـدك إن داء القـوم أعـيا

* * *

دعـا لي بالحـياةِ أخـو ودادٍ　　　لعَمـرُك إنمـا تدعـو عَلَـيَّا

* * *

إذا الإنـسانُ كـفَّ الـشرَّ عنـي　　　فـسَقيًا في الحـياةِ لـه ورَعْـيا

ﮋﮊﮉﮈ

هٰذا ما قُدِّر لنا جَمعُه؛ داعينَ أن يعُمَّ نفعه، فعلى المتأدِّب أن يحتفظ بدُرَره، ويستظهرَ من غُرره، فإن وعيَه لحِكَمه من تمام النعمة؛ لا سيَّما خواتمَه المنظومة، وفي الحديث: «إنَّ من الشِّعرِ لَحِكمةً»[1].

وكان مؤلِّفُه ابتدأ بتسويدِه عام (١٣٢٢هـ)، ثم أعاد النظرَ إليه مراتٍ، إلى أن تمَّ تبييضُه في شعبان سنة (١٣٣١هـ) بدمشق الشام.

والحمدُ للَّهِ ذي الجلال والإكرام[2].

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٤٥٦)، والبخاري (٦١٤٥)، وأبـو داود (٥٠١٠)، والترمذي (٢٨٤٤)، وابن ماجه (٣٧٥٥).

(٢) قال أبو شُعيب ـ عفا اللَّهُ عنه ـ : وقد انتهيت ـ بدوري ـ من رَصْف الكتاب، وضبطِه، والتعليق عليه على فتراتٍ متقطِّعةٍ بلغت ما يقرُبُ من العام، وأسألُه تعالى أن يجعلَه عملًا مقبولًا مباركًا، وأن ينفعَ به عبادَه الصالحين، إنه أرحمُ الراحِمين، وأكرمُ الأكرمين، وصلَّى اللَّهُ وسلَّم وبارك على الحبيب محمدٍ، وعلى آله وصَحبه وسلَّم.



الفهارس

١ ـ فهرس الأحاديث النبويَّة.

٢ ـ فهرس الفوائد.

٣ ـ فهرس الموضوعات التفصيلي.

١ ـ فهرس الأحاديث النبويَّة



٢ ـ فهرس الفوائد المنثورة

٣ ـ فهرس الموضوعات